تاريخ التمدن الإسلامى

تأليف
جرجى زيدان
منشىء الهلال

الجزء الخامس

يبحث فى نظام الاجتماع وطبقات الناس والآداب الاجتماعية والمعيشة العائلية وحضارة المملكة وآثار المدنية وأبهة الدولة ومظاهر العظمة والفخامة

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

مقدمة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامى هو آخر أجزاء الكتاب . فنحمد الله لاننا وفقنا الى اتمام هذا العمل الشاق ، مع ما يعتوره من العقبات ويحتاج اليه من اعمال الفكرة والمراجعة لما توخيناه فيه من التحقيق والتدقيق ، ولا سيما بعد أن عمدنا الى ذكر المراجع فى هوامش الصفحات ، مع الاشارة الى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها . ولا يخفى مايقتضيه ذلك من التيقظ والتعب فى ضبطه والتوفيق بين أجزائه . ولكنه اعاننا من الجهة الاخرى على الايجاز فى بعض الاماكن ، اكتفاء بالاشارة الى خلاصة الموضوع واحالة القارىء فى استيفائه الى المصدر الاصلى لئلا يخرجنا ايراده الى التطويل

على ان كثرة الموضوعات وتعدد فروعها وتداخلها ، قد حملنا أحيانا على ايراد بعض النصوص فى جزء مع ورودها فى جزء آخر قبله . وانما فعلنا ذلك رغبة فى استيفاء الادلة واحكام البرهان ، بتنسيق المقدمات ونتائجها وتفاديا من ارجاع القارىء الى بعض الاجزاء السابقة ، وان كنا لم نعمد الى هذا التكرار الا عند الضرورة ، لان وجهتنا الاولى فى كتابتنا انما هى بسط العبارة وايضاح الموضوع ، حتى ينجلى للقارىء كأنه مجسم . على اننا كثيرا ما احلنا المطالع الى مراجعة ما سبق ذكره فى أماكنه

والجزء الذى نحن بصدده أكثر سائر الاجزاء طلاوة وأقربها الى أفهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ، لانه يبحث فى مثل ما ألفوه من العادات والآداب مما تلذ مطالعته وتتوق النفس الى معرفته ، من الابحاث الاجتماعية والموضوعات العمرانية والاحوال العائلية ، مما يريده الناس عادة بقولهم « حضارة » أو « مدنية » ، وهو فى الحقيقة بعض ظواهرهما على ما تبين لك فى الاجزاء السابقة (*)

(*) يفرق الباحثون اليوم بين الحضارة والمدنية ، فالاولى تقابل مصطلح culture ويراد به أى تحسن فى احوال البشر . واول من استعمل هذا اللفظ فى ذلك المعنى هو الالمان ، فقالوا kultur وارادوا به كل ما يوفق اليه الانسان من تحسين فى أحواله بالتجربة والتفكير . اما المدنية فيراد بها مايصل اليه البشر من تقدم باجتماعهم بعضهم الى بعض . فرقى الانسان مثلا فى عصور ما قبل التاريخ يسمى حضارة ولا يسمى مدنية ، اما رقيه بعد ان نشأت المجتمعات فيسمى مدنية — وقد قال ابن خلدون ان الانسان مدنى بالطبع ، أى ميال الى الاجتماع بغيره للتعاون على شئون العيش ، ومن هنا تنشأ المدنية . وقد استعمل الاستاذ جرجى زيدان مصطلح « التمدن » وهو صحيح ينطبق على موضوع كتابه ، ونحن نقول اليوم « الحضارة الاسلامية » لان لفظ الحضارة يشمل المدنية ايضا ، فى حين ان المدنية لا تشمل الحضارة

فموضوعات هذا الجزء سهلة على المطالع ، ولـكنها شاقة على المؤلف ، لخلو كتب القوم من امثالها على الاسلوب الذى تطلبناه فى هـــذا الـكتاب . ولو بحثت فيماكتبه أسلافنا فىالتاريخ والادب والعلم وغيرها ، ما رأيت لأحدهم فصلا ولا جملة ولا فقرة فى نظام الاجتماع مثلا أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية أو الحضارة أو الأبهة ، الا ما قد يرد عرضا فى أثناء النوادر أو الحـكم أو التراجم أو الوقائع مما استعنا به فى الاستدلال على بعضالحقائق المذكورة (*)

وابحاث هذا الجزء تنتظم فى اربعة أبواب كبرى :

(١) نظام الاجتماع
(٢) الآداب الاجتماعية
(٣) حضارة المملـكة
(٤) أبهة الدولة

فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس ، ولذلك قدمنا الـكلام بفصـــول فى طبقاتهم قبل الاسلام فى جزيرة العرب وما يحدق بها من البـــلاد العامرة فى الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية ، ثم طبقاتهم بعد الاسلام وما طرأ عليها من التغيير فى أيام الراشدين فالامويين فالعباسيين . وبسطنا الـكلام فى نظام الاجتماع فى العصر العباسى ، فقسمنا النـــاس الى طبقتين كبيرتين : الخاصة والعامة ، وجعلنا الخاصة اربع طبقـــات : الخليفة ، واهله ، وأهل دولته ، وأرباب البيوتات . واضفنا الى الخاصة طوائف من النـــاس يصح الحاقهم بها سميناهم « اتباع الخاصة » وهم : الجند ، والاعوان ، والخدم . ويدخل فى طائفة الخدم : العبيد ، والجوارى ، والخصيان . وبينا ما كانت عليه كل طبقة أو طائفة فى عهد ذلك التمدن

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين : الاولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائحهم أو هممهم الى اللحاق بالخاصة ، كأصحاب الفنون الجميلة واهل الادب والشعر والغناء وارباب التجارات الثمينة والصناعات العليا .. وذكر ما كان يكتسبه هؤلاء من الاموال المتدفقة من خزائن الدولة . وأما الطبقـــة الثانية من العامة فهم معظم الأمة ، وينقســـــمون الى فئتين : الاولى أهل القرى وهم السواد الاعظم ، والثانيـــة عامة أهل المدن وهم أكثر سكانها ، ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى ، وبينهم طوائف العيـــارين

(*) ربما كان هـــذا الحكم صحيحا فى الوقت الذى الف فيـــه المؤلف كتـــابه ، اذ لم تكن الاصول الخاصة بالنظم ووجوه الحضـــارة الاسلامية قد نشرت بعد ، اما الآن فالمادة فى هـــذا الموضوع وفيرة فى كل ناحية من نواحى الحضـــارة والتنظيم السياسى او الاجتماعى ، وسترد الاشارة الى أهم اصول هذا الباب فى تعليقاتنا على هذا الجزء

والشطار والمخنثين وغيرهم ، وذكرنا تاريخ كل منها (*)

(*) لتقى الدين احمد بن على المقريزى المؤرخ المصرى عبارة غاية فى الاهمية فى طبقات الناس وطوائفهم فى مصر على أيامه أوردها فى كتاب « اغاثة الامة بكشف الغمة » الذى فرغ من تأليفه سنة ٨٠٨ هجرية (نشر الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠) وهو من أحسن ما كتب المسلمون فى الاجتماع والاقتصاد ونظام الدولة ، نوردها هنا على تواليها لأهميتها ولمشابهة ما جاء فيها بمذهب المؤلف فى هذا التقسيم الاجتماعى :

«. الناس باقليم مصر فى الجملة على سبعة اقسام : القسم الاول أهل الدولة ، والقسم الثانى أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البز ، ويلحق بهم أصحاب المعايش ، وهم السوقة ، والقسم الرابع أهل الفلح وهم اهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف ، والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والقسم السادس ارباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن ، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم

فأما القسم الاول ، وهم اهل الدولة ، فحالهم فى هذه المحن على ما يبدو لهم ولمن لا تأمل عنده ولا معرفة بأحوال الوجود له ، أن الاموال كثرت بأيديهم بالنسبة لما كانت قبل هذه المحن ، باعتبار ما يتحصل من خراج الاراضى ، فان الارض التى كان مبلغ خراجها قبل هذه الحوادث مثلا عشرين الف درهم صار الآن خراجها مائة الف درهم . وهذا الظن ليس بصحيح بل قلت اموالهم بالنسبة الى ما كانت عليه أموال امثالهم من قبل : وبيان ذلك أن العشرين الف درهم فيما سلف كان مالكها ينفق منها فيما أحب واختار ، ويدخر منها بعد ذلك ما شاء الله ، لانها كانت دراهم ، وهى قيمة الف مثقال من الذهب او قريب منها . والآن انما يأتيه بدل تلك المائه الف درهم فلوس ، هى قيمة ستمائة وستة وستين مثقالا من الذهب ، ينفق ذلك فيما يحتاج اليه فى اليوم من لحم وخضر وتوابل وزيت ونحوه ، وفيما لا بد له من كسوته وكسوة عياله ، وما تدعو اليه الحاجة من خيل وسلاح وغيره ، مما كان يشتريه قبل هذه المحن بعشرة آلاف من الفضة ونحوها . ولولا تساوى العالم من الخاصة والعامة بتفاوت مابين سعر المبيعات الآن وبين سعرها قبل هذه المحن لبينا ذلك ، ولا بد من الالماع بطرف منه ان شاء الله تعالى : فأهل الدولة لو ألهموا رشدهم ، ونصحوا انفسهم لعلموا انهم لم ينلهم ربح البتة بزيادة الاطيان ، ولا بغلاء سعر الذهب الذى كان اصل هذا البلاء وسبب هذه المحن ، بل هم خاسرون ، وان ذلك من تلبيس مباشريهم لنيلهم مايحبون من اغراضهم ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله

واما القسم الثانى ، وهم مياسير التجار وأولو النعمة والترف ، فان التاجر اذا استفاد مثلا ثلاثة آلاف درهم فى بضاعته ، فانما يتعوض عنها فلوسا او عشرين مثقالا من الذهب ، ويحتاج الى صرفها فيما لا غنى له عنه من مؤونته ومؤونة عياله ، وكسوته وكسوة عياله . فهو لو تأمل لاتضح له انه لما كان أولا يستفيد فى مثل هذه البضاعة ألف درهم مثلا ، انها تغنى عنه فى كلفته أكثر مما تغنى عنه هذه الثلاثة آلاف درهم من الفلوس بكثير . فالبائس لغباوته يزعم انه استفاد ، والحقيقة انه انما خسر ، ولسوف عما قليل ينكشف له الغطاء ، ويرى ماله قد أكلته النفقات ، وأتلفه اختلاف النقود ، فيعلم فساد ما كان يظن ، وكذب ما كان يزعم ، ومن يضلل الله فما له من هاد

واما القسم الثالث ، وهم أصحاب البز وارباب المعايش ، فانهم فى هذه المحن يعيشون مما يتحصل لهم من الربح ، فان أحدهم لا يقنع من الفوائد الا بالكثير جدا ، وهو بعيد ساعات من يومه ينفق ما اكتسبه فيما لا بد له منه من الكلف ، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته ، ويقنع كما قال الاول :

على اننى راض بأن احمل الهوى واخلص منه لا على ولا ليا

وأما القسم الرابع ، وهم أصحاب الفلاحة والحرث ، فهلك معظمهم لما قدمناه من شدة السنين وتوالى المحن بقلة رى الاراضى . وفيهم من أثرى ، وهم الذين ارتوت أراضيهم فى سنى المحل ، فنالوا من زراعتها اموالا جزيلة عاشوا بها هذه الازمنة ، على أن فيهم من عظمت ثروته ، وفخمت نعمته ، ونال ما اربى على مراده ، وزاد على ما أمله ، والله يقبض ويبسط واليه ترجعون

وأما القسم الخامس ، فهم أكثر الفقهاء وطلاب العلم ، ومن يلحق بهم من الشهود ، والكثير من أجناد الحلقة ، ومن شابههم ممن له عقار أو جار من معلوم سلطان أو غيره ، فهم ما بين

وأما الآداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد فى تاريخها من زمن الجاهلية ، فذكرنا مناقب البدو كالعصبية والانفة والوفاء والسخاء والنجدة والاريحية والعفة ، وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجا بتقدم القوم فى معارج الحضارة ، وذكرنا الاسباب التى بعثت على تبديل بعضها فى عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسى . وبسطنا الكلام فى آداب هذا العصر بسطا وافيا ، لأنه هو المراد بهذا الباب ، فقسمنا الكلام فيه الى فصول فى العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية ، فبينا عفتها وانفتها فى الجاهلية وأوردنا أمثلة ممن اشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأى ، وكيف تبدلت أحوالها فى عصر الترف بما أدخله عليها الرجل من الجوارى والسرارى ، حتى ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها . وأفردنا فصلا لأسلوب الارتزاق فى عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب . وجعلنا كلامنا فى المعيشة العائلية فصولا فى الطعام واللباس والمأوى، فأجملنا تاريخ كل منها فى أيام الجاهلية وما أحدثه فيه ذلك التمدن

ثم أتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة ، فقسمناه الى قسمين : أولهما العمارة (*) أو العمران ، وثانيهما الثروة والرخاء . والعمارة اما فى المدن أو فى القصور ، فأتينا بأمثلة من عمارة أهم المدن الاسلامية ، وأشهر القصور والمبانى فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها . اما الثروة فيدور الكلام فيها على أبحاث فى ثروة الخلفاء والامراء وما تقتضيه من التأنق فى الطعام والتنعم باللباس والتزين بالاثاث والرياش والمجوهرات ونحوها .. ثم القصف وما يلابسه من التسرى وعقد مجالس الغناء والشراب . ثم السخاء وقد نظرنا فيه من أيام الراشدين الى العباسيين ، وكيف تدرج القوم فى مقدار الصلة ونوعها . ويتخلل ذلك فصول فى الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والادبية ، والمسكر وخلاصة أقوالهم فى تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وانغماس الخاصة فيه ، فضلا عن العامة وما نتج عن ذلك من التهتك والاسراف والفحشاء

ميت أو مشتهى الموت ، لسوء ما حل بهم . فان أحدهم اذا أتته مائة درهم مثلا فان ما يأخذ عنها فلوسا أو ثلثى مثقال ، ينفق ذلك فيما كان ينفق فيه من قبل عشرين درهما من الفضة . فلحقهم من أجل ذلك القلة والخصاصة ، وساءت أحوالهم ، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير

وأما القسم السادس ، فهم أرباب المهن والاجراء والحمالون والخدم والسواس والحاكة والبناة والفعلة ونحوهم، فان أجرهم تضاعف تضاعفا كثيرا ، الا انه لم يبق منهم الا القليل لموت أكثرهم ، بحيث لم يوجد منهم الواحد الا بعد تطلب وعناء ، ولله عاقبة الامور

وأما القسم السابع ، فهم أهل الخصاصة والمسكنة ، ففنى معظمهم جوعا وبردا ، ولم يبق منهم الا أقل من القليل . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ص ٧٢ — ٧٥

(*) تطلق « العمارة » الآن كمصطلح على المنشآت من المبانى وما جرى مجراها ، وهى تقابل لفظة architecture فى الانجليزية والفرنسية

أما أبهة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء وأحوالهم ، من سذاجة الراشدين وتقشفهم الى بذخ العباسيين وأبهتهم . وقسمنا البحث فى هذا العصر الى فصول عديدة فى مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم وعلاقاتهم بالدول المعاصرة وملابسهم وألعابهم وملاهيهم . ويتفرع القول فى مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمناظرة وغيرها . فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلاس فيه وشروط الاستئذان فى الدخول والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك . وقسمنا ملاهيهم الى فصول فى الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمى البندق وارتباط السباع وغيرها

وذيلنا هذا الجزء بجدول أسماء الكتب التى ذكرت فى هوامش الاجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه ، فضلا عن فهرس هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد فى تحرى الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما يبلغ اليه الامكان ، فان أحسنا فذلك قصدنا وأقصى مرادنا ، وان أسأنا فعن غير عمد منا وما العصمة الا الله وحده .

نظـــام الاجتماع

نظام الاجتماع فى المملكة الاسلامية

موضوع هـــذا الباب النظر فى حال الهيئـــة الاجتماعية فى ابان التمدن الاســـلامى ، وبيان الجماعات التى كانت تتألف منها طبقاتهم وعلاقاتهم بعضها ببعض . ولزيادة الايضاح نمهد بالـكلام عن نظام الاجتماع على عهـــد الروم والفرس فى البـــلاد التى فتحها المسلمون من تينك المملـكتين ، وما كان من تأثير الاســـلام فى ذلك النظام ، وكيف تدرج فى الارتقاء من أيام الراشـــدين فالامويين فالعباسيين ، ثم نبسط القول فى نظام الاجتماع فى العصر العباسى

طبقات الناس قبل الإسلام

ويقسم الـكلام فى ذلك الى وصف طبقات الناس (١) فى الشـــام والعراق (٢) فى مصر (٣) فى افريقيا (٤) فى بلاد فارس (٥) فى جزيرة العرب

١ ـ طبقات الناس فى الشام والعراق

نريد بهذين البلدين ما بين دجلة فى الشمال الشرقى وآخر حدود الشام فى الجنوب الغربى (*) ، وسكان هـــذه البقعة اكثر أمم الارض اختـــلاطا فى أجناسهم وأديانهم وآدابهم لـكثرة الدول التى توالت عليها من اقدم أزمنـــة التاريخ . وللعلماء ابحاث طويلة وآراء متضاربة فى أحوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من ابحاثهم أن اقدم من عرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين ، وكانت مساكن القبائل السامية تمتـــد من دجلة عند ما بين النهرين شمالا شرقيا الى سواحل ســـوريا حتى العريش فالبحر الاحمر غربا وشواطىء اليمن وحضرموت جنوبا فخليج فارس وبحر عمان شرقا ، وهى عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب

والساميون ثلاثة فروع كبرى :

(١) الآراميون ، وهم القبائل السامية الشمالية . كانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق وسوريا الا قسما من شواطئها

(*) أى أن المراد ما بين دجلة والفرات ثم بلاد الشـام بحدودها التاريخية وقبل تقسيمها الحالى ، أى من آسية الصغرى الى مشارف الجزيرة العربية

(٢) العبرانيون ، وهم القبائل السامية الوسطى . وموطنهم فى فلسطين وشواطىء سوريا

(٣) العرب ، وهم القبائل السامية الجنوبية . ومقامهم فى جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا (*)

الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعا من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية ، وانقسموا بتوالى الأجيال الى أمم اشتهرت فى التاريخ ، أهمها أمة السريان فيما بين النهرين والعراق ، والكلدان فى أعالى سوريا . وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السريانى والكلدانى .

والعبرانيون يراد بهم أبناء ابراهيم عليه السلام ، وقد استقروا فى فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية .

وأما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هى العربية ، ومن

(*) كان لفظ الساميين يطلق على اهل الاقاليم التى تعرف اليوم بالشرق الادنى ، عدا مصر. وقد لاحظ العلماء أن هذه الشعوب تتشابه فى الكثير من خصائصها الذهنية والجسمية ، فاللغات التى يتكلمونها متقاربة وقواعد هذه اللغات متشابهة وعاداتهم الاجتماعية وأفكارهم السياسية واساليب حياتهم متقاربة . ولهذا فقد أطلق عليهم اسم واحد هو الساميون ، وتسميتهم بالساميين ترجع الى التوراة التى تجعل شعوب العالم ثلاثة انحدرت عن أبناء نوح وهم سام وحام ويافث . وقد ظل هذا القول مقبولا عند عامة المؤرخين حتى العصور الحديثة، واخذ به نسابة العرب ومؤرخوهم ، بل ان ايرنست رينان أيد هذا القول فى كتابه المعروف عن تاريخ اللغات السامية الذى نشره سنة ١٨٥٥ فى باريس وأحدث به ضجة كبرى ، فقد قال بالاصل المشترك للساميين وايد قوله بتشابه لغاتهم وطرائقهم فى التفكير ونظرتهم الى جزئيات الاشياء دون كلياتها وتأثرهم بالغيبيات وميلهم الى البساطة فى التفكير وقولهم بالوحدانية ، ثم قال ان هذه الخصائص العقلية والجسمية ترجع الى عوامل بيولوجية متأصلة فى طبعهم ورثوها عن أصلهم الواحد الذى تحدروا منه ، ومضى يقارن بينهم وبين الآريين ، ونشأت نتيجة لذلك نظرية الآرية والقول بامتيازها على غيرها من الاجناس ، وهو قول دفع اليه التعصب الاوروبى والنزوع الى الاستعمار والرغبة فى أن يستقر فى أذهان الناس أن الجنس الابيض أسمى من غيره وأن له الصدارة والقيادة ، وأن الناس لهذا ينبغى أن ينقادوا له ويسيروا فى ركابه ، وقد بلغت هذه العصبية الآرية ذروتها على أيدى الالمان وخاصة النازيين . غير انه تبين بعد ذلك أن هذه كلها أن هى الا مزاعم وخرافات لا يؤيدها الواقع أو البحث العلمى ، فأن شعوب العالم مختلط بعضها ببعض اختلاطا يصعب معه القول بوجود شعب نقى الدم ، وأولئك الذين يسمون بالساميين ان هم الا خليط من شعوب وأجناس كثيرة تلاقت فى منطقة الشرق الادنى . ثم ان الاختلاف فى اتجاهات التفكير عند الشعوب لا يرجع الى اختلاف فى تركيب دماء أفرادها، بل ان ذلك متأثر بالبيئة الجغرافية والاجتماعية وظروف التاريخ

وعلى هذا فالشعوب التى تسمى سامية ليست شعوبا نقية الدم متحدرة عن اصل واحد من أقدم الازمنة ، وانما المراد بها شعوب تعيش فى بيئات جغرافية متشابهة ، وهذه البيئات الجغرافية أوجدت ظروفا اجتماعية متقاربة ، وقد خضعت هذه الشعوب لظروف تاريخية واحدة ، فكانت النتيجة ان تشابهت لغاتها وصور مجتمعاتها واساليب تفكيرها

وربما أمكن القول برجوع اللغات السامية الى أصل لغوى واحد ، فالعربية والعبرية والآرامية والنبطية والسريانية ترجع كلها الى لغة أصلية تسمى السامية القديمة **Ursemetisch** يقال انها نشأت فى قلب الجزيرة العربية ، ثم حملتها موجات الهجرات البشرية من داخل الجزيرة الى خارجها

فروعها أو أخواتها الحميرية والحبشية . وأقرب القبائل العربية الى الشام الأنباط ، وكان لهم شأن فى أثناء تسلط الرومان على الشام سيأتى ذكره

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت فى أقدم أزمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسبا ولغة . أما قبل نزول الساميين فكانت مقاما لأمم لايعرف اصلها ، وكان الساميون اقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها ، وأخذ أولئك فى الانقراض قبل الميلاد بعدة قرون • وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب : السريان ، فالكلدان ، فالفينيقيون ، فالعبرانيون ، فالأنباط • وخالطتهم أمم شتى غير سامية ، اقامت بين أظهرهم فى بقاع مختلفة من بلادهم ، غير بقايا الشعوب الأصلية مما يطول بيانه ، ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعا وعاشت أديانهم وآدابهم وعاداتهم

على أن مركز هذه البلاد الجغرافى جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الأمم القديمة ، كالحثيين والأشوريين والفرس ، فكانوا يتناوبون فتحها أو اكتساحها وتتقاطر شعوبهم اليها . ولكن الأمر لم يستقم لدولة من هذه الدول فى سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر ، فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد فى القرن الرابع قبل الميلاد ، واوغل فيها وغرس فى نواحيها بذور الحضارة الاغريقية ، وقد اختلطت هذه العناصر الاغريقية بعناصر الحضارات الاصلية فى هذه البلاد ونشأ عن ذلك مايعرف بالحضارة الشبيهة بالهيلينية Hellenistic وتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية وهى فى سلطة الرومان . ولكن العنصر اليونانى مازال متغلبا عليها ، واكثر تغلبه على سواحل بحر الروم . ويضعف شأنه فى الداخل تدريجا

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ، ولا سيما اليهود فانهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسبى ظلوا من حيث الآداب والدين على نحو ماكانوا عليه فى أيام داود وسليمان ، الا ما أصاب لغتهم من التغيير فى اثناء السبى ببابل ، فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية أو الكلدانية ، وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين • أما من بقى من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم ، واكثرهم كانوا يقيمون فى العراق وما بين النهرين وأعالى سوريا الى فلسطين

الأنباط (*)

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر

(*) تحدث المؤلف عن هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابه « العرب قبل الاسلام » ، وقد علقنا على طبعته الجديدة بما فيه الكفاية

اليونانى ، وحدودها الشرقية مما يلى البادية يغلب عليها العنصر العربى . وكان هناك فى أوائل القرن الرابع قبــل الميــلاد أمة عربية عرفت بالانباط أو النبط ، كان مقامهم وراء فلسطين غربا جنوبيا على انقاض الادوميين ، فى بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربيــة الصخرية Arabia Petraea ، ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية الى الآن وفيها الابنية المنقوشــة والتماثيل المنحوتة ونحوها. حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق.م بقيادة انتيجونوس وكان الانباط عشرة آلاف مقــاتل . وذكر ديودورس أنهم يجتنبون الزراعة رغبة فى الرحلة ، ويعيشون على اللحوم والالبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل ، وانما شرابهم الماء يحلونه بالمن وهو كثير عندهم . وكانوا يتجرون بالمر والاطياب يحملونها من شواطىء البحر الاحمر وبلاد العرب ، وبالحمر أو القار يحملونه من البحر الميت الى مصر ليستخدمه المصريون فى التحنيط . وكانت طرق التجارة بين مصر وســائر المشرق لا تسلك الا على يدهم ، والا فانهم يهاجمــون القوافل وينهبون التجار . ثم تغلب عليهم البطالســة وقهروهم ، فتباعدوا عن حدود مصر ونزلوا حوران ، ونبغ منهم فى القرن الاول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون اريتاس (الحارث) حارب عامل دمشق وغلبــه على مدينته واســتولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيفا وأربعين سنة . ثم صار الانباط حلفاء الرومان فى القرن الاول للميــلاد ، وامتــدت شوكتهم فى اثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلى سواحل البحر الاحمر

وظلت مدينة بطرا مركزا تجاريا بين الشرق ومصر ، حتى اكتشف النــاس الطريق من القصير الى قفط على النيل فأخذت بطرا فى التقهقر ، وكان الانباط قــد تحضروا فذهبت خشــونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب وركنوا الى الزراعة وأووا الى المنــازل وانغمسوا فى الترف ، فجاءهم تراجان الرومانى سنة ١٠٥ م فحاربهم واخضعهم وأذلهم فذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم واخلدوا الى الدعة ، واختلطوا بأهل البلاد الاصليين من السريان أو الآراميين ، وانتشروا على حدود ســوريا وفلسطين مما يلى البادية بين جزيرة ســينا والفرات ، ولم تقم لهم قائمة منذلكالحين

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الامة هناك يتكلمون اللغة الآرامية أو السريانية ، لغة أهل العراق وما بين النهرين ، فحسبوا الانباط والعراقيين أمة واحدة فاطلقوا عليهم جميعا اسم «الانباط» ، والذى اتفق عليه المحققون أنانباط بطرا وما يليها عرب ، وانما تكلموا الآرامية علىأثر اختلاطهم بأهل الشــام والعراق بعد ذهاب دولتهم . ويظن علماء التوراة أن النبطيين ينسبون الى نباطوط من آباء التوراة (*)

(*) انظر عن ذلك كتاب
René Dussaud. Les Arabes en Syrie avant l'Islam, (Paris, 1907).

ولما ضعف الأنباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق أجيال جديدة من العرب ، اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم أهل البادية ، أو ينصرونهم فى الحروب التى كانت تنشب بين تينك الدولتين قبيل الاسلام . فأقام حلفاء الروم فى جهات حوران وهم الغساسنة ، وأقام حلفاء الفرس على شاطىء الفرات فى الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ، ودافع كل منهما عن اصحابه . فكانوا مع بداوتهم وسذاجتهم عونا قويا لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احداهما على الأخرى . ولنحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم فيما بين النهرين والعراق ، وفيهم بطون من اياد وربيعة ولخم وتنوخ

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الأصليين ، وهم السريان فى الشمال والشرق ، واليهود والسامريون فى الجنوب ، وبقايا الأنباط فى الغرب ، يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل اياد وربيعة بين النهرين ، ويتخلل هذا المجموع شتات من أمم أخرى كالجراجمة فى جبل اللكام (١) والجرامقة فى الموصل (٢) وأخلاط من مولدى اليونان والرومان على الشواطىء ، ومولدى الفرس والأكراد فى الشمال . وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب أو الجنس أو اللغة ، فأصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية ، كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة (*) وغيرهم . وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين احداهما بالاخرى ، والحزب الدينى عبارة عن حزب سياسى يستخدم فى تأييد الدولة ، فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق ، وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها ، والكلام فى تفصيل ذلك يطول

نظام الاجتماع فى الشام والعراق

أما موقف الأهالى من الحكومة فكان على غير المألوف بيننا ، لبعد النسبة

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٦٣ وما بعدها
(٢) مختصر تاريخ الدول لابن العبرى ، ص ١٣١
(*) يقال ايضا ملكانيين نسبة الى ملكا ، وهم الذين على مذهب الدولة . اما اليعاقبة فهم المخالفون لمذهب الدولة ، ويقال لهم المونوفيزيون اى اصحاب القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ، وقد سموا اليعاقبة نسبة الى يعقوب البردعى الذى فنن مذهبهم وصاغه فى صورة ثابتة ، فنسب المذهب اليه ، وهم عامة أهل مصر ومعظم أهل الشام . أما النسطوريون فمنسوبون الى نسطوريوس ومذهبهم أميل الى مذهب اليعاقبة ولكنه يختلف عنه . والموارنة هم الذين يقولون بطبيعتين منفصلتين للسيد المسيح ، ومذهبهم قريب الشبه من الكاثوليكية ، بل هم اليوم معدودون ضمن الكاثوليك

بين الحاكم والمحكوم فى تلك الايام ، ولا سيما فى البلاد التى يحكمها الغرباء البعيدون عن أهلها لغة أو دينا أو جنسا . فالرومان كانوا يعدون البلاد وأهلها ملكا لهم يتصرفون فيهم كيف شاءوا ، وكان الفلاحون فى كثير من البلاد يعدون من توابع العقار ، فينتقل العقار من مالك الى آخر ، وفلاحوه معه يسمونهم Serfs أى الأقنان (جمع قن) ، الا الذين تسمو بهم هممهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة أو الأدب أو التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين : طبقة الخاصة وهم الملك وأهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم ، والعامة أهل البلاد الأصليون وأكثرهم الفلاحون أو الأكرة

فخاصة أهل الشام فى العصر الرومانى حكامها وهم البطارقة ، والبطريق غير البطريرك (*) • وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من أشراف المملكة الرومانية ، نشأوا مع مدينة روما وكان لهم نفوذ عظيم فى الدولة الرومانية ، وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل ، فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع أهلها الا أهل السطوة والهيبة ، فعهدوا بذلك الى البطارقة وولوهم المستعمرات الشرقية وفى جملتها الشام ومصر ، وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليما ، على كل اقليم بطريق معه الجند كأنه حاكم مستقل (١) . وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهى من الشمال الشرقى الى الفرات ، ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها ، وانما جعلناهما فى كلامنا عن الأهالى ، لأنهم وأهل الشام من أصل واحد كما رأيت

٢ ــ طبقات الناس فى مصر

ان سكان مصر اقل اختلاطا بغيرهم من سكان الشام والعراق ، ومع ذلك فقد توالت الهجرة الى مصر من أقدم أزمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة أكثرهم من الفاتحين الغرباء ، فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام الأمر فيها هاجر اليها أهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح (**) • فيأتون على أن تكون

(*) البطريق هو النبيل ، وهو لفظ patricius اللاتينى ، أما البطريرك فهو patriarch ومعناه الاصلى أبو الاسرة أو شيخ القبيلة ، ثم استعملته الكنيسة للدلالة على القس الكبير او شيخ القساوسة ، ثم أصبح رأس الكنيسة فى المشرق فى مقابلة البابا وهو رأس الكنيسة الغربية

(١) راجع تفصيل ذلك فى الجزء الاول من هذا الكتاب

(**) هذا القول فى حاجة الى تعديل، اذ من الثابت ان الفراعنة مصريون أصلا وفرعا، وهم ملوك مصر القديمة وهم من أهل البلاد توالت أسرهم على حكم البلاد من أيام الاسرة الاولى وأول فراعنتها مينا او نارمر . وكان يحدث اذا غزا قوم من الاجانب مصر وأرادوا أن يقيموا لانفسهم فيها ملكا ان يتحببوا الى الناس بادعاء المصرية وأخذ لقب الفرعون كما حدث أيام الهيكسوس وغيرهم ، وهذه الحالات معروفة ، وهى قليلة بالنسبة الى سلسلة الفراعنة المصريين الطويلة

اقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال ، ولكن أكثرهم لايرجعون ولا تمضى بضعة أجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءا منهم ، كما حدث فى زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب فى الفاتحين أنهم لايزالون يميزون عصبيتهم على عصبية سائر رعاياهم ، حتى ينتقل الأمر من أيديهم الى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم ويندمجون فى جملة الوطنيين . ناهيك بمن يأتى مصر للاتجار أو الاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء

وكان الفاتحون يترفعون غالبا عن الاختلاط بسائر أفراد الأمة ، فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من أهل السيادة ، ويجعلون مقامهم فى المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة ، وتقاطر اليونان فى أيامهم بكثرة ، وكانوا يقيمون فى الاسكندرية أو غيرها من العواصم ، واكثرهم من الجند أو التجار أو رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شأن الرومان ، فانهم تولوا وادى النيل ستة قرون ، والرومانى يجتهد فى أن يميز نفسه عن المصرى لغة ومذهبا وخلقا ، وكانوا يقيمون فى المعاقل والحصون أو المدن الكبرى كما كان حالهم فى الشام

فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين :

(١) الرومان أو الروم ، وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والأجناد وبعض رجال الدين

(٢) الأهالى وهم الأقباط الاصليون ، يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة أو الخدمة أو غيرهما ، من أهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية ، وكان بين الحكومة والأهالى فاصل آخر مذهبى ، فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون ، والأقباط على مذهب يعقوب البردعى وهم يعاقبه (*)

٣ ــ طبقات الناس فى افريقية

يريد العرب بافريقية البلاد الواقعة فى شمال افريقيا ، حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش (**) ، وهى فى الاصل مستعمرة سامية لبعض

(*) فى الفصول الاولى من كتاب « فتح العرب لمصر » يقدم الفريد بطلر صورة طيبة للمجتمع المصرى قبل الفتح الاسلامى . انظر ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٤٠

(**) يطلق العرب « افريقية » على ما يعرف الآن بتونس فقط ، اما بقية الشمال الافريقى فكان يشتمل على المغرب الاوسط وهو يقابل الجزائر الحالية ، والمغرب الاقصى وهو يقابل المملكة المغربية الحالية (مراكش)

النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون ، بنوا فيها مدينة قرطاجة أو قرطجنة وانشأوا دولة تعتبر شرقية باعتبار أصلها وان كانت غربية فى موقعها ، لأن أهلها ساميون ولغتها من أخوات اللغة العربية (*) وقد حارب القرطجنيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة ، فقطعوا اليهم البحار وجبال الألب حتى حاصروا روما وكادوا يذهبون بدولتها ، ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الأرض عما نعرفه ، ولكنهم أخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم فى بلادهم حتى افنوهم وخربوا مدينتهم ، وتوالى على قرطاجة بعدهم أمم شتى كالرومان والوندال وغيرهم

أما أهل البلاد الأصليون فقد كان معظمهم قبل القرطجنيين أقواما من الجنس البربرى يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو . ولما ذهب القرطجنيون وخلفهم الرومان وجدوا أهل تلك البلاد طبقتين ، احداهما حضرية تتوطن السواحل فيما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة ، والاخرى تسكن الجبال والبادية ، فسموا الأولى الموريتانيين والثانية النوميديين . وكان النوميديون من القبائل الرحل الأشداء فلم تقو الدولة الرومانية على اذلالهم بل كانوا كثيرا مايهاجمون حاميتها فى المدن ويعودون الى جبالهم . ذلك كان شأنهم مع من فتح افريقية بعد الرومان ، وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا افريقية وأهلها طبقتان : الأولى أهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم من الأمم الفاتحة كالروم والوندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا ، والثانية النوميديون وهم لايزالون على بداوتهم وظلوا ممتنعين فى جبالهم الى أواخر القرن الأول للهجرة ، وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون فى كتبهم ، ولهم شأن كبير فى تاريخ الاسلام (**)

(*) لم تمتد دولة الفينيقيين فى افريقية الى أبعد مما يعرف اليوم بتونس ، أما الباقى فقد كانت سواحله بأيدى الرومان ونواحيه الداخلية يسيطر عليها البربر

(**) كان سكان المغرب قبل الفتح الاسلامى ثلاث طوائف : الاولى الروم أو البيزنطيون، وكانوا يحكمون افريقية (تونس) وربما امتد سلطانهم الى بعض أجزاء من سواحل المغربين الاوسط والاقصى . وكان عددهم قليلا ، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من التحضر وكانت ديانتهم المسيحية ، وكان مركزهم الرئيسى ميناء قرطاجنة . والثانية طائفة الافارقة ، وهم جماعات من أهل البلاد خالطت البيزنطيين — والرومان قبلهم — وأخذت حضارتهم ولغتهم ودينهم ، وربما تزاوجت معهم ، وكانوا قلة فى البلاد ولكنهم كانوا يتولون الوظائف الكبيرة ويقومون بالتجارة وشئون المال ، ومن هنا فقد كان لهم دور عظيم فى تاريخ البلاد قبل الاسلام . والطائفة الثالثة هى البربر وهم أهل البلاد الاصليون والغالبية العظمى من سكانها ، وهم جنس أصيل قديم ينقسم بصفة عامة الى قسمين كبيرين : الأول البربر المستقرون ، سكان السهول الساحلية وبعض الاراضى الصالحة للزراعة فى الداخل ، ويسمون بالبربر البرانس ، والبربر الرحل الذين يسكنون البوادى والجبال، ويعيشون معيشة قريبة مما كان عليه العرب الجاهليون ، ويسمون البربر البتر . ويمثل القسم الاول وهم البربر البرانس الصنهاجيون ، اما الرحل البتر فيمثلهم الزناتيون ، وكانت الحروب مستمرة بين زناتة وصنهاجة قبل الاسلام وبعده . أما الموريتانيون والنوميديون الذين يذكرهم المؤلف ، فأسماء أطلقها الرومان على سكان البلاد وهم البربر ، وكان الرومان يطلقون على سكان

٤ ـ طبقات الناس فى بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة فى الغرب الجنوبى ونهر جيحون فى الشرق الشمالى ، ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان واذربيجان وأرمينيا وغيرها ، وهى تحوى شعوبا شتى من امم مختلفة لايمكن حصرها وتمييزها بعد أن طال العهد عليها . ولكنها تمتاز على اى حال عما يجاورها من سكان العراق والشام امتيازا كليا فى الجنس واللغة والدين : أما الجنس فسكان بلاد فارس اكثرهم من الجنس الآرى وهو غير الجنس السامى الذى عمر الشام وما وراءها كما تقدم ، أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية أخوات لغات أوربا وهى غير اللغات السامية ، وأما الدين فالمذهب الذى كان شائعا فى تلك البلاد قبل الاسلام هو الزردشتية أو المجوسية فى حين أن ديانة اهل العراق والشام كانت النصرانية واليهودية

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الاسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد فىحوزتهم ، فاقتسمها أمراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف ، حتى قام أردشير بن ساسان سنة ٢٢٤ م فجمع كلمتها بالسيف وتوالى عليها أهله الى ظهور الاسلام ، وهى الدولة الساسانية

فلما ظهر الاسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين : العامة والخاصة . أما العامة فأهل البلاد الأصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قرونا بين القبائل الآرية وبعض القبائلالطورانية من الاتراك والديلم . وكانوا يسمون عند ظهور الاسلام « الطاجية » ، ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماما (١) ولكنهم يريدون بها طبقة العامة ، والطاجية ضخام الأجسام أقوياء الأبدان

وأما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجال الدين والأشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك وأهله تأتى طبقة الشهارجة « شهريجان » أو السهارجة (٢) وهم أشراف السواد وأرباب الدولة كالبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين ـ وأحدهم دهقان ـ وينتسبون الى الملوك القدماء من

السواحل المغربية اسما عاما هو الماورى mauri جمع maurus وهو اللفظ الذى أتى منه maure الفرنسى و moor الانجليزى و moro الاسبانى بمعنى مغربى أو مسلم وربما عربى ، فأطلق الرومان اسم موريتانيا ، أى بلد الماورى على بعض نواحى الشمال الافريقى ، وقد عرب العرب هذا اللفظ الى مرطانية ، وكان الرومان يقولون Mauretania Caeseriensis أى مرطانية القيصرية وهى تعادل الجزائر الحالية تقريبا ثم Mauretania Tingtana أى مرطانية الطنجية ، وهى تعادل شمال المغرب الاقصى . أما النوميديون فهم عند الرومان سكان نوميديا وهى جبال الاطلس الوسطى

(١) الهلال ، ص ٩٩ سنة ١٣ (٢) المسعودى ١٢٣ ج ١ .

الدول السالفة ، وهم أصحاب الأرض وفى أيديهم أكثر البقاع التي يستغلونها على رقاب الطاجية. والدهاقين خمس مراتب ، وقد يتولون الامارات ويتعاطون الحكومة كأمراء بخارا (بخارا خدا) فقد كانوآ عند ظهور الاسلام من الدهاقين، وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة (*)

وكانت مملكة فارس — عند ظهور الاسلام — فى حوزة الدولة الساسانية، تقسم الى عمالات يتولى كل عمالة أمير يسمونه «مرزبان» ، وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود . على أن بعض العمال كانوا يتمتعون بشىء من الاستقلال فى أحكامهم ، ولا سيما فى الامارات البعيدة ، وكان بعضها مستقلا استقلالا

(*) جاء فى كتاب « ايران فى عهد الساسانيين » تأليف آرثر كريستنسن **Arthur Christensen** (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧) ص ٨٤ وما بعدها عن طبقات الناس فى ايران قبل الاسلام مايلى :

« لقيت أحوال الحياة العامة والتنظيم الادارى للدولة الساسانية تغييرا مختلفا فى القرون الاربعة التى دامت فيها الامبراطورية التى أسسها أردشير ، ولكن الهيكل الاجتماعى والادارى الذى انشاه أو اكمله مؤسس الاسرة الساسانية قد بقى حتى نهايتها فى الامور الكبرى

وتذكر الاوستا الحديثة ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين (آثروان **Athravan**) وطبقة رجال الحرب (راثشتر **Rathaestar**) وطبقة الزراع (واستريوفشويانت **Vastryofsouyant**) وهذا تقسيم ادارى يسمو الى الزمن الغابر . وتشير فقرة واحدة (ى — ١٩ — ١٧) الى طبقة رابعة هى طبقة الصناع (هويتى **Huité**) . ثم نجد فى ايام الساسانيين تقسيما جديدا الى اربع طبقات . فقد اصبح الكتاب (ديبهران = دبيران) الطبقة الثالثة . وكون الصناع والزراع الطبقة الرابعة . وهكذا كان التقسيم الاجتماعى متمشيا مع الوضع السياسى

فكان هنالك الطبقات الاربع الآتية ايام الساسانيين : ١ — طبقة رجال الدين (آثروان) ، ٢ — طبقة رجال الحرب (ارتشتاران) ، ٣ — طبقة الكتاب ، كتاب الدواوين (دبيران) ، ٤ — طبقة الشعب (الفلاحين — وستريوشان — والصناع — هوتخشان)

وقد قسمت كل طبقة الى عدة أقسام ، فرجال الدين منهم الحكام (دادور) والعباد ، وطبقتهم الاقل درجة والاكثر عددا هى المغان (جمع مغ) والزهاد والسدنة الهربذان (جمع هربذ) ثم علماء مختلفون يشغلون وظائف خاصة ، ثم المراقبون (دستوران) ، والمعلمون (مغان — اندرزبد)

وتتكون طبقة المحاربين من الفرسان والرجالة ، ولكل من القسمين رتبه وموظفوه المختصون به

وتنقسم طبقة الكتاب الى كتاب الرسائل وكتاب المحاسبات وكتاب الاقضية والسجلات والشروط وكتاب السير ويدخل فيهم الاطباء والشعراء والمنجمون

واخيرا فان الشعب كان يشمل الزراع والرعاة والتجار وسائر أهل الحرف . ولكل طبقة رئيس ، فعلى رأس رجال الدين الموبذان موبذ ، وعلى رأس رجال الحرب ايران سپاهبذ ، وعلى رأس الكتاب ايران دبيربذ (يسمى كذلك دبيران مهيست) ، وعلى رأس الطبقة الرابعة وستريوشا نسالار (وبعبارة أخرى وستريوشبذ أو هتخشبذ) . ولكل رئيس عارض تحت اشرافه ، مكلف باحصاء اهل الطبقة ، ثم مفتش عليه ان يتحقق من معرفة دخــــل كل فرد ، واخيرا معلم (اندرزبذ) « لكى يلقن كل فرد حرفة او عملا او علما منذ الطفولة »

وهناك تقسيم اجتماعى آخر ظهر فى الايام الاولى من الدولة الساسانية ويرجع من غير شك الى ما ورثته هذه الدولة عن دولة البرت . نجد هذا التقسيم فى النقش المسطور بلغتين فى حاجى آباد ، حيث يذكر الملك شابور الاول رمية سهمه المشهورة التى رميت فى حضور أمراء الدولة (شهرداران) ، ورؤساء أو أفراد العائلات الكبيرة عامة (واسپوران) والعظماء (بزركان) ، والاحرار او النبلاء (آزادان) . وليس من اليسير تحديد الصلة بين هذا التقسيم الذى لايشمل غير الطبقات الممتازة ، والتقسيم الآخر الذى يتعلق بالشعب عامة ، فان هذه الصلة لم تكن واحدة دائما . وبالجملة فان نظام الطبقات كان غامضا جدا

والاضطراب والتضارب الظاهران فى التقسيم الاجتماعى والسياسى للأمة يتصلان مباشرة بما كان بين نظامى الاقطاع والسيادة المركزية المطلقة التى ورثتها الدولة الساسانية عن دولة البرت، وهذا الخلاف بين هذين العنصرين ؟ الاقطاع وسيادة الشاهنشاه ، هو المميز للتطور الاجتماعى والسياسى منذ أيام أردشير بابكان الى عصر الاكاسرة » . ص ٨٤ — ٨٧

تاما ويتخذ كل أمير لقبا خاصا به ، مثل « رتبيل » لقب أمير سجستان ، و «رنجان» لأمير سمندجان ، و «جيغويه» لصاحب طخارستان ، و«اصبهبذ» لصاحب بلخ ، و «باذان» لمرو الروذ ، « شهرك » للطالقان ، و «أخشيد » لصاحب فرغانة ـ وقس عليه · على أن بعض الولايات ، كمرو وسرخس وطوس ، كان يتولاها المرازبة

وأكبر نفوذا وسطوة من أشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية ، ويسميهم المسيحيون المجوس ، واسمهم عند الفرس الموبذان واحدهم «موبذ» ، وهم كالاساقفة عند النصارى ، رئيسهم يسمونه « موبذ موبذان » مثل رئيس الأساقفة ، وكان نفوذهم فى الدولة يفوق نفوذ الملك (١) ومنهم القضاة أو من يقوم مقامهم فى الحكومة بين الناس

وكان فى بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة أو صفة يقيمون فى بلد أو يتنقلون فى البلاد ، كالأساورة والسيابجة والزلط والأحامرة ونحوهم (٢)

٥ ـ طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت أن سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الآراميين والعبرانيين ، ولكنهم لم يصبهم ما أصاب اخوانهم فى العراق والشام من الاختلاط ، لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحدق بها من البوادى التى يعسر سلوكها على الجيوش·وقد هم بها الأشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل ، حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الاحباش قسمها الجنوبى (اليمن) وعجزوا عن الحجاز ، فاستنصر اليمنيون الفرس فنصروهم وأخرجوا الأحباش وحلوا محلهم واختلطوا بأهل اليمن وعرفوا بالأبناء الأحرار

على أن بلاد العرب كانت ملجأ النازحين من الشام أو مصر أو العراق ، فرارا من ظلم أو ضغط أو امتناعا على الحكومة لسبب من الأسباب · وأكثر الامم نزوحا اليها اليهود ، لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى أن اضطهدهم الروم فى عهد طيطس وغيره ـ وهاجر اليهاكثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والأحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد· ومع ذلك فان العرب ظلوا مستقلين بأنسابهم وعاداتهم وآدابهم · ويقسمون باعتبار النسب أو الوطن الى : قحطانية أو يمنية ، وعدنانية أو حجازية · وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومضرية ، وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم فى الجزء الرابع من هذا الكتاب

---

(١) Le Christianisme dans l'Empire Perse, 6)

(٢) البلاذرى ٣٨١

نظام الاجتماع فى عصر الراشدين

بينا فى الجزء الرابع ما أحدثه الاسلام من التغيير فى العصبية العربية ، وما تولد به من الطبقات الجديدة التى لم تكن قبل الاسلام ، كالمهاجرين والأنصار وأهل بدر وأهل القادسية ، وما اقتضاه النسب الهاشمى أو القرشى من العصبيات الجديدة ، ومنهم طبقات الأشراف من العلويين أو العباسيين وأبناء الأنصار والمهاجرين ، على ما وضعه عمر فى ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات (١) وما يلحق بذلك من طبقات التابعين وتابعى التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كآل الزبير وآل أبى بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح • فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التى كانت قبل الاسلام (*)

وعندما سار العرب لفتح الشام والعراق كان أول من لقيهم على حدودها العرب أبناء لغتهم وأهل عصبيتهم ، ولما أوغلوا فى هذين البلدين استأنس أهلوها باللسان العربى لقربه من لسانهم الآرامى أو السريانى، مع بعد لسان حكامهم يومئذ الرومى أو الفارسى عنهم ـ فكان ذلك من جملة ما مهد لهم أسباب الفتح • أما طبقات الناس الأصلية فى هذين القطرين فقلما أصابها تغير فى عصر الراشدين ، لأن المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون فى شىء من أحوالهم الادارية أو الدينية أو السياسية ، وانما كان همهم اقتضاء الجزية والخراج وحماية من دخل فى ذمتهم من أهل الكتاب • فكانوا يقيمون فى مضاربهم أو معاقلهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكرى ـ الا من دخل فى حوزتهم من الأرقاء بالأسر أو السبى ومن أعتقوه فصار من الموالى (**) • وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب •

---

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

(*) يريد المؤلف بذلك ان الاسلام احدث تغييرا حاسما فى التنظيم الاجتماعى للعرب، فبعدان كان الناس قبائل تتفاضل فيما بينها ويتفاضل أفرادها فيما بين بعضهم البعض بحسب مقاييس الشرف والرياسة فى الجاهلية ، نشأت مراتب جديدة للناس تقوم على السابقة فى الاسلام والامتياز فى الميادين الجديدة التى فتحها امام الناس من سياسية وعلمية • والبيوتات الاسلامية التى يذكرها بيوت عربية فى نفس الوقت ولكنه يريد ان يقول ان اساس ظهورها وامتيازها كان الاسلام قبل العروبة

(**) يصدق هذا الكلام على مصر وفارس ولكنه لا يصدق تماما على الشام والعراق، فقد بدا اختلاط العرب بأهلهما بعد الفتح مباشرة ، وقد ذكر المؤلف ما يؤيد ذلك عندما قال ان الكثير من سكان الشام قبل الاسلام كانوا من العرب ، وكذلك كانت قبائل عربية كثيرة ضاربة على حدود العراق وما بين النهرين ، فمن الطبيعى أن يبدأ اختلاط العرب بأبناء عمومتهم فى هذين القطرين بعد الفتح مباشرة • وقد درس دوسو Dussaud فى كتابه الذى أشرنا اليه من العرب فى الشام قبل الاسلام خطوات هذا الاختلاط ، وقد ألف كوسان دى برسيفال كتابا شاملا عن العرب قبل الاسلام تحدث فيه عن عرب الشام والعراق وشبه جزيرة سينا وصحراء مصر الشرقية حديثا وافيا نشير على من يطلب الاستزادة فى هذه الناحية بقراءته :

Caussin de Perceval. Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme. 3 volumes, 2° éd. Paris, 1920

وهم المسلمون من غير العرب ، ولهم شروط وأحوال تخالف ما للعرب على ما بيناه فى الجزء الرابع

نظام الاجتماع فى عصر الأمويين

كانت قصبة الاسلام على عهد الراشدين فى المدينة بجوار قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فنقلها الأمويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة ، وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم ، فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر فى أقصى الشرق .. وركبوا بحر المجاز (مضيق جبل طارق) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى منتصف غالة وهى ما يعرف الآن بفرنسا ، ونصبوا أعلامهم على أعظم مدائن الفرس والترك والروم والاسبان والافرنج ، وهددوا القسطنطينية .وحولوا الاحتلال المؤقت الى السيادة الدائمة ، وأقاموا دولة الاسلام فى هذه الاقطار وأيدوها بنقل دواوين الحكومة فى الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية ، وبعد أن كانت تلك الدواوين يتولاها أهل البلاد غير المسلمين جعلوها فى أيدى المسلمين . وضربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس ، ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلا من الصور والرموز . ونقلوا طراز الدولة من اليونانية أو الفارسية الى العربية ــ فآل ذلك كله الى انتشار العرب فى الارض وسيادة العنصر العربى ونشر اللغة العربية

وقد استمسك العرب بعصبيتهم خلال العصر الاول الذى تلا الفتح،وفرقوا بين أنفسهم وبين الموالى تفرقة واضحة . وانقسموا هم أنفسهم الى قحطانيين وعدنانيين . وظل العرب فى أيامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وسذاجتها وآدابها

فطبقات الناس فى العصر الأموى تقدمت خطوة عما كانت عليه فى زمن الراشدين ، فكان الناس طبقتين كبيرتين : المسلمين وغير المسلمين .والمسلمون طبقتان : العرب وغير العرب وهم الموالى .وظل غير المسلمين،وهم أهل الذمة من القبط والأنباط والروم والفرس اوغيرهم ، على ما كانوا عليه قبل الاسلام ــ الا من دخل منهم فى خدمة المسلمين من الأطباء والكتاب والمترجمين فقد نشأت منهم طبقة جديدة من أهل الذمة لم تكن قبل الاسلام .هذا الى ما حدث فى أثناء الفتوح الأموية والحروب الاهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر ، كانتقال السيابجة والزط الى سواحل الشام فى أيام معاوية، ونقل الحجاج لجماعة من زط السند الى العراق واسكانه اياهم بأسافل كسكر، وسبى عبيد الله بن زياد خلقا من أهل بخارا وانزاله اياهم البصرة . ولما بنى

الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فأقاموا فيها وتناسلوا (١) فضلا عمن كانوا يصطحبونهم أحيانا فى حملاتهم البعيدة للفتح أو الغزو، فقد يكون فى الحملة جماعات من البرابرة والأنباط والأقباط والجرامقة والجراجمة (٢) فهؤلاء اذا فتحوا بلدا أقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا بأهله

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية فى أيام الأمويين كانت فى بدء انتقالها من حالها القديمة فى عصر الروم والفرس الى حالها الجديد الذى ستكون عليه فى العصر الاسلامى. ولم يتم ذلك الانتقال وتتكيف هذه الهيئة الاجتماعية بشكلها الخاص بالاسلام والتمدن الاسلامى الا فى العصر العباسى ، لترفع الأمويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم فى البقاء على البداوة . ومع ايغال جنودهم فى بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر والمغرب والأندلس فانهم قلما اختلطوا بأهلها أو اقتبسوا منهم أو قلدوهم في شيء من عاداتهم وأخلاقهم ، الا ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير على ما يأتى بيانه . أما العباسيون فنظرا لتغلبهم بالموالى على الأمويين فقد جعلوا مقامهم بين أشياعهم الفرس ، فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريان ، أو بين الآريين والساميين ، أو بين المجوس والنصارى ، وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال الدولة ، فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه فى الدولة الساسانية

---

(١) البلاذرى ٣٨٤
(٢) البيان والتبيين ١١٤ ج ١ وابن الاثير ٣٥ ج ٥

نظام الاجتماع

في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة انما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي، عندما نضج التمدن الاسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن ، وكان على أتم أشكاله في مدينة بغداد قصبة العالم الاسلامي ، فهي أوضح أنموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر

كان الناس في العصر العباسي طبقتين : الخاصة والعامة ، تحت كل منهما طبقات وأتباع وفروع سيأتي تفصيلها :

طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات : (١) الخليفة (٢) أهله (٣) رجال دولته (٤) أرباب البيوتات (٥) توابع الخاصة

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية (١) فأحر بمن كان هذا منصبه أن يعظم الناس شأنه ويتقربوا اليه بالطاعة وبذل الخدمة والتزلف بالمدح والاطراء . وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواكبهم والآداب المتبعة في مخاطبتهم وغير ذلك في باب أبهة الدولة من هذا الجزء

وأهل الخليفة هم بنو هاشم ، وكانوا أرفع الناس قدرا بعده ويسمونهم الأشراف وأبناء الملوك (٢) فاذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي، وسائر الناس دونهم على الوسائد أو البسط ، الا هو فانه يجلس على السرير . وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال ، فضلا عما ينالونه من النعم والهدايا بحسب ما يتراءى للخليفة في أمرهم ، فاذا خاف تطاول أحدهم للملك أثقل يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء — تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم . وكان الهاشميون في أوائلها عونا كبيرا في تأييدها، يتولون الاعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأي والسياسة . فلما تأيدت أصبح الخلفاء يخافون مطامع أهلهم ، فأخذوا يبذلون لهم الاموال ، فمن أعجزهم كف أذاه بالمال عمدوا الى الفتك به — باشر ذلك أبو جعفر المنصور وسار الخلفاء على خطته ، فكانوا يعطون أهلهم الرواتب الباهظة والهدايا

---

(١) راجع الجزء الرابع
(٢) المسعودي ١٧٧ ج ٢ وغيره

الفاخرة ويسهلون عليهم أسباب القصف واللهو ليشتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز هممهم عن النهوض

فكان الهاشميون فى الغالب من أهل السعة والرخاء ، يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون أوزاره وأعباء تبعته ، فانغمس أكثرهم فى الترف وانهمكوا فى الشراب والغناء وابتنوا القصور الشماء والحدائق الغناء ، واستكثروا من الجوارى وجمعوا اليهم المغنين والقيان وقربوا الشعراء والأدباء . وأكثر مقامهم فى البصرة ، بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولاه الخليفة عملا أو جندا . واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان، فقد بلغت أمواله نيفا وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور ، وكانت غلته ١٠٠٫٠٠٠ درهم فى اليوم(١) وبلغت ثروة ثمنة بنت عبد الرحمن الهاشمى مالا يسعه الديوان(٢) ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم

وأما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من أرباب المناصب العالية . وكان أكثرهم فى ابان الدولة العباسية من الموالى وخصوصا الفرس ، كالبرامكة وآل سهل وآل وهب وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم . وكانوا يختلفون نفوذا وسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت أدوار التمدن ، ولكن الوزارة كانت على الاجمال من أوسع أبواب الكسب على ما بيناه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب

أما أهل البيوتات فهم الأشراف من غير الهاشميين ، ومرجع شرفهم الى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوى أو بقريش ، وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ويقدمونهم فى مجالسهم . على أن هذه الأنساب كانت أكثر نفعا لأصحابها فى عهد بنى أمية منها فى أيام بنى العباس ، ولا سيما بعد ضعف العنصر العربى بقتل الأمين . فلما أفضى الامر الى المعتصم قطع رواتب الأشراف فى جملة ما قطعه من أعطيات سائر العرب ، وربما أعيد بعضها بعد ذلك على غير قياس

اتباع الخاصة

وللخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى والخدمة وهم أربع طبقات : (١) الجند (٢) الأعوان (٣) الموالى (٤) الخدم

فالجند فرق كثيرة تختلف أصلا ونظاما على ما فصلناه فى الجزء الاول من هذا الكتاب ، وقد يتبادر الى الذهن قياسا على المألوف عندنا أن الجند رجال

---

(١) المسعودى ١٨٨ ج ٢

(٢) الاتليدى ١٥١

الخليفة يأتمرون بأمره · وقد يكون بعضهم كذلك ، لكنهم كانوا يختلفون فى ذلك العصر عما هم عليه الآن ، لأن بعض الخاصة من الوزراء والعمال كانوا يجندون رجالا ينفقون عليهم من أموالهم ، وقد يبتاعون غلمانا ويربونهم للاستعانة بهم على أعدائهم وقت الحاجة ويسمونهم بأسمائهم · وقد يذهب الوزير أو العامل وينتقل جنده الى غيره ويبقى معروفا باسمه · فاجتمع فى بغداد من الأجناد طوائف كثيرة تنتسب الى أصحابها،كالساجية والنازوكية والبيلغية والهارونية ، وفيهم الأتراك والفرس والبرابرة والأحباش والاكراد · ومن هذا القبيل الفرق العزيزية والأخشيدية والكافورية فى مصر مما لا يحصى ، ومن تلك الفرق ما هو منقبيل الضابطة أو نحوهاكالشاكرية، أو لمجرد حماية القصور أو غير ذلك (*)

أما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ، ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق أو الاصدقاء اليوم ، فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والأشراف رفاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون فى منازلهم ويكون لهم رواتب يقتضونها · ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة أو الأمير ، وهم غير الندماء أو الشعراء وانما هم رجال من أهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة أو الأمير أو الشريف بمجالسته ، فيفاوضهم فى شؤونه ويركن اليهم فى مهامه وتكون لهم الدالة عليه ، وربما كان بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذوى قرابته

وأما الموالى فقد فصلنا الكلام عنهم فى الجزء الرابع من هذا الكتاب ، وبينا أحوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد

الخدم

أما الخدم فأكثرهم فى ذلك العهد الأرقاء السود والبيض من الذكور والاناث ، وقد اصطلحوا أن يسموا الأرقاء البيض مماليك والسود عبيدا، ويقسم الكلام فى الخدم الى ثلاثة أقسام : الأرقاء والخصيان والجوارى

(*) لايطلق الجند الا على عسكر صاحب الامر من خليفة او عامل أو أمير على ناحية · أما من يقتنيهم غير صاحب السلطان من الرجال فيقال لهم الغلمان ، وكان كبار الناس والاغنياء يتخذون الغلمان لحراستهم وحماية بيوتهم · وفى العصر العباسى الاول لم يكن يباح للقادة ان يستكثروا من غلمانهم الخاصين بهم أو يتخذوا لانفسهم جندا الا اذا كانوا عمالا على النواحى ، ومع ذلك فقد كان جندهم فى هذه الحالة الاخيرة يعتبر جندا للدولة ، فاذا عزل عن الولاية لم ينتقل جنده معه · وخلال العصر العباسى الثانى ، عندما صار الامر للقواد ، اصبح كل منهم يحرص على ان يكون له جند خاص ، بل اجتهد بعضهم فى أن يكون جند الدولة الذين يقودهم وكأنهم جنده خاصة ، وكان يأخذ رواتب جنده من خزانة الدولة ويفرقها فيهم ، واذا كان عاملا على ناحية أعطى جنده ارزاقهم من الخراج ، واذا تأخر عطاء الجند طالب لهم به · ومعظم انواع الاجناد الذين ذكرهم المؤلف هم اجناد قادة عسكريين او عمال نواح ، أما فيما يتصل بمصر فأن العزيزية هم جند الخليفة العزيز بالله الفاطمى والاخشيدية جند محمد بن طغج وأولاده والكافورية جند كافور الاخشيدى ، أى انهم كانوا فرقا من جيش الدولة

١ ــ الأرقاء

فى الجزء الرابع من هذا الكتاب فصل عن الرق فى الاسلام ومصـــــادره وأحكامه ، وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم فى الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء ، فنأتى فى هذا المقام بما يختص من هــــذا الموضوع بنظام الاجتماع

قلنا فيما تقدم عن طبقات الناس قبل الاسلام ان العامة من أهل البـــلاد الاصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يئنون تحت نير الاستعباد ، وبعضهم أرقاء فعلا ولا سيما الأقنان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك • فهؤلاء العامة جاءهم الاسلام رحمة لأنهم تحولوا من الرق الى الحرية أو الى العهد (*) ، فمن أسلم صار حرا له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن ظل على دينه دخل فى ذمة المسلمين يدافعون عنه ما أدى الجزية، الا من حاربهم وأسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاءوا • ولكن أكثر الذين حاربوا المسلمين فى صدر الاسلام من حامية البلاد وهم الجنود من الروم أو الفرس لم يكونوا من عامة أهل البلاد المظلومين • فمن دخل من الحاميـــة فى أسر المسلمين صار ملكا لهم ، وكان للمسلمين بعد ذلك أن يطلقوا سراحهم أو يعتقوهم ، ولكن الغالب أنهم كانوا يدخلون الاسلام ويصبحون فى جملة الموالى ، وقد زعم بعض أمراء بنى أمية استعباد أهل البلاد المفتوحة عنوة أو اعتبار المسلمين غير العرب من الموالى ، ولكن الشريعة الاسلامية لم تجز لهم ذلك ، فأنكره العلماء وذوو الرأى فلم يلبث أن رجع عنه من أراده من القواد ورجال الدولة • وقد كانت تصرفات أولئك القواد والأمراء من بين الأسباب التى دفعت الى الثورة على بنى أمية • فلما قامت الدولة العباســـية تلاشت هذه النزعات نهائيا

كثرة الاسرى والارقاء

وتكاثر الأسرى فى أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالالوف ويبـــاعون بالعشرات ــ اعتبر ما كان من ذلك فى الصدر الاول وما تبعه من الفتـــوح البعيدة فى أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ فى افريقية ٣٠٠ر٣٠٠ رأس من السبى ، فبعث خمسها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠ر٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسببى أعظم من هذا (١) وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معـه ٣٠ر٠٠٠ بكر من بنـــات شرفاء القوط

(*) يريد انهم أصبحوا معاهدين للمسلمين ، والمعاهدون هم أهل الذمة ، فكان يقال : لهم عهد الله ورسوله ، أو لهم ذمة الله ورسوله

(١) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٤

وأعيانهم (١) وقس على ذلك غنائم قتيبة فى بلاد الترك وغيرها (*)

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة فى الهند ١٠٠,٠٠٠ نفس (٢) وفى وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن أينال سبا المسلمون ١٠٠,٠٠٠ رأس غير الدواب (٣). وفى جملة غنائم الحرب، فضلا عن الأسرى من الرجال، جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله، فكثيرا ماكانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة فى السرعة كما فعلوا فى واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة • وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم — ذكروا أنه بلغ من كثرة غنائم المسلمين فى واقعة الأرك بالأندلس أن بيع الاسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم (٤) والبعير بخمسة دراهم، وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الاسرى والغنائم

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين، غير ما كان يرسله بعض العمال الى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان (٥) وبلاد البربر وغيرهما

معاملة الاسرى

كانوا فى صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامير قسمتها على القواد، بعد ارسال الخمس الى بيت المال، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول • ففى الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطىء القاهرة فينزلون الأسرى ويطوفون بهم القاهرة، ثم ينزلونهم فى مكان كانوا يسمونه المناخ (فى جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الذكور، فينظرون فيهم فاذا استرابوا فى أحد قتلوه، ومن كان شيخا لا ينفع ضربوا عنقه وألقوا جثته فى بئر كانت فى خرائب مصر تعرف ببئر المنامة • ومن بقى يضاف الرجال منهم الى من فى المناخ، ويمضى بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة، بعد مايعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقى لخدمة المنازل • ويدفع الصغار من الأسرى

---

(١) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤

(*) هذه المبالغات من اختراع القصاص والرواة، وقد نقلها الكثيرون من محققى المؤرخين دون تدقيق او نظر، ومن المعروف ان مؤرخى المسلمين عامة لايدققون فى الارقام، بل كانوا اميل الى الاخذ بالمبالغ فيه منها على أعتبار أن ذلك يكسب التاريخ طلاوة وغرابة • وقد اخذ ذلك ابن خلدون عليهم فى الفصل الاول من مقدمته المشهورة، واورد أمثلة من مغالط المؤرخين واوهامهم فى الارقام والاعداد • أما مايذكره المؤلف عن سبى موسى بن نصير رواية عن نفح الطيب للمقرى فأصله فى فصول من كتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة خاصة بموسى بن نصير، ويرجح أن هذه الفصول ليست جزءا من الكتاب وانما هى قطعة من تاريخ قصصى لموسى بن نصير كتبه احد أحفاده المعروف بمعارك النصيرى

(٢) ابن الاثير ٤٦ ج ١٠

(٣) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩

(٤) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١

(٥) المقريزى ٣١٣ ج ١

الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم اذ ذاك «الترابى» وقد يرتقى أولئك الصبيان الى رتب الامراء (١) (*)

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصا بالمسلمين ، بل هى عادة كانت مرعية فى تلك الأعصر ، فمن يقع من المسلمين فى أيدى أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية فى فكاك الأسرى يبذلون فى سبيله المال أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة • ومن هنا نشأ ما يعرف « بالفداء » فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم ، لان الحرب كانت سجالا بينهما فى البر والبحر يأسرون بعضهم بعضا ، فاحتاج الجانبان الى تنظيم عملية فداء الأسرى ، فكانوا يتفقون على اللقاء فى موضع معين لتبادل الأسرى ، فيتبادلونهم واحدا بواحد ، حتى اذا زاد عند أحدهم عدد من الأسرى افتداه الجانب الآخر بالمال • وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحيانا وعلى قلة ، النفر بعد النفر ، فى سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود • وأول فداء منظم وقع فى أيام بنى العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة فى أثناء ١٥٠ سنة • وتزايدت عناية المسلمين فى فكاك أسراهم حتى أصبح أهل الورع من الاغنياء يقفون المال على فكاكهم (٢)

أما الروم فقلما كانوا يفتدون أسراهم بالمال ، ولعل السبب فى ذلك أن أولئك الأسرى يكونون فى الغالب لفيفا من رعاياهم أو أجنادا من الغرباء المأجورين وليس من الروم أنفسهم ، أما المسلمون فهم غالبا المهاجمون ، فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف واذا غلبوا فمن وقع فى الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم • على أن المسلمين كثيرا ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ولا سيما فى الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيرا من الافرنج بمال ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أو مائة أو ألفا ؟ حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) وكان للفارس فى عصر

---

(١) المقريزى ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج١

(*) الاستاذون جمع استاذ ويراد بهم فى المصطلح الفاطمى المربون الذين يربون الخدم والرقيق فى قصور الخلفاء ويعنون بشؤونهم

(٢) المقريزى ٧٩ و ١٩١ ج ٢

(٣) المسعودى ٢٢ ج ٢

الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه أو بضع عشرات الى مائة (١) فكيف بالأمراء والقواد ؟ حتى فى صدر الاسلام ، فان الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله (٢) فاعتبركم يكون عددهم فىأيام الثروة والترف، فقد كان الأمير فى الدولة الأموية اذا سار مشى فى ركابه مائة عبد أو بضع مئات أو ألف عبد (٣) وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والى خراسان سنة ٢٨٩ هـ ٤٫٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله

اصناف الارقاء

وكانوا اذا تكاثر الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم فى منزله جعل عليهم نقيبا يتولى النظر فى شئونهم يسمونه الأستاذ . على أن الغالب فى الغلمان اذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندا يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال. فقد كان عند الاخشيد صاحب مصر ٨٫٠٠٠ مملوك يحرسه فى كل ليلة الفان. وأكثر فرق الجند عند الأمراء من غلمانهم ، وأصلهم من السبى والأسرى أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم فى كلامنا عن فرق الجند ، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار

أما الباقون من الأرقاء للخدمة فى البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فمنهم الفراش والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابى وغيرهم (٤) ومنهم الوصيف والمملوك ، وفيهم التركى والفارسى والبربرى والزنجى والصقلبى بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى

واذا زادوا عما يحتاجون اليه فى الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء ، فانهم تأنقوا فى تزيينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يسبق له مثيل . وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد فانه بالغ فى طلب الغلمان ولا سيما الخصيان ، وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم زينة الجوارى . ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند المقتدر بالله ١١٫٠٠٠ غلام أو مملوك ، وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم ، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية . والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذى ثار بالبصرة ، وهم غتم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة ، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا

---

(١) المقريزى ٩٥ ج ١
(٢) الدميرى ٤٩ ج ١
(٣) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ والاغانى ٣٧ ج ١
(٤) طبقات الاطباء ١٤١ و ١٤٥ ج ١

وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة فى خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (١)

٢ ــ الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الأشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، واخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج . ويقال ان اول من استنبطها سميراميس ملكة أشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ــ وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفى التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة فى أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الرومانى الشهير فى عهد جوستنيان فى القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنية فى ميسيا الشهير الذى قدم الفيلسوف ارسطو ذبيحة عن روحه غير ماذكره فيه من القصائد . وممن اشتهر من الخصيان فى الاسلام كافور الاخشيدى صاحب مصر . واشتهر منهم فى الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الخصيان فى أواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا

وللخصاء اغراض أشهرها استخدام الخصيان فى دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان فى دورهم ، واول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه فتح ، واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع أن الشريعة الاسلامية اميل الى تحريمه ، على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون

وكانت تجارة الرقيق شائعة فى أوربا قبل الاسلام . ومن أسباب رواجها أن قبائل الصقالبة (الروسيين) نزلوا فى أوائل أدوارهم شمالى البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم اخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف (الصقالبة او السكلاف) والصرب والبوهيم والدلماشيين وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين فى طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم . وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فأسبانيا ، وقد يحملونهم الى افريقية والشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد فى أيدى المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من الصقالبة والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطىء

(١) تاريخ الوزراء ١٢

البحر الأسود ــ ولا يزال أهل جورجيا والجركس الى اليوم (حوالى ١٩١٠) يبيعون أولادهم بيع السلع ــ فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الاغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث حتى يحطوا رحالهم فى فرنسا ومنها ينقلونهم الى أسبانيا (الأندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للتسرى. وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلبى » وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال . وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة فى تاريخ الاسلام ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان ــ وفعل الافرنج نحو ذلك أيضا فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها esclave فى الفرنسية و Sklave فى الجرمانية و slave فى الانجليزية

ولما شاع الحجاب بين المسلمين فى ابان سلطانهم واستخدموا الخصيان فى دورهم ، عمد تجار الرقيق ــ وأكثرهم من اليهود ــ الى خصاء بعض الأرقاء وبيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وانشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة أشهرها « معمل » الخصيان فى فردان بمقاطعة اللورين فى فرنسا . وكان اليهود يخصون أولئك المساكين وهم أطفال فيموت كثيرون منهم على أثر العملية ، فمن بقى حيا ارسلوه الى أسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير . وأصبحوا بتوالى الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل أو الأثاث أو الآنية ، فكان ملوك الافرنج اذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين فى الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ومن جملتها الخصيان ، كما فعل أمير برشلونة وطركونة لماطلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الاندلس فانهما أهدياه ٢٠ خصيا من الصبيان الصقالبة و ٢٠ قنطارا من صوف السمور، الخ . فتكاثر الخصيان فى بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة، كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد . فاذا احتفلّ الخليفة ببيعة أو نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال

وراجت تجارة الصقالبة فى ابان التمدن الاسلامى ، وكل ماكان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها، غير مايحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبيه الخراسانيون ويحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسبيه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

---

(١) ابن حوقل ٧٥

٣ ـ الجوارى

تكاثرهن

للجوارى شأن كبير فى تاريخ التمدن الاسلامى لايقل عن شأن العبيد والموالى، وأصل الجوارى مايسبيه الفاتحون فى الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك أو الدهاقين ، يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يتصرفون فى بيعهن تصرف المالك بملكه (١) ولما أفضت أحوال المسلمين الى الترف والقصف وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلى والجواهر . فمن أحب التقرب من كبير أهدى اليه جارية اتقنت صناعة يعلم انه راغب فيها ــ فاذا علم مثلا انه يجب الجمال أهداه وصيفة جميلة ، أو علم منه ميلا الى الغناء أهدى اليه قينة رخيمة الصوت . وقد يهديه عدة جوار أتقن عدة صناعات ، وربما صارت احداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه اذا استولدها سيدها . واذا كانت فى دار خليفة لايبعد أن تصير من أمهات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بنى العباس ، ذكروا أن جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحة كانت أروى الناس للغناء القديم ، وقد خرجها رجل من أهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكى ، وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير الى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا فى ارجاعه ، فرأت أن تشغله عنها بالجوارى فأهدت اليه عشر جوار منهن مارية أم المعتصم ومراجل أم المأمون وفاردة أم صالح (٢)

وكثيرا ماكان العمال والأمراء يتقربون الى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف(٣) فلا غرو اذا تكاثرن فى قصور الخلفاء والأمراء وأهل الوجاهة . وليس الاستكثار منهن حادثا فى الاسلام ، وانما هو من بقايا التمدن القديم ، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٤) وكان لجماعة من بنى العباس ألف جارية ، وسيأتى بسط ذلك فى مكان آخر

أصناف الجوارى

فلما تعود الناس اقتناء الجوارى اشتغل النخاسون فى استجلابهن من أقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا (*) وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج

---

(١) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١
(٢) الاغانى ١٣٧ ج ١٦
(٣) المسعودى ٢٨٠ ج ٢
(٤) المسعودى ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١
(*) يراد بالخطا بلاد الصين ، وقد استعمل الاوروبيون هذا اللفظ اول الامر ، فكانوا يسمون الصين Cathay

والحبشة صغارا وكبارا ، يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن أو جمالهن ، فينبغ منهن الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعوادات والعالمات وأمهات الدهاء والسياسة وغير ذلك . وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية ، بين مولدة فى البصرة أو الكوفة أو بغداد ممن يفصحن العربيـة ، ومجلوبة من أرضها أو سبية أخيذة على حالها تتكلم التركية أو الفارسية أو الرومية أو الهندية أو البربرية ، ولا تزال ولو تعربت أعجمية اللسان . والمولدة اثمن من الجليبة ، وتختلف أثمانهن باختلاف الصناعة أو الجمال وباختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد أو الغناء أو الخدمة . وفى الجليبات النصرانيـة واليهودية والمجوسية ، لكل منهن شأنها فى دينها حتى يعيدن اعيادهن بمـا يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والأحجبة ونحوها ــ ذكر أحمـد ابن صدقة انه دخل على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصـيفة جلبا روميات مزنرات (*) قد تزين بالديباج الرومى وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب وفى أيديهن الخوص والزيتون (١)

على انهم كانوا يختصون كل صنف من الجوارى بصفات خاصة ، وقد صنفوا كتبا فى هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة فى كل صنف منهن ، وخلاصة ذلك قولهم : من أراد النجابة فبنات فارس ، ومن أراد الخدمة فبنات قيصر ، ومن أراد غير ذلك فبنات بربر ، والمولدات والزنجيات للزمر ، والحبشيات للحفظ وخزن المال ، والنوبة للطبخ ، والأرمن للتربية والرضاع . ومن أقوالهم : الوجوه فى الترك ، والأجسام فى الروم ، والشعور فى الخطا وفارس ، والعيـون فى الحجاز ، والخصور فى اليمن (٢) وقالوا فى وصف المولدات بالبصرة والكوفة: انهن ذوات الألسن العذبة ، والقدود المهفهفة ، والأوساط المخصرة ، والاصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة (٣) مما يطول شرحه • وكانت تجارة الجوارى على أروجها فى بغداد ، فكانوا يحملون اليها أجملهن خلقا وأذكاهن عقلا ، لما يتوقعونه من بيعهن بالأثمان الباهظة .

تعليم الجوارى

وكان تعليم الجوارى وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة فى ذلك العصر ، فيذهب أحدهم الى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء ، فيثقفها ويرويها الاشعار أو يلقنها الغناء أو يحفظها القرآن أو يعلمها الأدب او النحـو او العروض أو فنا من فنون المنازل ثم يبيعها . وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كابراهيم الموصلى وابنه اسحق ، فربمـا

(*) اى شددن خصورهن بالزنار ، وهو حزام خاص كان من شارات النصارى فى اللباس
(١) الاغانى ١٣٨ ج ١٩
(٢) ترتيب الدول ١١٢
(٣) المسعودى ١٥٤ ج ٢

ابتاع أحدهم الجارية بمائة دينار فاذا علمها وثقفها باعها بخمسمائة أو الف دينارا (١) وأشهر المغنيات فيالمدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذهالصورة. وقد يربى بعضهم الجارية ويهديها الى الخليفة أو الوزير لتكون وسيلة له فى نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ احداهن فى فن من الفنون الجميلة كالغناء أو الشعر أو الادب فتبتاع بألوف الدنانير (٢) . فكيف اذا أتقنت غير فن منها ؟ وربما نبغت منهن من تجيد الشعر والغناء أو فنون الأدب والاخبار ، فيقصدها أهل الادب وذوو المروءة للمذاكرة والمساجلة فى الشعر وغيره ، وقد ينبغن فى حفظ القرآن حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن ، وكان يسمع فى قصرها كدوى النحل من القراءة (٣)

فتعدد الجوارى فى دور الكبراء وتسابق أهل الترف الى التفنن فى تزيينهن . وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فانها لما رأت ابنها يغالى فى تخنيث الغلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجوارى سمتهن المقدودات ، عممت رءوسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان ، واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجوارى الغلاميات أو المطمومات وألبسنهن الأقبية والمناطق الذهب (٤)

نفوذ الجوارى

وطبيعى فى ربات الحسن ان يكن نافذات الكلمة لأن الجمال قوة والحب سلاح، ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والأمراء يتباعدون عن الجوارى ، اذا أهدى الى أحدهم جارية لم يلتفت اليها ، ولا سيما مؤسسى الدول كمعاوية والمنصور وعبد الرحمن الداخل . فاشتهر المنصور بكرهه للهو ، وكان عبد الرحمن اذا أهداه أحد جارية ردها (٥) وعكس ذلك خلفاء أواسط الدولة ابان الترف والقصف والرخاء ، فانهم كانوا يتمادون فى حب الجوارى حتى يتسلطن على عقولهم ، كما فعلت حبابة بيزيد بن عبد الملك الأموى حتى كادت تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد ، فانها ملكت قياده حتى حلف يوما انها لا تسأل شيئا فى ذلك اليوم الا قضاه لها ، فسألته ان يولى حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولى عهده بعده أن يتممها له ان لم تتم فى حياته (٦) وكثيرا ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجوارى عن رعاية الملك ولاسيما المغنيات ، ولذلك

---

(١) الاغانى ١٥٤ ج ٨
(٢) الجزء الثانى من هذا الكتاب
(٣) ابن خلكان ١٩٠ ج ١
(٤) المسعودى ٣٦٦ ج ٢
(٥) نفح الطيب ٧٠٩ ج ٢
(٦) الاغانى ٨٠ ج ١٥

كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة او منصب ، وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار من شاء (١) ويزداد الجوارى نفوذا وسطوة اذا صرن امهات كما صارت الخيزران وغيرها من امهات الخلفاء ــ راجع الجزءين الثانى والرابع من هذا الكتاب ، وسيأتى الكلام على المغنيات فى باب المغنين

طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة وأتباعهم ، ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عددا وأبعد عن الحصر ، لأنهم لفيف من امم شتى ولاسيما فى بغـداد فى ابان عمارتها ، وقد تقاطر اليها المرتزقون والمحترفون والمستجدون من اطـراف المملكة الاسلامية ، بين صانع وبائع وفيهم العربى والنبطى والفارسي والخراسانى والتركى والسندى والرومى والكرجى والأرمنى والكردى والقبطى والبربرى والنوبى والزنجى والاندلسى وغيرهم . وفيهم أهل الحرف الراقية ، وتجـار السلع والأقمشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب ، فضلا عن الادباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره . على أننا تسهيلا للبحث نقسم العامة على الاجمال الى طبقتين كبيرتين : الأولى طبقة المقربين من الخاصة ، والثانية طبقة الباعة واهل الحرف والرعاع وغيرهم

الطبقة الاولى

المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم او عقـولهم الى التقرب من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم ، فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم أو رواتبهم أو يرتزقون من بيع سلعهم لهم ، وهم أربع فئات : أهل الفنون الجميلة والأدباء والتجار والصناع

١ ــ أهل الفنون الجميلة

المصورون

الفنون الجميلة ــ ويسميها العرب « الآداب الرفيعة » ــ ثلاثة : التصوير ، والشعر ، والموسيقى . فالتصوير لم يكن له شأن كبير فى التمدن الاسلامى لورود القول بتحريمه ، وانما كانوا يصورون مايصورونه فى الدولة الامـوية والعباسية يقلدون به مابين أيديهم من تصوير الروم والفرس ، أو ماجاء به السلاجقة من صناعة المغول من أواسط تركستان . على أن التصوير ازهـر

---

(١) العقد الفريد ١٤٨ ج ١

وارتقى فى بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فان تلك الصناعة أخذت فى الارتقاء من ذلك الحين ، لأن المغول المشار اليهم أتوا معهم بمهندسين من أهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ، ومعهم جماعة من أرباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة ، فاستفاد الفرس منهم واتقنوا هذه الفنون وفى جملتها التصوير ونشروه فى سائر ممالك المسلمين ، وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم فى بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها (١) وفى دور الكتب الكبرى فى مدائن العالم المتمدن اليوم أمثلة من هذه الصور ، ملونة تلوينا بديعا أكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ أو الادب أو العلم . وبعضها تمثل رسوما خيالية كصورة المعراج ونحوها . ففى دار الكتب بالقاهرة صور ملونة هى عبارة عن أشكال زينوا بها كتابى الشاهنامة للفردوسى وعجائب المخلوقات للقزوينى وغيرهما . اما فى ابان التمدن الاسلامى فلم يكن لاهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة ، الا من اشتغل منهم بهندسة الأبنية ولا سيما فى الاندلس

اما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب أصحابهما من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بهما الأموال الطائلة . وقد بينا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربى وما أصله ، وما كان شأنه فى الجاهلية وما آل اليه بعد الاسلام ، من عصر الراشدين فالأمويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام ، وتحدثنا عن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء فى الاسلام وأشعارهم ، والشعر وتأثيره فى الدولة والشعر والخلفاء والأمراء وغير ذلك ، — وسيأتى الكلام عما كان الشعراء يصيبونه من الأموال — يقى علينا النظر فى الموسيقى وأهلها وهم المغنون

٢ — المغنون

الغناء قبل الاسلام

الغناء طبيعى فى الأمم ، لأنه لغة النفوس وترجمان العواطف ، وكل أمة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها ، فالعرب فى الجاهلية كانوا أهل ماشية وأنعام وخيام ، فلم ينتبهوا الى شىء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلهجون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء ، وتلك أول خطوة نحو الموسيقى لأنها بنت الشعر أو أخته

ثم ظهر فيهم « الحداء » وهو غناء يتغناه الحداة فى سوق ابلهم والفتيان فى قضاء خلواتهم ، ثم عمدوا الى « الترنيم » . وكان ترنيمهم على نوعين :

(١) Revue Arch. Les Ecoles des Peintures en Perse, 1905, 11

« الغناء » وهو ترنيم الشعر ، و « التغبير » (بالغين والباء) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر

ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة أوجه ، أو ثلاثة الحان أو أصوات وهى : النصب والسناد والهزج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان ، وهو الذى يقال فى المراثى ، ويسمى « الغناء الجنابى » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله يزعمون أن أصل الحداء منه ، وهو يخرج من الطويل فى العروض . و « السناد » اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وهو على ستة طرق ، منها الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثانى وخفيفه . وأما « الهزج » فهو الخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وشاع الغناء قبل الاسلام فى أمهات المدن من بلاد العرب وهى المدينة والطائف وخيبر (١)

أما آلات الموسيقى عندهم فأشهرها الدف ، وهو اشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير ، والمزمار على أبسط انواعه . ولا يظهر انهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار وما يتفرع عنهما من آلات النفخ والقرع . وأما آلات الأوتار كالعيدان والطنابير والمعازف ونحوها فهى من صناعة الفرس والروم ، لم يعرفها العرب الا بعد الاسلام (*)

---

(١) العقد الفريد ١٨٦ ج ٣

(*) الدراسات عن الموسيقى العربية كثيرة ، وكلها مع الاسف باللغات الاوروبية ، اذ لم يعكف على دراستها أحد منا دراسة علمية على أصولها ، ويجد القارىء بيانا بأهم المراجع فى كتاب هنرى جورج فارمر « الموسيقى العربية » الذى ترجمه الدكتور حسين نصار ونشره فى القاهرة سنة ١٩٥٦ . وأهم هذه المراجع

Coussin de Perceval, Notices sur les principaux musiciens arabes, dans J. A 1873.

Land, Recherches sur l'histoire de la gamme arabe (Actes de VIe Congrès Internationale des Orientalistes, 1883) Leyden 1884.

Ibidem, Essai de notation musicale chez les Arabes et les Persans; dans Etudes dédiées au docteur C. Leemans, Leyden 1885.

Tripodo, Lo stato degli studii sulla Musica degli arabi. Roma 1904.

Ribera, Historia de la musica arabe medieval y su influencia en la espanola. Madrid 1927.

Ibidem, Arabic musical manuscripts in the Bodeleian Library, London 1925.

ومن الاصول العربية القديمة والابحاث الحديثة ، بالاضافة الى ماكتبه ابن خلدون فى المقدمة وابن سينا فى الشفاء (جزء خاص عن الموسيقى أعد للطبع ويظهر فى القاهرة قريبا ضمن سلسلة مؤلفات ابن سينا) والفارابى (كتاب الموسيقى وقد نشر فى مجلد اعمال مؤتمر المستشرقين السادس ، ليدن ١٨٨٤) :

محمد بن على الاربلى : جواهر النظام ، نشر فى مجلة المشرق ، المجلد ١٤
شهاب الدين محمد بن اسماعيل : سفينة الملك ، القاهرة ١٨٩٢
احمد السفرجلانى : السفينة الادبية ، دمشق ١٨٩١
عثمان بن محمد الجندى : روض المسرات ، القاهرة ١٨٩٥
ميخائيل مشاقة : الرسالة الشهابية فى الصناعة الموسيقية ، بيروت ١٨٩٩
احمد امين الديك : نيل الارب فى موسيقى الافرنج والعرب ، القاهرة ١٩٠٢
وانظر مادتى موسيقى وزرياب فى دائرة المعارف الإسلامية بقلم جورج هنرى فارمر

الغناء فى الاسلام

فلما جاء الاسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم ، كانوا فى عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدته ، مما يدعو الى ترك أحوال الفراغ وما ليس نافعا فى دين ولا معاش ، حتى تركوا ما كان عندهم من انغام الجاهلية ، ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر . فلما جاءهم الترف فى أيام بنى أمية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا فى سلطان العرب ، وحمل بعضهم الى الحجاز فى جملة الأسرى أو السبايا فأصبحوا من موالى العرب ، وقد حملوا معهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، فغنوا بها فاعجبوا بالحانهم فاشتغل المغنون واكثرهم من الموالى فى تلحين أشعار العرب على الألحان الفارسية أو الرومية ، فنبغ فى المدينة فى أيام بنى أمية طائفة من المغنين . والمشهور أن أول من أدخل غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسجح ، وهو مكى أسود كان فى مكة لما حاصرها الأمويون ، وفيها ابن الزبير فى أواخر القرن الأول للهجرة ، فاستقدم ابن الزبير بعض البنائين من الفرس لترميم الكعبة ، فسمعهم سعيد بن مسجح يغنون بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية ، فاعجب الناس كثيرا فسافر الى الشام وفارس فأتقن فن الغناء وعنه أخذ من جاء بعده من مغنيى المدينة وغيرها . وشاع الغناء فى المملكة الاسلامية وراجت بضاعته باتساع أسباب الحضارة والرخاء ، وتكاثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة فى الغناء ، فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين اتقنوا هذه الصناعة وآلاتها اتقانا حسنا ، على ما بيناه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وانما يهمنا الآن النظر فى تاريخ انتشار المغنين فى الاسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم

الغناء والدين

كان الغناء فى صدر الاسلام مكروها ان لم نقل محرما ، واختلف الائمة فى تحريمه وتحليله كله أو بعضه . ويقال بالاجمال ان أهل الحجاز أجازوه وأهل العراق كرهوه ، وحجة من احله أن اصله الشعر الذى استحسنه النبى (ص) وحض عليه وندب اصحابه اليه واستنصر به على المشركين ، فقال لحسان شاعره : « شن الغارة على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام » وأكثر شعر حسان يغنى به . وحجة من حرمه انه يسعر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب ، وهو باطل من أصله (١) وحلل آخرون بعض الغناء وحرموا

---

(١) العقد الفريد ١٧٨ ج ٣

بعضه ، ولكن أهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونه فى كل حال ، ولذلك لم يظهر الا بعد عصر الراشدين . وكان معاوية بن أبى سفيان يعيب على الراغبين فى الغناء ، ولا سيما أهل الوجاهة والشرف ، وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على أنه كان يعيب عليه استماع الغنـــاء (١) وأن سره اشتغال هـــذا وسواه من أهل النبى باللهو والطرب عن مقاومته فى طلب الخلافة ــ بل هو كان يبذل لهم الأموال فى هذا السبيل

ولما تولى الخلافة أصحاب اللهو والقصف أخذ الغناء فى الانتشار ، وأول من أباحه ونشط اهله يزيد بن معاوية ، ففى أيام هذا (سنة ٦٠ ــ ٦٤ هـ) ظهر الغناء فى مكة واستعملت الملاهى لأنه كان صاحب لهو وطرب (٢) وتفشى الغناء الجديد فى الحجاز ولا سيما المدينة . وما زال محصورا فيها تقريبا حتى أفضت الخلافة الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك (سنة ١٢٥ ــ ١٢٦ هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتك وخلاعة ، فبعث الى المدينة فى استقدام المغنين اليه فى دمشق (٣) فأخذ الغناء فى الانتشار فى بلاد الاسلام من ذلك الحين

مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء والأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء من غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى فى المدينة معدن الغناء فى ذلك العصر (٤) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتان الناس بغنائهم (٥) وصرفهم عن أمور دينهم ، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الفرام »

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك كان يكره الغناء ، فسمع مغنيا فى عسكره فطلبه فجاءوه به فقال : « أعد ما غنيت » فتغنى واحتفل فقال سليمان : « والله لكأنها جرجرة الفحل فى الشول ، وما أحسب أنثى تسمع هـذا الا صبت اليه » ، ثم أمر به فخصى ! (٦)

وسليمان هو الذى أمر بخصى المخنثين فى المدينة لمثل هذا السبب ــ قيل انه كان فى بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هى تصب عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه فتجاهل . وفى الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم أنه يشتهيه ، فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل

---

(١) العقد الفريد ١٨٢ ج ٣
(٢) المسعودى ٦٨ ج ٢
(٣) العقد الفريد ٢٦٩ ج ٢ والمسعودى ١٣٣ ج ٢
(٤) العقد الفريد ١٩٦ ج ٢
(٥) الاغانى ١٣٠ ج ٢
(٦) الكامل للمبرد ٣٧٧

الى الرجل الذى شغلت الجارية بغنائه فى الأمس . فلما تحقق ذلك أقبل على القوم وقال : «هدر الجمل فضبعت الناقة ، ونب التيس فسكرت الشاة،وهدل الحمام فزافت الحمامة ، وغنى الرجل فطربت المرأة ! » ثم أمر به فخصى . وسأل عن الغناء أين أصله فقيل : « فى المدينة بجماعة المخنثين وهم أئمتــه والحذاق فيه » فكتب الى عامله هناك : « أخص من قبلك من المخنثين المغنين» فخصاهم (١)

على أن المتهتكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجر اليه الغناء من أسباب اللهو ، قال الوليد بن يزيد الذى ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين اليه : « اياكم والغناء ، فانه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا ، وانى لأقول ذلك فيه على أنه أحب الى من كل لذة واشهى الى من الماء البارد الى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال ! » (٢)

فكيف بالعقلاء واهل الحزم ومؤسسى الدول أو معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وأبى مسلم ، او أهل التقوى مثل عمر بن عبدالعزيز الأموى والمهتدى العباسى ؟ فقد تقدم ما عابه معاوية على عبد الله بن جعفر . أما هشام فسمع عن اشعب المضحك فى المدينة فأمر كاتبه أن يكتب باستقدامه ، فلما ختم الكتاب اطرق هشام طويلا ثم قال : « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليحمل اليــه مضحك ؟! » وتمثل :

اذا انت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيــــه عليك مقـــال

راوقف الكتاب (٣) . وأما المنصور فقد كان يعير آل الزبير بحبهم الغناء (٤) وســـــمع ذات يوم ضرب طنبور فى داره فكسره على صاحبه . أما عمر بن عبد العزيز فبلغه أنقاضيا منقضاته استخفه الطرب منالغناء فأمربعزله(٥) . والمهتدى العباسى كان يتشبه بعمر المذكور ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ كانت الملاهى قد انتشرتفىالدولة العباسية فأمر بمنع الغناء (٦) وربما امتنعوا عنه الى أجل ريثما يصفو لهم الزمان ، كما فعلالمأمون لما عاد منخراسان وقد أهمه تأييد خلافته ، فبقى عشرين شهرا لايسمع غناء (٧) وكذلكالامراءالعقلاء مثل خالد القسرى ، فانه أمر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق (٨)

(١) الاغانى ٦١ ج ٤
(٢) الاغانى ١٣٤ ج ٦
(٣) المسعودى ١٣١ ج ٢
(٤) الاغانى ١١٥ ج ٢
(٥) المسعودى ١٢٢ ج ٢
(٦) فوات الوفيات ٣٧١ ج ٢
(٧) الاغانى ١٠٦ ج ٥
(٨) الاغانى ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج ١٩

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي ، على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد . فالمسلمون لما تحضروا واخلدوا الى السكينة والراحة عمدوا الى أسباب الرخاء وفي جملتها الغناء ، والمرجع في ذلك الى الخلفاء والأمراء ، لأن الناس على دين ملوكهم ولا سيما في الحكم المطلق ، فاذا أحب الخليفة الغناء أحبه رجال دولته . فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته . وأول من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في أيام امارته على الحجاز ، ثم الوليد بن يزيد وله أصوات اشتهرت عندهم ، واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الألحان والتلحين ، أشهرهم الواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد. أما أبناء الخلفاء فأول من دونت صنعته فيه ابراهيم بن المهدي وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله ابن موسى الهادي وعبد الله بن محمد الأمين وأبو عيسى بن المتوكل وعبد الله ابن المعتز وغيرهم . فقس على ذلك ما كان في زمن بني أمية ، ولا سيما في عصر الاضمحلال ، حتى كانوا يحملون المغنين وآلاتهم في أسفارهم ولو الى القتال ، فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي أصبهان سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير (١)

فالغناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البـــلاد التي فتحوها ، فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية (٢) وحملهم الترف على سماعه والولوع به ، فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء — وسنعود الى ذكرهم

٣ — العلماء والفقهاء والادباء

هم طائفة من العامة تقربوا الى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الأخبار والنوادر ، أو النظر في علوم تلك الايام الدينية أو اللسانية أو الأدبية أو التاريخية. ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والأدباء من أصحاب الاخبار ، كالاصمعي وأبي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم . وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع أبحاثهم ، فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويجيزونهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ، على ما سنبينه في باب أبهة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في أماكن كثيرة من هذا الكتاب

واقتدى بالخلفاء وزراؤهم وأمراؤهم ، كالبرامكة وآل الفرات فانهم أغدقوا الأموال على هؤلاء فنشطوا العلم وأهله حتى صار العلم صناعة يرتزق بهـــا

(١) ابن الاثير ١٩٠ ج ٥
(٢) الجزء الثالث

أصحابها من الناس . ويدخل فيما تقدم المترجمون من غير المسلمين ، وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية فى العصر العباسى ، فانهم فئة من أهل الذمة قربهم الخلفاء واكرموهم من اجل علمهم على ما فصلناه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب

٤ — التجـــار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التى تقتضيها الحضارة ، كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقيق . وأكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه . وكانوا يقيمون فى بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الاسلامية ، واكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الأمم التى اشتهر اهلها بالعناية بهذه الطرف ، كانوا يحملون الى دار السلام أصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة فى عصر الثروة

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند ، واللؤلؤ من البحرين ، والعقيق والعاج من الحبشة ، والأدهان والزيوت العطرية من نيسابور ، ونسيج الكتان من شيراز . وطراز الوشى والاقمشة المنسوجة من الشعر التى تصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة ، والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز ، هذه كلها من فسا . والبسط والنخناخ والمصليات والزلالى من جهرم . والستور والمقاعد من دشت . وأحسن أصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والأنماط والمقاعد من أرمينية ، وكان لهم صبغ من القرمز يصبغون به الصوف لا مثيل له . والعتابى والوشى وسائر ثياب الحرير من أصفهان . والثياب المنيرة من الرى ، والابريسم ومطارف القز (*) وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور . والسمور الأسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس ، والبز من بلخ . والكاغد والنوشـــادر والأوبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر وكذلك المسك ، ولكن أصله من بلاد التبت . والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا . والديبقى من تنيس ودمياط . والستور والبسط المصرية من البهنسا . والطيالسة المقورة الرفيعة من كرمان . والحصر والقباطى والقراطيس من مصر . والمناديل الديلمية البيضاء المعلمة من قومس — ربمـا بلغ ثمن المنديل منهـا ٢٠٠٠ درهم . والمقانع القزيات من جرجان والسوس . والبرود المنيرة والقصاع والأمشاط من الرى . والأكسية والجوارب من قزوين . والخفاف والسمور من همدان . والزجاج والخزف

(*) تجد بيان ماهية كل صنف من أصناف النسيج هذه وكذلك انواع الملابس فى
Dozy. Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les musulmans.

من البصرة . والحصر من عبادان . والديباج والأنماط من تستر ، والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن . والمسك والكافور والعود من الصين

أما الرقيق فأبيضه كان يحمل مما وراء النهر ، وأصله من الصقالبة أو من الخزر الأتراك من بادية تركستان ، وأحسنهم يربى فى سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام . ويحمل الرقيق الأبيض أيضا من الأندلس وفيه الجوارى والغلمان ، وأصلهم من سبى الافرنج وجليقية أو من الصقالبة كما تقدم . ومن الرقيق الأبيض صنف كان يرد من خراسان غال جدا ، ربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار . أما الرقيق الأسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر أو بلاد المغرب

وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وتبيعها فى أسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية . واكثر الناس اشتغالا بنقلها فى البرطائفة من التجار اليهود الراذانية (*) كانوا يتقنون اللغات الرائجة فى ذلك العصر ، وهى العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية ، ويسافرون بين الأقاليم العامرة يحملون التجارات من اقليم الى آخر (١) كما كان الفينيقيون فى ابان دولتهم

أما التجارة البحرية فأشهر أصحابها السيرافيون (**)، فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والأبنوس والفلفل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الأطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطىء افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة فبغداد (٢)

فكان التجار يفدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالأثمان الفاحشة . ويدخل فى هذه الطبقة من الناس الصيارفة واكثرهم من اليهود ، وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش . اشتهر منهم فى بغداد صيارف كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل فنخاس وآل عمران وغيرهم (***)

(*) الراذانية أو الردنانية نسبة الى ردانس — بفتح الراء أو ضمها — وهو نهر الرون ، واسمه باللاتينية Rhodanus ، وكانت لليهود جاليات فى المدن الواقعة على مصبه واشهرها ماسيليا Massilia وهى مرسيليا ، وكانوا يتخذون مجرى النهر وسيلة لنقل المتاجر التى يجمعونها من غالة ويتجرون بها فى البحر الابيض المتوسط
أنظر عن ذلك كتاب هويد Houd عن تجارة الشرق

(١) ابن خرداذبة ١٥٣

(**) السيرافيون نسبة الى سيراف ، وهى فرضة تجارية على الخليج العربى الذى يعرف بالخليج الفارسى . أنظر عنها الفصل الخاص بالتجارة البحرية من كتاب آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده

(٢) الاصطخرى والمسعودى

(***) أنظر عن هذا الموضوع فصل « البنوك الخاصة » من كتاب « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة » للدكتور صالح أحمد العلى ، بغداد ١٩٥٣ ص ٢٦٠ وما بعدها

تجار المسلمين

فلما نضج التمدن الاسلامى واشتغل المسلمون انفسهم بالتجارة لم يقصروا فى شىء من شروطها ، وأتقنوها علما وعملا حتى الفوا الكتب فيها وفى الاقتصاد السياسى . وبين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة » للشيخ أبى الفضل جعفر بن على الدمشقى من أهل القرن الخامس للهجرة ، فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه أحد اليها وأبحاث فى معنى النقود والسلع والمال الصامت والأعراض وتحقيق اثمان الأشياء ، مالا تقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد فى هذا العصر — يدل ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقى فى علم التجارة ، ناهيك بأهل الرحلة منهم الى أطراف المعمورة فى ذلك العصر ، فقد طافوا العالم برا وبحرا من القرن الرابع للهجرة ، ودونوا رحلاتهم تسهيلا لأسباب التجارة ، واكتشفوا طرقا تجارية فى البحر المحيط والبحر الهندى والأحمر وفى أواسط افريقيا وآسيا لم يسبقهم اليها أحد

أما الأسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار ، فمخرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه ، والبحر الأحمــــر الى آخره ، والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة ، وشرقا الى كلكتة وجزائر الهند والصين ، وجنوبا الى مدغشقر وسائر شواطىء افريقيا الشرقية ، واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . أما برا فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين ، وأوغلوا فى افريقيا الى خط الاستواء ، فقربوا الأبعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة

فكان التجار المسلمون حوالى القرن الرابع للهجرة يجوبون الأقطار برا وبحرا ، ينقلون التجارة من بلد الى بلد ، بين شواطىء فارس وسواحل أفريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق . ويقطعون صحارى خراسان وتركستان وأرمينية وأفغانستان والهند والشام ومصر والسودان وأفريقية والاندلس فى نقل أصناف التجارة ، كأنهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحرا وبغداد برا . واشتهر من تجار المسلمين ممن كانوا يخترقون البحار فى القرن الرابع للهجــــرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم ، والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمن والقلزم ، وقد عرفهم المسعودى وذكرهم فى تاريخه (١)

ثروة التجار

وقد استغرقنا فى الكلام على التجارة — وجملة القول أن التجارة العليا كانت من أبواب الرزق الواسعة فى ذلك العصر لأصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ص ٥٤ ج ١

التوفيق ويتقربون من البلاط أو بعض أهله . فظهر فى عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الأموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير . وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة ، فخدمهم حظهم حتى ارتقوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة ، كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا فى العصر العباسى مثل شهرة آل روتشيلد فى القرن الماضى وروكفلر الأميركى فى هذا القرن ، وأول من اثرى منهم الحسن بن عبد الله ، وقد قص هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يسارى أنى كنت فى دهليز ابى الجيش خمارويه بن احمد بن طولون بمصر ، وكنت وكيله فى ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون اليه ، وما كنت أفارق الدهليز لاختصاصي به ، فخرجت الى قهرمانة لهم فى بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة ، لم أر قبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه ، كل حبة منه تساوى مائة الف دينار ، وقالت : يحتاج أن تخرط هذا حتى تصغر فتجعل فى آذان اللعب وفى قلائدها . فكدت أطير واخذتها وقلت : السمع والطاعة ، وخرجت فى الحال مسرورا وجمعت التجار ، ولم ازل اشترى كل ماقدرت عليه الى أن جمعت مائة حبة أشكالا من النوع الذى طلبته وأرادته،وجئت عشيا وقلت:ان خرط هذا يحتاج الىانتظار وزمان،وقدخرطت اليوم ماقدرنا عليه وهو هذا ، ودفعت اليها المجتمع وقلت : الباقى يخرط فى أيام ، فقنعت بذلك واعجبها الحب ، فخرجت وما زلت أياما فى طلب الباقى حتى اجتمع ، فحملته اليها . وقامت على المائة حبة بدون المائة الف درهم ، وأخذت منهم جوهرا بمائتى ألف الف دينار . ثم لزمت دهليزهم واخذت لى غرفة كانت فيه فجعلتها مسكنى ، وكان يلحقنى من هذا اكثر مما يحصى ، حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره » (١)

وكان لابن الجصاص بيت كبير فى بغداد لبيع المجوهرات ، فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسى فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، كان ابن الجصاص فى جملة الذين صودروا ، وسبب ذلك أن عبد الله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم انحل امره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابنالجصاص المذكور ، فوشى به خادم فصادره المقتدر بالله على ٠٠٠ ٠٠٠ ١٦ دينار ، وبقى له بعد مصادرته شىء كثير من الدور والقماش والأموال والضياع وغيرها . ويقال مع ذلك انه كان أحمق ابله — فاعتبر مقدار ما كان يصل الى التجار أهل النباهة والدهاء

وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والأثاث ، ولاسيما فى البصرة ، فقد اشتهر فيها جماعة من اهل اليسار واكثر غناهم من تجارة البحر ، فقد كانت سفن

---

(١) فوات الوفيات ١٣٨ ج ١

بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة الى أنحاء العالم ــ ذكروا واحدا منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ... ٥٠٠ ٢ درهم فى السنة (١). وبلغت ثروة صاحب مراكب فى البصرة ... ... ٢٠ دينار (٢) . ومنهم رجل اسمه أحمد ابن عمار كان طحانا بالبصرة ، فأصعد الى بغداد فى أيام المعتصم فاتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار . فاذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله الف دينار فى اليوم ، واستوزره المعتصم لأمانته ولكنه كان جاهلا(٣)

٥ ــ الصناع

أما الصناعة فقد أخذوا منها بنصيب كبير ، لأنهم كما برعوا بالاتجار فى السلع برعوا أيضا فى صناعتها ، وارتقت الصناعة عندهم بتوالى الأجيال ، حتى فاقوا فى بعضها البلاد الأخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم . فهم الذين نشروا السكر فى العالم ، نقلوه من مواطنه فى الهنـد الى بلاد فارس وانشأوا له المعامل واستخرجوا منه أصنافا لم يكن لها مثيل (٤) وهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها فى العالم وعنهم أخذها أهل اوربا بطريق الاندلس (٥) وقد امتازت بعض مدن الأندلس بصناعات كانت تفاخر بها صناعات المشرق ، فكانوا يصنعون فى مرسية وشيا مذهبا فى غاية الاتقان ، وفيها أيضا معمل للبسط لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرصعة . وكان فى مالقة معامل للزجاج الغريب وفخار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ، ولهم اختراع فى صناعة الزجاج يؤثرونه لهم ، فذكروا أن أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس ابن فرناس حكيم الاندلس (٦) واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه فى الجزء الأول من هذا الكتاب

ولهم فى الميكانيكيات صناعات حسنة كالساعة التى اشتهرت فى جامع دمشق وذكرها ابن جبير فى رحلته فى القرن السادس للهجرة ــ وهاك ماقاله فى وصفها على ماشاهده بعينه :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذى أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر (أى نحاس) قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا . فعند انقضاء ساعة من النهـار تسقط صنجتان من صفر من فمى بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين

---

(١) ابن الاثير ٢٠ ج ٩
(٢) ابن حوقل ١٩٨
(٣) الفخرى ٢١٣
(٤) Encycl. Brit. article Sugar
(٥) الجزء الاول
(٦) نفح الطيب ٨٧٣ ج ٢

من صفر تحت كل واحد منهما ، أحدهما تحت أول باب من تلك الابواب والثانى تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهمـا تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا . وعند وقوع البندقتين فى الطاستين يسمع لهما دوى ، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة الحين بلوح من الصفر . لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضى الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولهـا بالليل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجـدار فى الغرفة ، يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقـل ذلك الى الاخرى حتى ينقضى الليـل وتحمر الدوائر كلها ، وقـد وكل بهـا فى الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى مواضعها» اهـ (١)

وقس على ذلك كثيرا من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والأكر والأنابيب والامخال وغيرها للرفع والجر والنقل ، ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها وأكثرها مأخوذ فى أصله عن اليونانية ، ككتاب « الحيل الروحانية ومخانيقا الماء » لفيلون البيزنطى ، وكتاب « رفع الاشياء الثقيلة » لهيرون الاسكندرى نقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكى ، وغيرها مما نقله الافرنج الى اللاتينية فى نهضتهم الأخيرة وفقدت ترجمته العربية كما فقد أصـلـه اليونانى قبله . وفى هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات (٢)

واشتغل المسلمون فى هذه الفنون والفوا فيها الكتب من عند أنفسهم . وقد وقفنا على مؤلف خطى فى الآلات الروحانية أطلعنا عليه صديقنا الشيخ شـبلى النعمانى العالم الهندى الشهير ، وهو تأليف « رئيس الأعمال بديع الزمان أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزرى » فى أسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الأجسام بالاجسام من المقدمات الطبيعية — الفه لأبى الفتح محمود بن محمد بن قزل أرسلان من آل ارتق فى أواخر القرن السادس للهجرة ، فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . وبينها رسم يشبه ماوصفه ابن جبير عن ساعة دمشق — فيدل هـذا وغيره على مابلغ اليـه المسلمون من اتقـان فن الميكانيكيات مما يحتاج فى وصفه الى كتاب بأسره

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧١
(٢) المشرق عدد ٦ سنة ٧

الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقى من الأمة وهم السواد الاعظم ، وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنث والصعلوك وغيرهم مما لا يحصى . ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين : أهل القرى وهم المزارعون ، وأهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع

١ ــ المزارعون أهل القرى

فالمزارعون أو الاكرة يتألف منهم معظم سكان المملكة وهم أصل ثروتها ، وأكثرهم من أهل الذمة يقيمون فى القرى الا من أسلم منهم فينزل فى المدن . وكانوا يتكلمون لغات البلاد الأصلية : السريانية والآرامية واليونانية فى العراق والشام ، والقبطية بمصر ، والفارسية فى بلاد فارس ، والتركية فى تركستان بما وراء النهر . واخذ العنصر العربى يتغلب على عناصرهم ، واللغة العربية تتغلب على ألسنتهم ، والاسلام يتغلب على أديانهم ، حتى ساد الاسلام عليهم جميعا ، وعمت العربية البلاد الواقعة غربى دجلة وهى العراق والشام ومصر وافريقية والسودان ، وصارت تعد بلادا عربية وأكثر أهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التى كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية فى بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق . أما شرقى دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام أيضا ، وانتشرت اللغة العربية بين أهل العلم ، ولكن ألسنة أهل البلاد ظلت حية يتفاهمون بها الى الآن

٢ ــ العامة سكان المدن

هم نفر ممن يؤمون المدن من أهل المطامع وطلاب المكاسب ، بالتجارة أو الجندية او الأدب او الشعر ، وتقعد بهم نفوسهم عن اللحاق بأهل الهمم وأصحاب القرائح فيضطرون الى احتراف مايعيشون به مما لايحتاج لهمة أو رأى . ولو أردنا الرجوع الى أصول عامة بغداد مثلا لرأيناهم أخلاطا من مولدى العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والأرمن والجركس والأكراد والكرج والبربر وغيرهم ، ولكنهم يعدون عربا لتغلب اللغة العربية على ألسنتهم

وعامة المدن طبقتان : الطبقة الأولى المرتزقون بالصناعة والتجارة ، وهم طائفتان : (١) الصناع أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين

والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من اصناف المأكولات على أنواعها وبعض المنسوجات والسلع الصغيرة . وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الأقمشة والطحين والخضر ونحوها

والطبقة الثانية رعاع يرتزقون من النهب واللصوصية ، وهم أصناف كثيرة نشأت فى بلاد الاسلام على أثر الفتن والانشقاق بين أهل الدولة لا يستطيع اهل هذا الجيل تصور أمثالهم لبعد ذلك عن مألوفهم — الا الذين ادركوا متشردى بيروت المعروفين بالزعران ، وهم طائفة من أهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتحرش بأبناء السبيل . والزعران مثال صغير لرعاع ذلك العصر ، فقد كان فى بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواقيل ونحوهم ، كثيرا مااستفحل أمر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم فى بعض حروبها

والسبب فى ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الأول ، بمن دخل فيها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لأنفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه فى الأجزاء الماضية ، ولاسيما الجزء الرابع . ولا يخفى ماتجر اليه الفتن من وقوف الاعمال وغلاء الاسعار ، غير ماكان يرتكبه الحكام انفسهم من خزن الأقوات ، فتقل ارزاق العامة فيعمدون الى التعدى ويؤلفون عصابات لمناوأة أصحاب الأموال من التجار وغيرهم فى المدن ، ولا سيما بغداد أم المدائن الاسلامية فى ذلك العهد . فكان الرعاع يتكاثرون ويزدادون تعديا ، والحكام فى شاغل عنهم والخسارة معظمها على الأهالى . وتوالى ذلك أعواما حتى خربت مدينة السلام وأم حضارة الاسلام . ولا يمكن الالمام بكل طوائف الرعاع فنذكر أشهرها :

العيارون

ظهر العيارون ببغداد فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، وكان لهم فى الفتنة بين الأمين والمأمون شأن كبير ، لأن الامين لما حوصر فى تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين ، وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم المآزر وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقا من الخوص والبوارى قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل . ونظموهم نظام الجند على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ماتحت يده . ومعهم اناس عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصدف الأحمر والأصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب . وبلغ عددهم يومئذ خمسين ألف عيار (١) وساروا للحرب يضربون

---

(١) المسعودى ٢١٨ ج ٢

الاعداء بالمقلاع والحصى ، وكانوا أهل مهارة فى ذلك فأبلوا بلاء حسنا، لكنهم لم يثبتوا أمام المجانيق والجنود المنظمة ، فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير ، وفيهم يقول الشاعر :

خرجت هذه الحروب رجالا ... لا لقحطان ولا لنزار
معشر فى جواشن الحصر يعدو ... ن الى الحرب كالليوث الضوارى
ليس يدرون ما الفرار اذا الأب ... طال عاروا فى القنا للفرار
واحد منهم يشد على الفي ... ن عريان ماله من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطع ... نة خذها من الفتى العيار

وحدث نحو ذلك من العيارين فى حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١ هـ اذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الأمين فيها ، فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم عريفا اسمه ينونه وعمل لهم تراسا من البوارى المقيرة واعطاهم المخالى ليجعلوا فيها الأحجار . على أنهم كانوا كلما حدثت فتنة أهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهموا بالمنازل والحوانيت واخذوا الأموال . وكثيرا ماكانت تحدث أمثال هذه الفتن فى بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده (١)

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفا ، وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها اما بين الحكام فى التنازع على السلطة أو الاموال، واما بين العامة تعصبا لبعض المذاهب ولاسيما بين السنة والشيعة أو الحنفية . فلم ينقض النصف الأول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد ، وجبوا الاسواق واخذوا ماكان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة أو الجند ، واشتهر من رؤسائهم فى ذلك العصر رجل اسمه الطقطقى وآخر اسمه الزيبق (٢) بطل القصة المشهورة

وظهر العيارون فى سائر المدن الاسلامية وعظم شأنهم ، وكثيرا ما كان الوزراء وغيرهم من أرباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم (٣)

الشطار

هم طائفة أخرى من الرعاع كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بأزرة الشطار(٤) وكانوا أكثر انتشارا فى المملكة الاسلامية من العيارين واطول بقاء منهم ، وظهروا فى الأندلس ولهم فيها نوادر

---

(١) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥ — ١٥٠ ج ٩
(٢) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٩
(٣) ابن الاثير ٤١ ج ١١
(٤) الاغانى ٩١ ج ٦

وتنكيتات وتركيبات واخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الثكلى (١) على ان اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد ، فهم يعرفون فى العراق بالشطار ، وفى خراسان يسمونهم سرا بداران ، وفى المغرب الصقورة ، وسماهم ابن بطوطة « الفتاك » وذكر تفشيهم فى أيامه (القرن الثامن للهجرة) واشار الى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم فى نواحى سبزوار ، حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا احدهم سلطانا عليهم ، وانحاز اليه العبيد يفرون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء أعطاه ذلك السلطان مالا وفرسا ، واذا ظهرت منه شجاعة أمره ، الى آخر ما ذكره (٢)

ولم يكن الشطار وغيرهم من أهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة ، وانما كانوا يعدونها صناعة ويحللونها باعتبار أن مايستولون عليه من أموال التجار الاغنياء زكاة تلك الأموال التى أوصى باعطائها للفقراء (٣) وكان أولئك اللصوص اذا شاخ أحدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة فى مساعدتها على كشف السرقات . وكان فى خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم « التوابون » ، على أنهم كثيرا ماكانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون أمرهم (٤)

طوائف اخرى من الرعاع

وهناك طوائف اخرى من رعاع العامة أو من فى معناهم ، تكاثروا فى عصر الاضمحلال بالمملكة العباسية ، كالصعاليك والزواقيل والحرافيش وغيرهم ، كان طلاب السلطة يستعينون بهم فى حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف فقد كان مع أبى دلف عشرون ألفا من الصعاليك (٥)

ويدخل فى معنى هذه الطوائف ممن تجمهروا للارتزاق بالتعدى على أصحاب الأموال العبيد ، وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت . فلما اختلت الأحوال وضعف أسيادهم ذهبت الهيبة من قلوبهم حتى اذا سنحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين . وربما انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها ، كما فعل صاحب الزنج فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، فانه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية ، وكان فى ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباخ ، فدعاهم الى النهوض معه على أن يحررهم من الرق ويريحهم من التعب ، وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الأرقاء البيض (المماليك الأتراك) يتمردون على الخلفاء

---

(١) نفح الطيب ٧٦٦ ج ٢
(٢) رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج ١
(٣) الجزء الرابع
(٤) المسعودى ٣٣٥ ج ٢
(٥) ابن الاثير ٦٩ ج ٧

فاقتدوا بهم . فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها ، حتى استفحل أمرهم وضربوا أسيادهم بالسياط (١) واجتمع منهم مئات الألوف ، وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا فى أثنائها ... ٢٥٠٠ نفس من الرجال والنساء والأطفال مما تقشعر له الابدان ، وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفرق أصحابه(*) . وأراد البجة بمصر أن يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا . وقد يعد من هذا القبيل أيضا الحشاشون ، وهم طائفة من الفوضويين ظهروا فى القرن الخامس للهجرة ، وجعلوا دأبهم الفتك بأهل السلطة غدرا ، وكان لهم شأن كبير فى تاريخ الاسلام (٢)

ومن طبقات العامة « المخنثون » ، وكانوا فى الحجاز قبل الاسلام ، وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على أثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال . وكثيرا ماكانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال . وكان أحسن المغنين منهم ، وقد تقدم خبر سليمان بن عبدالملك وما فعله بهم . وربما أشبهوا ماكان فى القاهرة من « الخول » من عهد غير بعيد . ولما انتشر الغناء فى المملكة الاسلامية انتشر المخنثون معه ، وتكاثروا فى بغداد والشام ومصر والأندلس وسائر المغرب . والأندلسيون اذا قالوا المخانيث قد يريدون المماليك الصقالبة

وفيما خلا ذلك فقد كان فى المدن من طبقات العامة مالا يحصيه عد ، من

---

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٧ والطبرى

(*) تعتبر ثورة الزنج اخطر ثورة اجتماعية عرفتها دول الاسلام فى المشرق ، وقد غابت اسبابها الحقيقية ومغزاها التاريخى عن مؤرخينا واهمهم الطبرى — فهو اكثرهم تفصيلا عنها — فهى فى نظرهم فتنة بشعة تولى أمرها أفاق من أهل الاجرام يسمى على بن أحمد يدعى الانتساب الى على بن ابى طالب رضى الله عنه . وقد يكون الرجل دعيا مشعوذا استغل الحركة استغلالا سيئا ولم يحسن توجيهها ، ولكن مبررات الثورة طبيعية ومعقولة ، فقد كان هناك آلاف من الزنوج يعيشون على شاطىء شط العرب مهمتهم كسح الطين الذى يحمله ماء النهر ويرسبه على الارض الزراعية ايام الفيضان ، وكان هذا الطين يعرف بالسباخ ، وكان يغطى التربة الصالحة للزرع ، فكان الناس يستخدمونهم فى كسح هذا السباخ ولا يعطونهم من الاجر غير زاد ضئيل لايزيد على حفنة من دقيق وشىء من البلح لكل منهم فى اليوم ، وكانوا يعملون جماعات مابين ٥٠٠ الى ٥٠٠٠ زنجى . وكانوا يجعلون السباخ اكواما كالتلال الصغيرة حفروا لانفسهم فيها مساكن . وقد تحركوا قبل ثورتهم الكبرى مرارا ولكن احدا لم ينظر فى أمرهم ، حتى جاء على بن أحمد هذا وحرضهم على الثورة وتولى أمرهم وعرف بصاحب الزنج ، واستعان بما ادعاه من نسب علوى على ادراك ماطلب من رياسة . وقد بدأت الثورة سنة ٨٦٨/٢٥٥ واستمرت الى ٨٨٣/٢٧٠ وتفاقم امرها حتى هددت بغداد ، وكان الخليفة اذ ذاك هو المعتمد وقد غلب عليه وتولى أموره اخوه الموفق طلحة . وقد تمكن الموفق بعد عناء شديد من القضاء على هذه الفتنة . ولم يكن الزنج وحدهم فيها ، بل انضمت اليهم جماعات من الزراع عرفت بالفراتية والقرماطية ونفر من النوبيين . ومن طوائف الشيعة من يرون فى صاحب الزنج اماما من أئمتهم ، ولهم فيه وفى حركته تواليف

انظر : الطبرى ، طبعة اوروبا ج ٣ ص ١٧٤٢ — ١٧٨٧ و ص ١٨٣٥ — ٢١٠٣

نهج البلاغة بشرح ابن ابى الحديد ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ص ٣١٠ — ٣٦٢

وانظر مادة زنج فى دائرة المعارف الاسلامية بقلم لوى ماسينيون

(٢) الهلال ص ٨٣ سنة ١٠

أهل الاحتيال للمعايش بأساليب الخداع والشعوذة أو نحوهما ، ولكل صنف من هذه الأصناف اسم خاص . وربما زاد عددها جميعا على عشرين نوعا ، كقولهم المخطرانى والكاغانى والبانوان والقرسى والعواء والمشعبذ والفلور والاسطيل والمزيدى (١) وغيرهم .

أخلاق العامة

فالعامة فى المدن أخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى وصناعات شتى ، وهم جهال أتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول . وسئل الامام على عن العامة فقال : « همج رعاع أتباع كل ناعق » . وقال الفضل ابن يحيى : « الناس أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط الحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء ، لكع لكاع وربيطة اتضاع ، هم أحدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للأحنف : صف لى الناس ، فقال : « رءوس رفعهم الحظ ، وأكتاف عظمهم التدبير ، وأعجاز أشهرهم المال ، وأدباء الحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم أشباه البهائم : ان جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » هذه هى آراء خاصة تلك الأيام فى عامتهم

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقربونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعتهم الكبرى ، ولا غرو فانه أكبر أسباب سعادتهم ، ولهذا السبب رأيتهم شديدى التعلق بالخليفة اذا أظهر التقوى ، لما فى منصبه من الصبغة الدينية ، وهو رئيسهم وامامهم ، فكانوا له عضدا قويا ، ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذى ذهبت فيه ، لأنهم كانوا كثيرا ماينهضون لنصرته على القواد والوزراء اذا أرادوا خلعه . وأكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه ، ولو سئل أحدهم عن اعتقاده لما أحسن الجواب ، فضلا عن بساطتهم وسذاجة أفكارهم وجهلهم سائر الأمور

ذكروا من دهاء معاوية فى مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة أن رجلامن أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق فى حال منصرفهم عن واقعة صفين ، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال : هذه ناقتى أخذت منى فى صفين ! فارتفع أمرهما الى معاوية ، وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير اليه ، فقال الكوفى : « أصلحك الله ، انه جمل وليس بناقة .. » فقال معاوية : « هذا حكم قد أمضى » ودس الى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع

---

(١) كتاب البخلاء ص ٣٧ . وقد فسر الجاحظ فى ذلك الموضع معانى هذه الالفاظ

اليه ضعفيه وبره واحسن اليه وقال له : « أبلغ عليا انى أقابله بمائة الف مافيهم من يفرق بين الناقة والجمل »

وبلغ من أمرهم فى طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء ، واعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو ابن العاص أن عليا هو الذى قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته . ثم ارتقى بهم الأمر فى طاعته الى أن جعلوا لعن على سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير

وذكروا عن عامة بغداد فى ابان التمدن الاسلامى أن رجلا منهم رفع الى بعض الولاة وشاية برجلٍ من علماء الكلام زعم انه يتزندق ، فسأله الوالى عن مذهب الرجل فقال : « انه مرجىء قدرى اباضى رافضى ، يبغض معاوية بن الخطاب الذى قاتل على بن العاص ! » فقال له الوالى : « ما أدرى على أى شىء أحسدك ، على علمك بالمقالات أو على بصرك بالانساب .. »

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون فى بغداد للمناظرة فى أبى بكر وعمر وعلى ومعاوية ، وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى أكبرهم لحية ذات يوم لبعض الباحثين وقال له : « كم تطنبون فى على ومعاوية وفلان وفلان ! »

فقال له الرجل : « فما تقول أنت فى على ؟ »

قال : « أليس هو أبا فاطمة ؟ »

قال : « ومن هى فاطمة ؟ »

قال : « امرأة النبى عليه السلام .. بنت عائشة أخت معاوية ! »

قال : « فما كانت قصة على ؟ »

قال : « قتل فى غزاة حنين مع النبى ، وقد كان عبد الله بن على حين خرج فى طلب مروان الى الشام . وكان من قصة مروان ومقتله ماقد ذكر . ونزل عبد الله بن على الشام ، ووجه الى أبى العباس السفاح أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبى العباس السفاح أنهم ماعلموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية حتى وليتم الخلافة » (١) (*)

---

(١) المسعودى ٥٢ ج ٢

(*) وهذه كلها من مبالغات المسعودى فى « مروج الذهب » ، وربما كانت حكايات صنعها ناس للتندر بها ، وظاهر ان التخليط فيها معقد تعقيدا يدل على ان صانعه من اهل العلم . وقد كان رأى المفكرين فى العامة سيئا جدا فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب

أولئك هم العامة فى كل زمان ومكان ، وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم ، لأنهم معظم الرعية وبهم تجبى الأموال ومنهم تتألف الجنود ، فمـن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ، ولا يجتذب قلوب العـامة مثل الدين ، فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة المطلقة وتولى أمور الناس أكثرهم دهاء وأقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى

الآداب الاجتماعية

آداب العرب فى الجاهلية

نريد بالآداب الاجتماعية مايدور بين الناس من المعاملات الأدبية والأمور الاعتبارية فى هيأتهم الاجتماعيــة ، وما يتبادلونه من العلائق العــائلية على ما تقتضيه عاداتهم واخلاقهم وطبائع اقليمهم . واساس تلك الآداب فى التمدن الاسلامى ما كان عند العرب قبلَ الاسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم ، فنقدم الكلام بتمهيد فى هذا الشأن

مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ضروب معايشهم وأطوار تمدنهم وطبائع اقليمهم ، فللبدو مناقب غير مناقب الحضر ، ولأهل القرى آداب تختلف عما لأهل المدن ، وأهل الاقاليم الحارة آدابهم تخالف آداب أهــل الأقاليم الباردة ، جريا على مايقتضيه ناموس الارتقاء من التناسب بين طباع القوم وطبائع اقليمهم ، لئلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء

فأهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلا اكثر مما يحتاج اليها المتمدنون ، لتفرد البدوى عن المجتمع وتوحشه فى الخلاء وبعده عن الحامية وانتباذه عن الأسوار ، ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائما يحملُ السلاح وينفــرد فى القفر واثقا بنفسه ، فصارت الشجاعة سجية له . بخلاف أهــل المــدن الذين القوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا فى الترف ، ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أعراضهم وأموالهم وانفسهم الى واليهم والحامية التى تولت حراستهم ، واستناموا الى الأسوار التى تحوطهم فهم آمنون قد القوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم ، فأصبح الجبن طبيعة فيهم . اعتبر ذلك بسائر مايغلب فى طباع أهل البدو كالعصبية والكرم والوفاء والأنفة والنجدة وغيرها مما تســتلزمه البداوة ولا تستقيم الا به على ما سنبينه : (*)

١ ـ العصبية

هى أظهر طبائع البدو واعمها ، وقد فصــلنا أسبابها وشروطهــا وسائر أطوارها فى الجزء الرابع

(*) مرجع المؤلف هنا مقدمة ابن خلدون فى مقارناته المعروفة بين البدو والحضر

٢ ــ الشجاعة

البدو يعيشون غالبا بالغزو ، وهم دائما فى قتال أو يتأهبون لقتال، فالشجاعة شرط من شروط بقائهم . وقد كانت غالبة فيهم ، يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجعان ، واشتهر فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة فى الجاهلية والاسلام، كعمرو بن معديكرب ، وربيعة بن المكدم ، ودريد بن الصمة ، وعروة بن الورد ، وعنترة العبسى ، وملاعب الاسنة ، وعامر بن الطفيل ، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، والمقداد بن الأسود ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم . واشتهرت نساؤهم بالشجاعة أيضا ، كما سيجىء فى كلامنا عن المرأة

٣ ــ الكرم

وهو من مناقب أهل البادية ، اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدوى فى أسفاره منفردا ، وقد يبتعد عن مضربه أياما فى بادية لا طعام فيها ولا ماء ، فاذا لم يجد من يقريه ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيفان ، واصبح الكرم من أفضل المناقب عندهم ، شأن سائر أجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون الى المغالاة فيها ، حتى أوقدوا نارا بجانب مضاربهم يهتدى بها المارة ليلا يسمونها نار القرى ، وبالغوا فى احترام الكرماء ترغيبا للناس فى هذه الفضيلة لافتقارهم اليها . فأصبح الاسخياء يبالغون فى ذلك ويكثرون من النيران ، فاذا اشتد البرد أو هبت الرياح فعجزوا عن ايقادها ، فرقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها الى العمد لتستوحش فتنبح ، فيهتدى الأضياف على نباحها . ولذلك كان من أسماء الكلب عندهم « داعى الضمير ، ومتمم النعم ، ومشيد الذكر » . وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها ، ومن أكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان ، كان الرجل يستظل فى ظلها (١)

واشهر الكرماء فى الجاهلية حاتم الطائى ويضرب المثل بكرمه ، فيقال للمبالغة فى مدح كريم : « انه أكرم من حاتم طى » . ومنهم كعب بن مامة الايادى ، وهرم بن سنان ، وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصرا على الضرورى من حاجات الانسان ، كالطعام والشراب واللباس لبساطة أحوالهم ، وربما جادوا بالابل أو الماشية . فلما ظهر الاسلام وكثرت أموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سترى

---

(١) الف باء ٨٣ ج ٢

٤ ـ الوفاء

لما كان الغدر سهلا على البدوى ، لامكانه الفرار من القصاص والايغال فى البادية ، حيث لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمة وازع يخيفه أو جند يقبضون عليه ، ولا هناك دين يزجره مما يفضى الى ضياع الحقوق وفساد الأحوال ، جعلوا يرغبون الناس فى الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله ، فرغب الناس فيه وأصبح بتوالى الأجيال خلقا لهم ، وصاروا يأنفون من اخلاف الوعد ويشهرون بمرتكبه ويبالغون فى الثناء على أهل الوفاء

٥ ـ الاستقلال

لا شىء أحب الى أهل البادية من الاستقلال ، ولاسيما الرحل فانهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقيد بشىء ، حتى المكان فهم لا يتوطنون صقعا بل يجعلون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام . وهم لايحملون ضيما ولا يصبرون على ظلم . وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت فى اقوالهم وأفكارهم ، ونشأوا على الأنفة وعزة النفس واباء الضيم . ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم فى صدر الاسلام ، اذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس ، والخلفاء لايرون بأسا بذلك لانه كان طبعا مألوفا فيهم ؟

٦ ـ النجدة

هى من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة ، وبينهما تناسب من حيث اغاثة الضعيف ، فاذا استنجدت البدوى على أمر انجدك ولو بذل نفسه فى هذا السبيل . وتظهر نجدتهم على الخصوص فى الجوار وحمى الذمار ، وقد فصلنا ذلك فى الجزء الرابع

٧ ـ الاريحية

وقد وصفنا هذه المنقبة وصفا مختصرا فى الجزء المذكور ، وهى من مناقب أهل النجدة والفروسية التى يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها الى الافتخار بحسن الأحدوثة ، ولما كان العرب أهل خيال وذوى نفوس حساسة كان للأريحية عندهم شأن كبير ، فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعده ، وربما تجردوا للحرب نقمة على عبارة تطعن فى شجاعتهم أو كرمهم أو وفائهم . وكانوا يتأثرون على الخصوص من أقوال النساء مدحا أو طعنا فيبذلون مافى وسعهم التماسا لثنائهن ، وكثيرا ماكان ذلك سببا فى ابتعادهم عن الرذائل ، وربما تعرض بعضهم للقتل خوفا من استخفافهن ، وفى أخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك

٨ ـ الثأر

وكما ينجدك البدوى اذا استنجدته فهو لا يصبر عن الاخذ بثأره اذا أسأت

اليه ، واذا قتل رجل من قبيلة رجلا من قبيلة أخرى نشأت العـــداوة بين القبيلتين ، فتقوم الموتورة منهما للأخذ بثأرها ولا تنفك حتى تقتل من الاخرى من هو كفء لقتيلها أو يتصالحوا على الدية . ومن أشهر حوادث الثأر فى الجاهلية الحرب التى اثارها المهلهل بن ربيعة للأخذ بثأر أخيه كليب ، فأصبح المهلهل مثلا فى ذلك فيقولون : « فلان آخذ للثأر من المهلهل » لأنه حلف منذ طلب الثأر أنه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولايقرب النساء الا بعد نيل مرامه

٩ ـ الشيخوخة

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع ، ولفظ الشيخ يدل عنـدهم على الشيخوخة والرئاسة معا . وكانوا اذا تساوت المناقب فيمن يرشـحونه للامارة فضلوا أكبرهم سنا ، كما فعلت قريش فى حرب الفجار الثانية (١) ولما جاء الاسلام وأحدث ما أحدثه من المناقب الدينية ، كانت هذه المناقب فى جملة مافضلوه على السن ، فاذا تساوت كلها فى المترشح للامارة فضلوا أكبرهم سنا ، عملا بالحديث النبوى بشأن الامامة : « يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله تعالى ، فان كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فان كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فان كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سنا » (٢)

المرأة فى الجاهلية

اختلفت الآراء فى حال المرأة العربية فى العصر الجاهلى ، ولا مشاحة أنهـا كانت على الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس ، وعفتها من ثمار حب الاستقلال والأنفة ، لأن المرأة التى تشب على استقلال الفكر واباء الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على المرأة الناشئة فى مهاد الذل المغلولة بأغلال الحجاب . ويقال نحو ذلك فى غيرة رجالهم على العرض ، فانه من مستلزمات العفة والأنفـة والاستقلال ، لأن الرجل الانوف اذا تعود العفة من امرأته يعظم على طبـاعه احتمال مايمس عرضها من قول أو فعل . وتزداد غيرته عليها اذا كانت وحيدة لم يحب سواها ، كما كان حال العرب فى الجاهلية لقلة الجوارى يومئذ ومشقة الحصول على النساء ، مع حاجة البدوى الى امرأته فى تدبير شؤونه واعانته فى أسفاره وأعماله

الوأد

وبلغ من غيرة بعضهم فى الجاهلية ان يقتلوا بناتهم أو يئدوهن ، لئـلا يرتكبن

(١) الجزء الاول
(٢) مشكاة المصابيح ١٠٠

ما يجر عليهم العار . ولم يكن الواد عاما فى قبائل العرب ، ولا كان قديما عندهم ، وانما حدث قبيل الاسلام . وكان منحصرا فى بعض بنى تميم بن مر ، ظهر فيهم لسبب طرأ عليهم ــ ذكروا انهم كانوا يؤدون الاتاوة (الجزية) الى النعمان ملك الحيرة ، فمنعوها سنة من السنين فجرد عليهم النعمان كتائبه وساق أنعامهم وسبى ذراريهم ، فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون أهلهم وأموالهم فأبى ، فقالوا : « أمطنا النساء » فقال : « اننا نخيرهن فى الذهاب أو البقاء » واعلن « ان كل امرأة اختارت أباها ردت اليه . وان اختارت صاحبها تركت عليه » فكلهن اختارت أباها الا ابنة قيس بن عاصم كانت قد أحبت عمرو بن المشمرج فاختارت البقاء عنده ، فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها (١) وربما اقتدى به بعض أهله أو أهل قبيلته . وكان بعض الغيورين من العرب لا يزوج بناته غيرة عليهن ، وأشهرهم ذو الاصبع العدوانى فكانت له أربع بنات منعهن الزواج وهن يردنه فى حديث طويل ذكره المبرد(٢) ولم يطل زمن الوأد عند العرب ، لأنه مخالف لأحكام العقل ومباين لعواطف الوالدين . فما لبث أن ظهر صعصعة بن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات (٣) حتى بطل الوأد (*)

---

(١) الكامل للمبرد ٢٧٨

(٢) الكامل ٣١٦

(٣) الف باء ٢٠ ج ٢

(*) لم تكن الغيرة على النساء هى الدافع الوحيد لوأد البنات ، بل قد يدفع اليه الفقر والرغبة فى التخلص من تكاليف تربية البنات ، وهذا ظاهر من قوله تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » (الاسراء ٣١) وقد يكون سببه دينيا ، أى تقديمهن قربانا للآلهة ، وذلك ظاهر من قوله تعالى فى سورة الانعام آيات (١٣٧ ــ ١٤٠) : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله مافعلوه ، فذرهم وما يفترون ... قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين .» ومن المعروف أن التقرب بالابناء الى الآلهة كان معروفا عند الجاهليين

وظاهر أن مايرويه المؤلف عن الاغانى (ج ١٢ ص ١٤٤) من أن أصل الواد قصة بنت قيس ابن عاصم مجرد قصة من صنع القصاص ، لان الواد كان منتشرا فى قبائل أخرى غير تميم ، فيروى الميدانى عن الهيثم بن تميم انه « كان فى قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الاسلام وقد قل الا فى بنى تميم » . ويذكر القرطبى فى تفسيره ان الواد كان فى مضر وخزاعة . وظاهر من الآيات القرآنية انه كان معروفا فى الحجاز ، وكانت البنت توءد بمجرد ميلادها أو فى سن السادسة ، والاغلب أن وأدهن فى السن الاخيرة كان لسبب دينى . ومن الطريف ان الآباء كانوا لايقومون بعملية الواد ، بل يتركون ذلك للنساء ويرغمونهن على فعله ، فيخرج الرجل بعد ان يهدد زوجه بأشد الوعيد اذا هو عاد ولم يجد البنت قد ووريت التراب ، قال محمد بن حبيب النسابة فى كتابه « المحبر » : (ص ٣٩٨) : « فتخد فى الارض خدا وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها ، ثم يتداولنها ، حتى اذا ابصرن به راجعا دستها فى حفرتها ثم سوت عليها التراب . وكان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيى جارية وتئد اخرى » . وكان العقلاء ينفرون من الواد ، وقد تصدى الكثيرون لفدائهن ، حتى لقد روى محمد بن حبيب ان جد الفرزدق الشاعر اشتري اربعمائة جارية واربع جوار (أى بنات) وفداهن

وكان للمرأة فى الجاهلية شأن وارادة ، وكانت صاحبة أنفة ورأى وحزم ، فنبغ غير واحدة منهن فى السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما فى أوائل الاسلام على اثر ماحصل من النهضة فى النفوس والعقول ، فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال ، وأكثرهن فى المدينة مقر الخلافة الاسلامية فى ذلك العهد

فاللواتى اشتهرن فى الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس ،منهن سلمى بنت عمر احدى نساء بنى عدى بن النجار ، فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال الا وأمرها بيدها ، اذا رأت من الرجل شيئا تركته . على أن الغالب فى نساء الجاهلية أن يخيرن قبيل الزواج ، فلا يزوج الرجل ابنته الا بعد أن يشاورها (١) واشتهرت التميميات من نساء قريش بحظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم (٢) ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة فى أثناء الغزوات . ففى معركة أحد وقع لواء قريش فى ساحة القتال ، فلم يزل صريعا حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها (٣) • وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان فى تلك المعركة مالم تفعله الرجال ، فجمعت اليها نسوة أخذن فى أيديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهى تنشد فى تحريضهم على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تنظر جثث القتلى حتى وجدت بينها جثة حمزة عم النبى ،فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت صخرة وأنشدت أشعارا تفخر بالفوز على المسلمين (٤)

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء ، وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الانصارية ، وأم حكيم بنت الحارث ، والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن (٥)

ونبغ بالرأى والحزم غير واحدة ، أشهرهن أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال ، تنتقى من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم اياه بشىء تجعله لهم . ولما سمعت بشهرة النبى قبل الدعوة بالأمانة وكرم الاخلاق ، بعثت اليه أن يخرج فى مالها تاجرا الى الشام وتعطيه أفضل ماكانت تعطى غيره من الرجال،

---

(١) الاغانى ١٤٩ ج ٩ و ٢٠٨ ج ١٨
(٢) الاغانى ٢٠٣ ج ١٨
(٣) الاغانى ١٧ ج ١٤
(٤) الاغانى ٢٠ ج ١٤
(٥) الف باء ٢١٠ ج ٢

فلما أفلح فى تجارته عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها . وهى أول من أسلم ، وقد نشطته للقيام بالدعوة ، فكان لايسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه أو تكذيب له فيحزنه ويخبرها به الا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه ، وما زالت على ذلك حتى ماتت

آداب العرب فى صدر الإسلام

الآداب الاجتماعية
فى العصر الاسلامى العربى

ينقضى هذا العصر بانقضاء دولة الأمويين فى الشام سنة ١٣٢ هـ ، وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر فى الجزء الرابع أنها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربى . وكذلك الآداب الاجتماعية ، فقد كانت لا تزال عربية بدوية ، أو هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة ، حاول العرب فيه البقاء على ما ألفوه فى جاهليتهم من المناقب التى تقدم ذكرها ، كالوفاء والجوار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة. وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب ، حتى غلبت على معظمها فى أواسط العصر العباسى

ويقسم العصر الاسلامى العربى الى : أيام الراشدين ، وأيام الأمويين . فنذكر الآداب الاجتماعية فى كلّ منهما على حدة

١ ـ الآداب الاجتماعية فى عصر الراشدين

قلما أصاب المناقب البدوية تغيير فى عصر الراشدين ، الا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه ، فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون ، واجتمع العرب من قحطان وعدنان فى ظلّ الاسلام ، وأصاب الكرم فى ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولاسيما عمر بن الخطاب ، فانه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق ، واذا علم انه كسب مالا من غير راتبه شاطره اياه ، وكذلك كان على بتدقيقه فى محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال الا لمن استحقه من أهل العطاء ، فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش فى أيامهم . وكان الصحابة يومئذ يقلدون الخلفاء فى هذا التدقيق ، وهو مخالف للسخاء والبذل ، حتى اتهموهم بالبخل وما هو بخل ، ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذى حق حقه

أما مابقى من مناقب العرب فظلت على نحو ماكانت عليه ، وبعضها زاد تمكنا فى نفوسهم ، كالوفاء والنجدة والعفة والأنفة ، لان الاسلام زادها رونقا وقوة بالعدل والتقوى ، فكان الخليفة أو أميره اذا وعد وفى ، واذا عاهد أنجز ، لا يثنيه عن ذلك طمع أو خوف . اعتبر ماكان من وفائهم لأهل الذمة ، اذ عاهدوهم على أن يحموهم ما أدوا الجزية . فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاغل

ردوا الجزية الى أصحابها واعتذروا (١) ولو لم يردوها ماطالبهم بها أحد ، وانما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم . والشجاعة كانت سائدة فى ذلك العصر ، لما كانوا فيه من الحاجة اليها فى الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب ، ولاسيما الاستقلال والحرية فانهما زادا قوة فى صدر الاسلام ، لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، حتى أصبحوا يخاطبون الخليفة أو الأمير بجسارة وأنفة كما يخاطبون بعض أقرانهم، واذا رأوا فيه اعوجاجا هددوه أو عنفوه وأصلحوه ، فاذا لم يطعهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان . وكثيرا ماكان المسلمون يحصبون أميرهم وهو يخطب فيهم ، اذا أنكروا شيئا من أقواله أو أعماله

المرأة فى عصر الراشدين

أما المرأة فاتجهت قواها فى صدر الاسلام الى سداد الرأى ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والانفة ، فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثال منهن عائشة أم المؤمنين ، فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة ، حتى رأست حزبا كبيرا من الصحابة وروت أحاديث كثيرة هامة

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابى الشهير ، كانت مفرطة الجمال تقيم فى المدينة ولها عقل ورأى وعلم واسع بأخبار العرب وأيامها وفى مطالع الكواكب وأحوالها . وكانت مع جمالها لا تستتر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيرا ما كانت تجلس فى قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها . وكانت اذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة ، وكان لها موكب لم يسمع بمثله فى عصرها مؤلف من عدة مواكب ، وآحد لماشطتها وآخر لخازنتها وآخر لكل من كبار أتباعها . أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهوادج (٢)

وسكينة بنت الحسين بن على ، وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة فى المدينة وتسميان عقيلتى قريش (٣) وكانت عفيفة برزة تجالس الاجلة من قريش ويجتمع اليها الشعراء ، وتأذن للناس اذنا عاما حتى تغص الدار بهم فتأمر لهم بالأطعمة ، ثم تطرح على الشعراء الأسئلة فى الشعر والادب وتنتقد أقوالهم وتجيزهم ، وخبرها فى ذلك مشهور (٤)

وأسماء بنت أبى بكر ، المعروفة بذات النطاقين وهى أم عبد الله بن الزبير ،

---

(١) الجزء الاول
(٢) الاغانى ٦٠ ج ١٠
(٣) العقد الفريد ٢٥٤ ج ٢
(٤) الاغانى ١٧٣ ج ١٤

وفى مراجعة قولها لابنها هذا لما يئس من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتحريضها اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها (١)

ونبغ بالشعر فى ذلك العصر عدة نساء ، كليلى الاخيلية والخنساء المتقدم ذكرها والفارعة المرية . واشتهر فى البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة أو المذاكرة على غير ريبة ، فاذا توسمت فى أحدهم انحرافا منعته واحتجبت عنه . كما اتفق لأبى دهبل الجمحى مع عمرة الجمحية ، وكانت امرأة جزلة يجتمع اليها الرجال لانشاد الشعر ، وكان أبو دهبل من أشراف بنى جمح وكان لايفارق مجلسها ، وكانت تحبه وتتقدم اليه فى كتمان حبها ، فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئا عن أبى دهبل وأنه يقول انها عاشقة له ، فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضربت حجابا بينها وبينهم (٢)

ولما نضج التمدن الاسلامى اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه فى الأجزاء الماضية

٢ ــ الآداب الاجتماعية فى عصر الامويين

أصاب المناقب العربية فى الدولة الاموية تغيير يختلف عما أصابها فى عصر الراشدين باختلاف أحوال الدولتين . فالأمويون لما جعلوا همهم الرجوع الى ماكان لهم من السيادة فى الجاهلية اغفلوا كل ما يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى ، واستبقوا مايتوسمون منه نفعا لغرضهم ــ فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الأحزاب فنشطوه وتسابقوا اليه ، فزادوا الأعطية وفرضوا الجوائز وأقاموا بيوت الضيافة ، واكثروا من السخاء على رؤساء الاحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على مابيناه فى باب السخاء

والشجاعة لم يكن لهم بد منها فقربوا أصحابها . والعصبية كانت ملجأهم الأكبر فى مناوأة أعدائهم من شيعة على وغيرهم ، فبعد أن ضعفت فى عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها أعادها الأمويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام

أما الوفاء فكان عثرة فى طريق أغراضهم ، لما كانوا يعلمونه من حق مناظريهم فى الخلافة وقوتهم فلجأوا الى الغدر والفتك . وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سرا ويموه غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الأسلوب . فتدرج الخلفاء بعده من بنى مروان الى الغدر جهارا ، وأول من فعل ذلك عبد

(١) ابن الاثير ١٩١ ج ٤
(٢) الاغانى ١٦٥ ج ٦

الملك بن مروان (١) وجرى عمالهم على هذه الخطة وأفرطوا فيها ، فاشتهر بها منهم زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم

تقييد الافكار فى أيام بنى امية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون فى مقاومتهما وقيدوا الالسنة بارادتهم تقييدا شديدا ، فكان ذلك عظيما على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية ، فعاقبهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال أفكارهم بالعذاب الشديد . ومن لم يستطيعوا مقاومته جهارا قتلوه سرا ــ بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة فى الشام ، وقد جرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته فى ارضاء أهله ونصرتهم ، ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد أبى ذر الغفارى ونفيه ، لأنه جاهر باستبداد أهل الدولة بأموال المسلمين (٢)

فلما أفضت الخلافة الى معاوية لم ير بدا من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية ، واستعمل الشدة فى ذلك فقتل حجر بن عدى وعمرو بن الحمق وأصحابهما ، لأنهم قالوا بحرية ضمير ان عليا لا يجوز لعنه على المنابر (٣) فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا يتعودون السكوت عن الحق ، ثم لجأوا الى التمويه والرياء حتى فى المشهور الثابت ، كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فأطرى عمل معاوية حتى قال : « انك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها » . ولكن الحرية كانت لا تزال حية فى نفوس أهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى أهل الدولة ، وربما كانت الدولة أحوج الى نصرتهم ، كالأحنف بن قيس التميمى فانه كان يقول الحق ولا يبالى ، وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ماقاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح . وأدرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال : « أخاف الله اذا كذبت وأخافكم اذا صدقت .. » (٤)

واقتدى بمعاوية من عاصره من الامراء أو جاء بعده من الخلفاء ، فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق ، وكثر أهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالى الأعوام

النجدة والاريحية فى أيام بنى امية

أما النجدة والأريحية فظلتا فى العصر الاسلامى العربى متأصلتين فى العرب ، وان اضطر الأمويون الى الاغضاء عنهما فى بعض الاحيان . أما على العموم

---

(١) الجزء الرابع
(٢) الجزء الثانى
(٣) ابن الاثير ٢٣٧ ج ٣
(٤) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١

فقد كانتا مرعيتين حتى عند أشد بنى أمية استبدادا وظلما ، وفى أخبارهم كثير من أمثلة ذلك ، منها انه جىء الى معاوية فى يوم صفين بأسير من أهـــل العراق فقال معاوية : « الحمد لله الذى أمكننى منك »

فقال الرجل : « لا تقل ذلك يامعاوية »

قال : « وأى نعمة أعظم من أن يمكننى الله من رجل قتل جماعة من أصحابى فى ساعة واحدة ؟ اضرب عنقه ياغلام »

فقال الاسير : « اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلنى فيك وأنك لا ترضى بقتلى، وانما يقتلنى فى الغلبة على حطام الدنيا ، فان فعل فافعل به ماهو أهله وان لم يفعل فافعل به ما أنت أهله »

فقال له : « ويحك ! لقد سببت فأبلغت ودعوت فأحسنت ... خليا عنـــــه »

وكان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى ، فقام أصغر القوم فقال له : « يامعن ، اتقتل الاسرى عطاشا ؟ » فأمر لهم بالماء ، فلما سقوا قال : « يامعن ، اتقتل ضيفانك ؟ » فأمر معن باطلاقهم ..

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم ، فقام فيهم شاب فقال : « والله ياحجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت بالعفو » فقـــال الحجاج : « أف لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يقول مثل هذا ؟ » وامسك عن القتل . وقس على ذلك (١)

وكثيرا ماكانوا يعرضون أنفسهم للقتل رغبة فى حسن الأحدوثة ، ولاسيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع أبيه فى مقاتلة محمد ابن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب أنه مقتول فأوعز الى ابنه عيسى أن يطلب النجاة فقال : « والله لاتتحدث نساء قريش انى خذلتك ورغبت فى نفسى عنك » فقال : « فاذهب انت ومن معك الى عمك فى مـــكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعنى فانى مقتول » قال : « لا أخبر عنك قريشا أبدا ، ولكن يا أبتى الحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو الحق بأمير المؤمنين » فقـــال مصعب : « لاتتحدث قريش انى فررت » وحاربوا حتى قتلوا (٢)

وظلت الأريحية مرعية فى أوائل الدولة العباسية ، فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها اليه أحدهم استنهض بها أريحيته فى العفو عنهم(٣) ولما عزم المأمون على قتل ابراهيم بن المهدى ـــ وكان مصمما على قتله ـــ شاور

(١) العقد الفريد ١٤٠ ج ١ وابن خلكان ١١٠ ج ٢
(٢) الاغانى ١٦٣ ج ١٧ وابن الاثير ١٥٩ ج ٤
(٣) الاغانى ٢٣ ج ١٢

فيه أحمد بن أبى خالد الوزير فقال : « يا أمير المؤمنين ، ان قتلته فلك نظراء وان عفوت عنه فما لك نظير » (١) فعفا عنه

فلما ضعف العنصر العربى فى الدولة العباسية بعد تسلط الأجناد الاتراك ، وتحولت الاغراض فى أهل الدولة الى كسب الاموال بأية وسيلة كانت ، ذهبت الاريحية والنجدة ، على أن ذهابهما بدأ من أيام أبى مسلم الخراسانى .. فكم استنجدوه واستحثوه ولم يفعل الا مايوصله الى غرضه

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين وما بعده ، ولاتزال حتى الآن

المرأة فى عصر الامويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من أيام الأمويين ، لأن العفة والغيرة أصابهما فى ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجوارى والغلمان ، وانغماس بعض الخلفاء فى الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر ، فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المخنثون فى المدن ، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل ، فأخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة الناس . فقد رأيت أن المرأة كانت فى الجاهلية وأوائل الاسلام تجالس الرجال وتخاطبهم وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكرا (٢) ولا تخامرهم فيه ريبة، واذا توسم رجل من رجل نظرة الى امرأته أو أخته بريبة طلبه للمبارزة أو المجالدة أو المصارعة (٣) (الدويلو Duello) فيتصارعان حتى يصرع أحدهما صاحبه وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثانى (٤) ــ حتى الشعراء ، فقد كانوا لا ينظمون النسيب أو الغزل الا قليلا . ويقال ان امرأ القيس أول من شبب بالنساء (٥) ومهما يكن من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيرتهم ، على أنهم قلما شببوا بعد ذلك الا بحبيب أو خطيبة . وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم ، فاذا اتفق لأحدهم شىء من ذلك اشتهر أمره وذاع خبره، كما اشتهر العشاق والمجانين فى صدر الاسلام . وربما تعشق بعضهم رغبة فى شحذ قرائحهم الشعرية . على أن تشبيبهم فى كل حال لم يكن عن ريبة أو فاحشة (٦)

وكانوا يتفاخرون بالعفة وامساك هوى النفس ، وقد يجتمع الحبيبان بعد

---

(١) ابن خلكان ٩ ج ١
(٢) الاغانى ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧
(٣) الاغانى ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦
(٤) الاغانى ٧٤ ج ١٩
(٥) الاغانى ٦٧ ج ٢
(٦) المسعودى ١٢٢ ج ٢

طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعاتبان ويتحادثان ثم ينصرفان • وأشهر الناس فى ذلك بنو عذرة ، وأكثر عشاق العرب منهم (*)

التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشببون بغير خطيباتهم ، فاذا شبب أحدهم بفتاة قبل أن يخطبها منعوه منها (١) وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم ، فجعلوا التشبيب ذنبا يستوجب القصاص ، وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شبب بامرأة الا جلده (٢) ونظرا لقلة من يجسر على وصف النساء فى شعره كان الشاعر اذا شبب بامرأة اشتهرت فتتزوج ، ولذلك كان بعض الآباء يطلب من الشاعر أن يشبب ببناته ليتزوجن

فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقليمهم وطرق معايشهم أهل عفة ، والنساء يجتمعن بالرجال فى المجالس والأندية على غير ريبة • حتى فى الكعبة ، فكانوا يطوفون معا لا يرون بذلك بأسا لأن العفة كانت غالبة على طباعهم ، فلما جاءهم الترف وأخذوا بأطراف الحضارة وعمدوا الى التسرى والاستكثار من الجوارى تغيرت تلك الطباع • فلما كانت امارة خالد القسرى على مكة فى خلافة سليمان بن عبد الملك الأموى بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف ... وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتى يزاحمننا ... عند استلام الحجر الأسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء فى الطواف (٣)

(*) بنو عذرة قبيل صغير من قضاعة ، ونسبهم عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن اسلم بن الحاف بن قضاعة . وقضاعة نفسها مختلف فيما اذا كانت من قحطان أو عدنان . وكانت منازل بنى عذرة فى الحجاز قرب منازل نهد وجهينة وبلى ، وتجاورهم من الشمال غطفان ، ومركزهم وادى القرى وتبوك ، وامتدوا الى ايلة على شاطىء البحر الاحمر . وهناك قبائل اخرى تحمل اسم بنى عذرة ، ولكن هذه اشهرها ، وهى المعنية هنا . وقد بدأ رسول الله يكتب الى بنى عذرة داعيا اياهم الى الاسلام من العام الثانى للهجرة ، ولكن الغالب أن الاسلام لم ينتشر فيهم الا بعد فتح مكة ، وعلى اى الاحوال فقد اشتركوا فى موقعة مؤتة وقاتلوا الروم مع المسلمين

وقد اشتهر امر بنى عذرة بالحب النبيل والغزل البرىء ، وقد نسب اليهم هذا الحب فقيل حب عذرى ، وقد ذاع صيتهم بذلك لا فى الادب العربى فحسب ، بل فى الادب العالمى ، وللشاعر الالمانى هاينى قصيدة مشهورة عن بنى عذرة مطلعها : « أنا من اليمن ، واسمى احمد ، وأنا من قوم اذا احبوا ماتوا » ، وربما كان المراد بهذا عروة بن حزام الذى يلقب بقتيل الحب . وخير من يمثل هذا الحب من العذريين جميل بثينة . وتجد مجموعات من شعر العذريين فى كتاب الزهرة لداوود الاصفهانى (طبعة نيكل ، بيروت) ، ومصارع الاشواق للسراج ، وروضة المحبين لابن القيم ، وديوان الصحابة لابن ابى حجلة ، وتزيين الاسواق للانطاكى ، وطوق الحمامة لابن حزم.

وانظر مادة بنى عذرة بقلم ليفى دلافيدا ، ومادة عذرى بقلم لوى ماسينيون فى دائرة المعارف الاسلامية

(١) الاغانى ١٨١ ج ٢٠
(٢) الاغانى ٩٨ ج ٤
(٣) المسعودى ١١٦ ج ٢

وفى أيام بنى أمية تجرأ الشعراء على التشبيب بالنساء ، لا سيما فى المدينة بعد انتشار الغناء فيها واقبال أهلها على القصف واللهو . ومما زاد انكارهم للتشبيب أن الشاعر اذا نظم أبياتا تغنى بها المغنون فى مجالس الشراب . وأول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيون ، وأسبقهم الى ذلك ابن أبى عتيق حفيد أبى بكر الصديق ، وكان من أهل الطهارة والعفاف وانما كان يتشبب عن غير ريبة ، واقتدى به عمر بن أبى ربيعة وهو قرشى أيضا ، وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من أجرأ الناس على فاحشة ، وهو لم يحل ازاره على حرام (١) واقتدى به العرجى وهو من قريش أيضا (٢) ونبغ شعراء آخرون من غير قريش وأخذوا يشببون بالنساء رويدا رويدا

ولم يكن الخلفاء فى أول الامر راضين عن ذلك لتغلب البداوة على أخلاقهم، فأخذوا يقاومون تيار الترف بكل قواهم ، ولكنهم كانوا يدارون الشعراء رغبة فى اكتساب الأحزاب على أيديهم ، فلا يمنعونهم من التشبيب الا اذا مس عرضهم ، ومع ذلك فالدهاة منهم كانوا يتلطفون فى دفعهم . ومن لطيف ما يحكى من هذا القبيل أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شبب بابنة معاوية وهو خليفة فى ابان مجده ، وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على أبيه وقال : « يا أمير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان »

قال : « ولم ؟ »

قال : « شبب بأختى »

قال : « وما قال ؟ »

قال : « قال :

طال ليلى وبت كالمحزون ومللت الثواء فى جيرون » (٣)

قال : معاوية : « يابنى ، وما علينا من طول ليله وحزنه ؟ أبعده الله ! »

قال : « صدق يابنى ! »

فلذلك اغتربت بالشام حتى ظن أهلى مرجمات الظنون

قال : « يابنى ، وما علينا من أهله ؟ »

قال : « انه يقول :

هى زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون»

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١
(٢) الاغانى ١٥٤ ج ١
(٣) الاغانى ١٤٩ ج ١٣

قال : « صدق يا بني »

قال : « انه يقول :

واذا ما نسبتها لم تجدها　　في سناء من المكارم دون »

قال : « صدق يابني ، هي هكذا ! »

قال : « انه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ　　راء تمشي في مرمر مسنون»

قال : « ولا كل هذا يابني ! »

وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر أنه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه ، ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وأكبروا جسارته وقالوا : « لو جعلته نكالا » فقال : «لا ، ولكن آداويه بغير ذلك » • واتفق أن عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية وكان يدخل فيأخريات الناس، فاستقبله أحسن استقبال وأجلسه على سريره معه وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال : « ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك » • قال : « في أي شيء ؟ » قال : « في مدحك أختها وتركك اياها »•قال : « فلها العتبى وكرامة ، أنا ذاكرها وممدحها » • فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا : « قد كنا نرى أن تشبيب ابن حسان بابنة معاويةلشيء ، فاذا هو على رأى معاوية وأمره » • وعلم من كان يعرف أنه ليس له بنت أخرى ، وأنه انما خدعه ليشبب بها ولا أصل لها ، فعلم الناس أنه كذب على الأولى لما ذكر الثانية • وشبب أبو دهبل الجمحي أيضا بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطاء (١)

فقس على ذلك سائر خلفاء بني أمية وأمرائهم ، مما يدل على غلبة طبائع البدو في الأمويين ، مع أخذهم بأطراف المدنية واختلاطهم بالأمم الأخرى وقربهم من أسباب القصف • وكأن تلك الأسباب أخذت بعقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر ، وقلما كان يجسرعلى ذلك غير القرشيين ، وأكثرهم جسارة عمر بن أبي ربيعة المتقدم ذكره ، فانه كان يصطحب ابن سريج المغنى فيركبان على نجيبين ويلقيان الحاج فيعرضان للنساء وينشدان الأشعار لا يبالون أن تكون فيهن بنت الخليفة أو امرأته

والظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لما يرون من ارتياح النساء اليه ، لأن المرأة تفتخر بأن يثني الشعراء على جمالها وان لم يرض أهلها•فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت أرادت الحج فخاف أن يشبب بها ابن أبي ربيعة ، فاستكتب الحجاج اليه ان هو فعل ذلك أصابه بكل مكروه ، فلما قضتحجها

---

(١) الاغاني ٣٩ و ١٥٩ ج ٦

خرجت فمر بها رجل فقالت له : « من أنت ؟ » فقال : « من أهل مكة » قالت : « عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله ! » قال : « ولم ذاك ؟ » قالت : « حججت فدخلت مكة ومعى من الجوارى ما لم تر الأعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن أبى ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتا نلهو بها فى الطريق من سفرنا » قال : « انى لا أراه الا قد فعل » قالت : « فأتنا بشيء ان كان قاله ، ولك بكل بيت عشرة دنانير » فمضى اليه فأخبره فقال : « لقد فعلت ولكن أحب أن تكتم على » وأنشده قصيدة قالها فيها (١)

وممن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن فى ذلك العصر الأحوص ، كان يشبب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة فشكوه الى سليمان بن عبدالملك فأمر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه (٢) . ووضاح اليمن ، كان يشبب بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك ، وهم الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال : « ان قتلته فضحتنى وحققت قوله وتوهم الناس أن بينه وبين أمى ريبة » فأمسك عنه على غيظ وحنق ، حتى بلغه أنه تعدى أم البنين الى أخته فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدها   أخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشرت   وكذاك كانوا فى المسرة أهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال : « أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا وأخواتنا ولا له عنا مذهب؟ » ثم دعا به فأحضر وأمر ببئر فحفرت ودفنه فيها حيا (٣)

فكانت أيام بنى أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة الى الحضارة ، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقى من سذاجة البداوة فى طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وأبيح التشبيب وشاع على ألسنة الشعراء ، حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفخر. وكان الخلفاء الأولون من بنى العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فأنكروا ذلك ونهوا عنه . ومن أشدهم غيرة المهدى بن المنصور فان بشارا أنشده مديحا فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة (٤) فظل التشبيب مستقبحا حتى أباحه الرشيد وألح فى نظمه (٥) فآل ذلك طبعا الى ضعف الغيرة

---

(١) الاغانى ١٢٨ ج ٢
(٢) الاغانى ٤٨ ج ٤
(٣) الاغانى ٤٠ ج ٦
(٤) الاغانى ٤١ و ٥٨ ج ٢
(٥) الاغانى ١٦٠ ج ٣

الآداب الاجتماعية
فى العصر العباسى

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغير بعد الاسلام ، بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس فى الرخاء والقصف والاختلاط بأهل المدن ، فغلبت عليهم الضعة وركنوا الى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة المادية، وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعدا عن البداوة وخشونتها وسذاجتها، وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصروهم فى قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب ، فذهبت العصبية العربية. واستلزمت رغبتهم فى بقاء دولتهم العدول الى الفتك والغدر على ما فصلناه فى الجزء الرابع ، فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والأنفة والعصبية والنجدة الا آثار ضعيفة

المرأة فى العصر العباسى

وآل تكاثر الجوارى وشيوع التسرى الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال ، حتى صاروا يتهادون الجوارى الروميات والتركيات والفارسيات وهن أجمل صورة وأشرق وجها من نساء العرب . فبعد أن كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر فى غير زوجها وهى واثقة بأمانته ، اذا هو قد تشتتت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرته عليها . ولما رأته مشغولا عنها قلت ثقتها به الا من عصمها عقلها وشرفها . فلم ينضج التمدن فى العصر العباسى حتى تنوسيت المرأة العربية فى المدن ، وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هى نفسها تهدى زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها ، لا يهمها ذلك ولا تغار منه (١) وبعد أن كان العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها صاروا يساعدونه فى الحصول عليها (٢)

فأفضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها ، فاحتقرها الرجل وأساء الظن بها وصار يعدها عدوة له ويوصى بعدم الاركان اليها ، فيعاشرها على غل وسوء رأى ، يقفل عليها الابواب والنوافذ ، ويسد فى وجهها الطرق والمسالك ، ويمنعها من الخروج أو الكلام ، وهو صاحب

---

(١) الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج ٢
(٢) تزيين الاسواق ١٢٢

الذنب فى انحطاطها • فأصبح الطعن فى طباع المرأة وسوء سريرتها شائعا على ألسنة الناس ، حتى ألفوا فيه الروايات والأقاصيص ونظموا الشعر ، وتفننوا فى وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة فى تحذيرالناس من المرأة وعدم الوثوق بها • وهذه هى قصة ألف ليلة وليلة تمثل حال المرأة فى الأعصر الاسلامية الوسطى ، بعد شيوع التسرى وانغماس المسلمين فى الترف • وأما الأشعار فاليك ما قاله أبو العلاء المعرى :

اذا بلغ الوليد لديك عشرا   فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتنى وأضعت نصحى   فأنت،وان رزقت حجى ،بايد
ألا ان النساء حبال غى   بهن يضيع الشرف التليد(١)

وأصبح الكاتب اذا أراد تعزية صديق على فقدبنت له قال ما قاله أبوبكر الخوارزمى ، اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه فى بنته وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها ، لكنت الى التهنئة أقرب من التعزية • فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات ، ونحن فى زمان اذا قدم أحدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة، واذا زف كريمة الى القبر ، فقد بلغ أمنيته من الصهر ، قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريما   كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر :

تهوى حياتى وأهوى موتهاشفقا   والموت أكرم نزال على الحرم

وقال آخر :

وددت بنيتى وودت أنى   وضعت بنيتى فى لحد قبر

وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات   بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر :

سميتها اذ ولدت تموت   والقبرصهر ضامن وبيت(٢)

هذا مثال من آراء أدباء المسلمين وشعرائهم فى المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة

فلم يبق من المناقب العربية فى العصر العباسى الا السخاء ، لأنه كان لازما لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها ، بل هو كان من أهم قوأعد الارتزاق فى ذلك العصر •

---

(١) ألف باء ٧٧ ج ٢
(٢) رسائل الخوارزمى ٢٠

الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق فى التمدن الحديث مبنى على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها ، فينال الانسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكائه ، سواء كان ذلك بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو غيرها • وقد وضعوا لكل من أبواب الرزق قواعد فى تقدير الارباح لاتتعداها الا فى أحوال خاصة ترتفع فيها الأسعار فجأة كما حدث بمصر لهذا العهد (حوالى ١٩١٠) . وعلى أى حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله ، والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله

أما فى التمدن الاسلامى فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك فى طبقة العامة من المزارعين والباعة وأهل الصناعات • وأما فى الخاصة وأتباعهم فكان على أسلوب آخر لا مثيل له بين المتمدنين فى هذا العصر ، ومداره « السخاء » المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فمن بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة • ومصدر هذه الارزاق بيت المال ، وهو فى قبضة الخليفة أو من يقوم مقامه من الوزراء أو القواد أو الامراء على حسب أطوار النفوذ • والأموال تأتى بيت المال من جباية الخراج والجزية • وقد رأيت فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن متوسط جباية الدولة فى العصر العباسى الأول بلغ نحو ٣٦٠ مليون درهم فى العام ، لا ينفق منها على مصالح الدولة أكثر من ٥٠ مليونا ، فالباقى ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم تبقى فى بيت المال تحت تصرف الخليفة ، وأكثرها من جباية الخراج • وكان الخراج فى العصر المذكور ثقيلا ، لأنهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف أو الثلث ، وذلك فى نظر أهل هذا الزمان ظلم ، ولكن أهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقا ، لأن العباسيين نقلوا للخراج من المساحة الى المقاسمة ، فبعد أن كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الأرض زرعت أم لم تزرع ، حصروا الخراج فى الأرض المزروعة وجعلوه شطرا من غلتها (١)

سنة العرب فى الارتزاق

والأموال التى تبقى فى خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها ، ويفرق سائرها فيمن بقى من الخاصة بين جوائز ورواتب ، فتتسع أحوالهم بالجاه أكثر منها بالمال ، فيضطرون الى الانفاق لحفظ مقامهم • فينفقون على من يتعلق بهم ، فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله الى حواشيهم وأتباعهم ، ومن هؤلاء الى الباعة وأهل الأسواق فيعود الى

(١) الجزء الثانى

العامة كأنه لم يؤخذ منهم • وهى سنة فى الارتزاق تظهر لأول وهلة أنها من خصائص التمدن الاسلامى ، ولكنها كانت على نحو ذلك فى التمدن القديم • فأهل أثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لايعملون عملا ولا يحترفون حرفة فى سبيل الرزق ، وانما كانت أرزاقهم من خزانة الدولة يتناولونها رواتب فى أوقات معينة ، أو هبات فى أوقات غير معينة ، على مقتضيات الأحوال أو على ما يلحقهم من الغنائم ونحوها • ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية أو العلمية والتمشى فى حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها (١) ولكن ذلك كان محصورا فى أثينا أو غيرها من العواصم الكبرى • أما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة ، لتمكن السخاء فى نفس العربى ، ولأن هـذه السنة كانت شائعة عنـد العرب من أيام الجاهلية • فأمير القبيلة كان يغزو بقبيلته ، فما وقع له من مال وماشية فرقه فى كبار رجاله ، وهؤلاء يفرقونه فى أهلهم وأتباعهم ، ولذلك ذكروا من سنن العرب فى الارتزاق أنهم « نهابون وهابون »(٢) وكان العرب يكرهون اختزان الأموال ويعدونه قبيحا (٣)

والسبب فى بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب أنها لازمة لبقاء الدول فى تلك العصور ، وخصوصا فى الاسلام منذ طمع بنو أمية فى الخلافة واستخدموا الأموال فى ابتياع الأحزاب واسترضاء كبار الرجال ، فعودوا الناس العطاء • فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه ، بل تجاوزوه من بعض الوجوه ، فصار السخاء ضروريا لقيام الدولة والا فسد عليها حماتها وتمرد أهلها

وكان الصحابة فى عصر الراشدين لا يرون اختزان المال ، جريا على سنة العرب أو عملا بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبى (صلعم): « نعم المال الأربعون ، والأكثر الستون ، وويل لأصحاب المئين» (٤) ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون فى بيت المال شيئا • على أن المسلمين فى أيامهم كانوا مشتغلين بما بين أيديهم من الغنائم ، وكانوا لا يزالون فى دهشة النبوة والاخلاص فى الجهاد والخراج فى أيامهم معتدل فلم يكن يفيض منه شىء كثير، فلما طمع الأمويون فى الملك اتخذوا كل وسيلة لجمع المال والاستكثار منه ، وزادوا أعطيات الجند ووهبوا وأجازوا، وضاعفوا رواتب أبناء الصحابة وغيرهم من القرشيين أصحاب النفوذ ، فكان هؤلاء يتوسعون فى الانفاق ببناء القصور

(١) Library of Univ. Fist, 11,750.
(٢) ابن خلكان ١١٧ ج ٢
(٣) الاغانى ١٥٦ ج ١٢
(٤) الاغانى ١٥٢ ج ١٢

واقتناء الخدم والجوارى ، ويهبون الشعراء والندماء والحاشية والأتباع فيذهب ذلك المال كما أتى

كذلك كان يفعل عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص(١) فيفد أحدهم على معاوية أو يزيد فيؤدى له عطاءه ، وربما أهداه هدية سنية ، فيعود الى بلده ويفرق المال جميعه فى أهله وأعوانه (٢) وكان الخلفاء يعرفون ذلك ويعدون عطاءهم لهؤلاء عطاء لأهل المدينة (٣) وليس ذلك خاصا بفئة منهم بل كان شاملا الأكثرين ، حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما ، فكانت عائشة هذه تفد على الخليفة وربما كانت فى ضيق ، فتشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة ألف درهم مثلا ، فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر أو الفارس فتعطيه الألف بعد الألف حتى تستنفد ما جاءت به (٤) — حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم فيمن حولهم ، ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل الى أيديهم من المال لا يزالون مدينين ويموت أكثرهم فقراء (٥)

ولما أفضى الأمر الى العباسيين ساروا على هذه السنة فى الأعطيات والجوائز، وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة فى أيامهم • وكان أصحابهم يفرقونها فى الناس ، فموسى الكاظم كان يقيم فى المدينة ويفد على بغداد فيرده المهدى مثقلا بالأموال ، فلما يصل الى المدينة يجعلها صررا يفرقها فى أهلها (٦) وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين ، وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت فى درجاته وسائر أحواله • وربما أنفقوا بعضه فى حاشية الخليفة أو غلمانه (٧) ليسهلوا لهم الدخول عليه

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء أو الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضا يؤيدون به سلطتهم • أما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهو الضيافة ، فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم الى الطعام ، فيجتمع على مائدة الأمير ألوف من العامة يأكلون معا صباحا ومساء • ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين ، جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام فى استرضاء القبائل المختلفة ، فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق ، وأول من فعل

(١) العقد الفريد ٨٥ ج ١
(٢) المسعودى ١١١ ج ٢
(٣) العقد الفريد ١١٠ ج ١
(٤) الاغانى ٦١ ج ١٠
(٥) الاغانى ١٧٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧
(٦) ابن خلكان ١٣١ ج ٢
(٧) الاغانى ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢

ذلك عبيد الله بن عباس (١) واشتهر فى صدر الاسلام غير واحد من الأجواد ممن كانوا يقبضون الأعطية الكبيرة من خلفاء بنى أمية فينفقونها فى البذل والسخاء ، وقد تقدم ذكر بعضهم

وجرى الدهاة من عمال الأمويين على هذه السنة،فنصبوا الموائد على الطرق، فكان الحجاج يضع فى كل يوم من أيام رمضان ألف خوان ، وفى سائرالايام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر • وكان يدور هو بنفســه على الموائد يتفقدها ، يحملونه اليها فى محفة وينتقلون به من خوان الى خوان ، فاذا رأى أرزة ليس عليهــا سكر أمر الخباز أن يجيء بسكرها ، فاذا أبطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر به فضرب ٢٠٠ سوط • وكذلك كان يفعل عمال الحجاج فى ســائر المدن ، فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين فى اليوم للغــداء والعشاء (٢) وكان يوسف ابن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان(٣)وكان يزيد بن هبيرة يضع ألف خوان يطعم الناس (٤) وقس على ذلك سائر العمال وغــيرهم كابن طولون بمصر ، فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعــام (٥) وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب فى أيام الفاطميين بمصر ، فانه كان يفرق ١٢٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم ، واذا دخل رمضــان أضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه (٦) هذا غير ما كانوا يبـــــذلونه فى استرضاء العامة من الأموال على سبيل الصدقة ، فكان لكل من الخلفاءوالأمراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم ، على ما قدمناه فى الجزء الثانى من الكتاب، وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة فى الاجر أو عملا بمقتضى الأريحية

واطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصا بالمسلمين ، وانما هو أيضا من سنن الأعصر الغابرة•فقد كان العامة فى رومية يعيشون من أطعمة يفرقها فيهم أهل الدولة من الدقيق واللحم ،وكان بعض ملوك الفــرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحـــدة نصف شاة وجام حلوى أو عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب أو لبن وسمكة مصنوعة (٧) والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداء بالفرس ، مثل اقتدائهم بهم فى كثير من آدابهم الاجتماعية

وأما الخاصة أو من جرى مجراهم من المقربين غير الموظفين فكان الخلفاء يهبونهم

---

(١) العقد الفريد ٨٣ ج ١
(٢) العقد الفريد ٦ ج ٣ وابن خلكان ٨٢ ج ١
(٣) العقد الفريد ٦ ج ٣
(٤) ابن خلكان ٢٧١ ج ٢
(٥) ابن خلكان ٥٥ ج ١
(٦) القريزى ٨٥ ج ١
(٧) ترتيب الدول ١٢٠

الهبات أو يعينون لهم الرواتب لتقييد ارادتهم (١) كما تقدم ، ولذلك كان أهل الأنفة يكرهون صلات الخلفاء ويبعدون عن جوائزهم رغبة فى الاستقلال ، وأكثر ما يقع ذلك لأهل البادية الذين لم تذلهم الحضارة ، ولا سيما بعد نكبة البرامكة ، فقد طال حديث الناس يومئذ بأمرهم وغلب على اعتقادهم أن من يثرى من هبات الخلفاء تكون حياته فى خطر ــ ذكروا بدويا عيرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى أن قالت : « هذا فلان قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعا ، وأنت ههنا كما ترى ٠٠ » وكانت امرأته باهلية فأنشأ يقول :

تلوم على ترك الغنى باهلية ... ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن فى الثرا ... مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أنى نلت ما نال جعفر ... من العيش أو ما نال يحيى بن خالد؟
وأن أمير المؤمنين أغصنى ... بغصهما بالمشرفات النوارد ؟
رأيت رفيعات الأمور مشوبة ... بمستودعات فى بطون الأساود
دعينى تجىء منيتى مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد (٢)

الهبات والدين

على أن الفقهاء وأهل التقوى كانوا فى صدر الاسلام وأوائل دولة بنى أمية يعدون صلات الخلفاء رشوة ويترددون فى قبولها ، فما لبثوا أن ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها ٠ قال ذو الرمة :

وما كان مالى من تراث ورثته ... ولا دية كانت ولا كسب مأتم
ولكن عطاء الله من كل رحلة ... الى كل محجوب السرادق خضرم (٣)

ثم صاروا يتزلفون الى أصحاب الأموال ويستجدونهم رغبة فى الارتزاق ٠ فبعضهم ينال رزقه صلة أو جائزة ، وآخرون يقبضونه راتبا معينا ، وهؤلاء على الغالب من أهل البأساء وأيتامهم وأراملهم (٤) أو زعماء القبائل ورؤساء الأحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة والأمير أو يتوسم فيه الأجر والثواب ٠ فكان بعضهم يفرض الفروض لأولاد الأنصار والمهاجرين ، وغيره يعطى العلويين أو الطالبيين ، وغيره يعطى قريشا أو اليمن ، وقس عليه ٠ فكان ابن عيسى وزير المقتدر يعطى الطالبيين والعباسيين وأبناء الانصار (٥) وكان ابن الفرات

(١) الاغانى ١٥٤ ج ١٧
(٢) الاغانى ٩ ج ١٢
(٣) العقد الفريد ٨٧ ج ١
(٤) ابن الاثير ١٥٤ ج ٦
(٥) تاريخ الوزراء ٣٢٣

يعطى الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات ، أكثرهم مائة دينار فى الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (١) وكان لكافور الاخشيدى بمصر مال خاص يجرى منه الارزاق على من يأتيه ناقما على الخليفة ببغداد أو غيره (٢)

ولهذه الأسباب كان الخلفاء يستحلون اجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال ، لأنهم يعدون ذلك فى سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفاعا عن أنفسهم ، بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من أهل النفوذ الدينى سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن أنفسهم ، كما فعل الرشيد والمهدى بسفيان الثورى (٣)

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال فى ارتزاق الصغير من الكبير فى التمدن الاسلامى ، أما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضا ولكن على سبيل الهدية ، فيعدون عطية الأمير الى الصغير جائزة أو صلة ، ويسمون ما يقدمه الأصاغر الى الأمير والوزير هدية . وكانت الهدايا شائعة على الخصوص فى العصر العباسى ، فاذا تولى الأمير على بلد فأول ما يدخلها يبعث أهلها اليه بالهدايا من الاموال والجوارى والدواب والثياب (٤) وهو يبعث الى الوزير الذى ولاه أو الخليفة بالأموال بسبيل الهدية أيضا ، واذا طال مقامه أصبحت تلك الهدايا فرضا واجبا يبعث بها كل سنة ، فاذا أمسكها سنة عدوا امساكه تمردا (٥)

فالسخاء كان سنة عامة فى عهد ذلك التمدن ، لا يستثنى عنه عصر أو طائفة وان تفاوتت مقاديره واختلفت صوره وأشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا فى أول عهد الأمويين الابل والخيل والماشية ، فيأمر الخليفة أو الأمير لمن يستجديه بلقحة وفحلها وراعيها ، أو جارية وفرس ، غير ما فرضوه من الأعطيات فانها كانت تعطى عينا أو ورقا . ثم صارت فى أواسط الدولة تخوت الثياب من الوشى ونحوه والوصائف فضلا عن النقود ، وصارت فى بنى العباس البدر من الدنانير وعقود الجوهر وتخوت الديبقى والقصور والضياع وغيرها

المجاملة فى المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة فى نفوس العرب . وذهب بعض الباحثين الى أنها فطرية فى أصل أرومتهم ، وما هى كذلك وانما تولدت فيهم بتوالى

(١) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١
(٢) الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج ٢
(٣) سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثانى من هذا الكتاب
(٤) ابن الاثير ٥١ ج ٦
(٥) ابن الاثير ١٢١ ج ٧

الأجيال وتقلب الأحوال . لأن العرب كانوا مفطورين على استقلال الفكر وحرية الرأى كما رأيت ، وظلوا على ذلك الى انقضاء عصر الراشدين ، ثم أخذت أفكارهم فى الانحباس وعقولهم فى التقيد من عصر الأمويين ، لما اقتضاه طمع بنى أمية فى الملك من الشدة والحيلة ، فاضطر الناس للمداجاة والتمويه . وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يداجون الناس ويجاملونهم ، رغبة فى نصرتهم أو قطع ألسنتهم ويعدون ذلك « حلما »

وأشهر الحلماء وأقدمهم معاوية بن أبى سفيان ، فقد ذكرنا فى الجزء الرابع أنه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الأحزاب فيه وفى دولته ويغضى ، وربما أحسن الى الطاعنين أو تظاهر بالاستخفاف ، كما فعل بشعبة ابن غريض . وكان فى الكعبة ومعاوية هناك ، فبعث يدعوه فأتاه رسوله فقال : « أجب أمير المؤمنين »

قال : « أو ليس قد مات أمير المؤمنين ؟ » (يعنى عليا) فقال له : « أجب معاوية » . فأتاه ولم يسلم عليه بالخلافة ، فقال له معاوية : « ما فعلت أرضك التى بتيماء ؟ » قال : « يكسى منها العارى ويرد فضلها على الجار » قال : « أتبيعها ؟ » قال : « نعم » قال : « بكم ؟ » قال : « بستين ألف دينار ، ولولا خلة أصابت الحى لم أبعها » قال : « لقد أغليت » قال : « أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف دينار ثم لم تبال » قال : « أجل . واذ بخلت بأرضك فأنشدنى شعر أبيك يرثى نفسه »

فأنشده تلك الأبيات فأعجب بها معاوية وقال : « أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك » قال : « كذبت ولؤمت ! » قال : « أما كذبت فنعم ، وأما لؤمت فلم ؟ » قال : « لأنك كنت ميت الحق فى الجاهلية وميته فى الاسلام . أما فى الجاهلية فقاتلت النبى صلى الله عليه وسلم والوحى حتى جعل الله كيدك المردود ، وأما فى الاسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة ، وما أنت وهى أنت طليق ابن طليق ؟ » فقال معاوية : « قد خرف الشيخ فأقيموه » فأخذ بيده فأقيم

وكان معاوية اذا أعجزه اصطناع الأحزاب بالعطاء أو بالحلم أو بالسيف جهارا عمد الى قتلهم غيلة ، وكان أنصاره يعرفون ذلك فيه وأنه يصانعهم ليغلب بهم ، فكانوا يصانعونه طمعا فى مال أو منصب ، فكانت المصانعة والمداجاة أساس سياسة معاوية . وقد قواهما واستثمرهما بدهائه وحزمه ففاز ، وتحدث المسلمون بحلمه وسعة صدره وجعلوه قدوتهم ، والناس على دين ملوكهم . فكثر الميل الى المصانعة فى ذلك العصر ، وهى على الغالب بين الدولة ورجالها ـــ على أن الأريحية كانت تحول دون تمكنها

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين أغضى أبو مسلم عن الوفاء والأريحية وقتل على التهمة ، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وان لم يقترفوا ذنبا ، فزادت حاجتهم الى المصانعة • ولما فاز أبو مسلم بحزبه وسلم مقاليد الدولة الى العباسيين ، كانت فوضى بينهم وبين العلويين • فلما تقلدها المنصور وطمع فى استخلاصها للعباسيين ، فتك بأبى مسلم ثم قتل من قتله من العلويين ، وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم ، فاستخدموهم على غل ولجأوا فى الاحتراس منهم واتقاء أذاهم الى الجاسوسية، فبثوا الارصاد على وزرائهم وعمالهم ، يستطلعون أخبارهم ويبعثون بها اليهم سرا • والأرصاد نوعان : الأول أصحاب البريد فى الأطراف والعمال يعلمون أنهم رقباء على أعمالهم ، والثانى العيون الخفية يتخذونهم من الجوارى والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره أو عامله ، فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون فى جملة الندماء أو المغنين أو القيان أو أصحاب الشراب ، ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سرا الى الخليفة • وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاغنة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة ، وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الأريحية وزوال الأنفة وعزة النفس من العرب ، على أثر تضعضع العنصر العربى وتغلب العناصر الأعجمية مع تنافس أصحاب المطامع من هؤلاء فى أواسط الدولة العباسية بابتزاز الأموال • واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد أن فسدت الأحكام فى الدول الاسلامية واستبد السلاطين والأمراء غير العرب بمن أقام فى ممالكهم من أهل اللسان العربى ، ويسمونهم عربا وهم أخلاط من مولدى الأمم الاخرى • فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم ـ الا الذين أوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة أجيالا متوالية

العائلة فى التمدن الاسلامى

كانت العائلة فى أواسط التمدن الاسلامى نحو ما هى عليه اليوم، وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها ، فلا نطيل القول فى ذلك الآن وانما نقول كلمة فى بعض خصائص العائلة الاسلامية ، كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق

١ ـ الحجاب

اذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه فهو ليس من محدثات الاسلام ، بل هو قديم كان شائعا قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئا

منه ، وظل معروفا فى أوربا الى العصور الوسطى وما بعدها ، ولا تزال آثاره باقية فى أوربا الى الآن

واذا أريد به حبس المرأة فى بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامى ، لأنه لم يكن شائعا قبله • على أنه لم يبلغ الحد الذى بلغ اليه من الشدة والدقة ، الا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين واركانهم الى الترف والرخاء • وقد رأيت فى كلامنا عن المرأة البدوية أنها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والاقدام والحزم والرأى والتجارة والأدب والشعر وغيرها • فلما انتشر الاسلام وكثرت الجوارى وشاع التسرى فى المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة ، فقلت غيرته عليها وأساء كل منهما الظن فى صاحبه ، والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب وأقام عليها الأرصاد والعيون من أوائل الدولة الأموية ، اذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع بين العائلات الاسلامية فى الشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده بأهل بيته واستئثاره بالملذات لنفسه ، وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الأذهان • ولو راجعت ما جاء فى القرآن الكريم من هذا القبيل لرأيت تفسيره أقرب الى ما يراد من رفع الحجاب (*) • ولكن الناس تعودوا أن يفسروا الآيات القرآنية بما يوافق عاداتهم أو أغراضهم أو أميالهم • اعتبر ذلك فى كل دين تمدن أهله وعمدوا الى تفسير كتبه ، فكتب النصارى مثلا ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامرأتين فأكثر ، ولكن الكنيسة رأت أن الاقتصار على امرأة أقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع ، فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل • والمسلمون لما استكثروا من الجوارى وساءت الظنون بينهم وبين نسائهم أرادوا الحجر عليهن ، ولم يعدموا تفسيرا يساعدهم على ما أرادوا فحبسوهن وضيقوا عليهن • واعتقدت المرأة بتوالى الأجيال أنه يحل للرجل ما لا يحل لها ، فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه • فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزا ، وغادرها تجالس الخدم والعبيد ، وأصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحادثها الا نادرا ، وأعلن ارتيابه فى أمانتها وأصبح يفتخر بأنها لا تخرج من منزلها الا الى القبر

على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن ، لأنه

(*) كتب المؤلف هذا الجزء فى عصر كان الحجاب فيه مضروبا على المرأة ، وكان زعماء النهضة الفكرية والاجتماعية يدعون الى السفور ويطالبون بحرية المرأة كما نرى فى دعوة قاسم أمين • وكان جرجى زيدان من قادة الفكر فى العالم العربى اذ ذاك ، وهو يبسط فى هذا الفصل رأيه فى تحرير المرأة ويؤيد دعوة قاسم أمين وأنصاره من التقدميين

يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين ، وهذا نص الآية « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وقوله « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وقوله « وعاشروهن بالمعروف » ، ولكن الرجل أبى الا الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العــلم ، اذ اقتصر الفقهاء على النظر فى الأبحاث الدينية الجديدة ، وخيم الجهل على العقول كما أصاب النصرانية فى الأجيال المظلمة ، فأخذوا يفسرون الآيات والأحاديث على ما يوافق ميولهم وأهواءهم • وكانت الأحكام قد فسدت واستبد الحكام فى الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة

لأن الرجل فى طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعسفه ويكظم ما فى نفسه ، حتى اذا جاء منزله عامل أهله مثل معاملة الحاكم له انتقاما لنفســه •• تلك سنة من سنن العمران على اختلاف أطوار التمدن • فالبلاد التى يتولاها حاكم ظالم يقتدى به أرباب العائلات بظلم نسائهم وأولادهم ، وأما فى الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل فى حكومته • فالبيت دولة صغيرة تمثــل دولة الأمة

وما زالت المرأة المسلمة فى نحو ما تقدم الى أوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت ، حتى تصدى بعض أرباب الأقلام من المسلمين فى أواســط القرن الماضى ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرضوا اخوانهم على تركه • وأقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق فكتب الفصول الضافية فى « الجوائب » بالاستانة ثم كتب غيره فصولا لا تشفى غليلا • حتى ظهــر كتاب تحرير المرأة فى آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك أمين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالا لسائل

٢ ـ تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الاسلامية تعدد الزوجات ، وهى أن يتخذ الرجل زوجتين الى أربع ، والشرع الاسلامى يجيز له ذلك بشرط اذا روعى حق مراعاته لم يتخذ الرجل الا زوجة واحدة • لأن الآية التى تجيز تعدد الزوجات تشترط أن يعدل الرجل بينهن فاذا خاف ألا يعدل فيقتصر على واحدة ، وهــذا نص الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وفى محل آخر « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » فاذا جمعت بين الآيتين رأيت فحواهما اقرب الى النهى عن تعدد الزوجات منه الى الأمر به • ولذلك رأيت الغالب فى العقلاء وأهل المروءة أن يكتفوا بزوجة واحدة • وكان ذلك ســهلا فى عصر التسرى ، اذ قد يأتى النسل من بعض الجوارى فلا يجــد الرجل ضرورة الى

الزواج ثانية أو ثالثة اكتفاء بجواريه ومن يأتينه بما يشتهيه من النسل • على أن تعدد الزوجات ظل متبعا حتى فى أهل الفضيلة والعقل الى اليوم ولكن على قلة • واذا أحصى المتزوجون بأكثر من امرأة لا نظنهم يزيدون على خمسة فى المائة أو عشرة من مجموع المتزوجين ، وهم فى الغالب من العامة واذا كانوا من الخاصة فانما فعلوا ذلك لأسباب قهرية

ومن أجاز تعدد الزوجات ذهب الى تفسير « العدل » بالعدل فى النفقة لا فى المحبة ، على أن كثيرين من أهل الوجاهة والشرف فى العصور الاسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسرى وتعدد الأزواج، والغالب أن تكون السيادة للمرأة الأولى وان اختلف ذلك باختلاف الاحوال ــ ولكن المرأة العاقلة التقية كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجوارى الحسان فضيلة ، كما فعلت أم جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير

وقد تساعد المرأة التقية زوجها على الزواج بامرأة أخرى تتوقع من مسعاها فى ذلك ثوابا ــ روى الشيخ الجبرتى المؤرخ المصرى عن احدى أزواج أبيه قال انها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطيعة له ، ومن جملة برها له أنها كانت تشترى له من السرارى الحسان من مالها وتنظمهن بالحلى والملابس وتقدمهن اليه وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك ، وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر فلا يسوؤها فعله ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة (١)

٣ ــ الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات ، فالعقلاء يذهبون الى كره الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة فى هذا الشأن كقوله تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما» وقوله «فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » وفى الحديث « أبغض الحلال عند الله الطلاق » ، ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثرون منه اكثارا مدهشا ، كما فعل الحسن بن على بن أبى طالب فانه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ ، وكان أبوه يضجر من ذلك ويكرهه حياء من أهليهن ، وكان يقول فى خطبه : « ان حسنا مطلاق فلا تزوجوه » • ويليه المغيرة بن شعبة فقد تزوج نحو هذا العدد (٢) على أن الطلاق ما زال مكروها كما رأيت من كلام الامام على • وأهل الانفة والفضل لا يطلقون الا لعلة

---

(١) الجبرتى ١٨٢ ج ٣
(٢) الف باء ٣٤٨ و ٣٤٩ ج ٢

كبيرة أو عذر شرعى • ولو أحصيت حوادث الطلاق لرأيت أكثرها فى طبقات العامة

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة فى الحجاب ، فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها فاذا لم توافقه هان عليه طلاقها ، لأنه لم يرض الزواج على هذا الشرط الا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته اذا لم تعجبه • وهـذا التضييق ليس من الدين فى شىء ، لورود عدة أحاديث تجيز للرجل أن يرى خطيبته قبل الزواج ،وأحاديث تأمر برؤيتها صريحا(١) فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق • على أن للطلاق فى بعض الاحـوال فوائد اجتماعيـة حرمت منها الطوائف التى لا طلاق عندها

---

(١) مشكاة المصابيح ٢٦٩

المعيشة العائلية

١ ـ الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصرا على الألبان وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبن ، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على أبسط مايكون من أحوالها كما يفعل أهل البادية اليوم ، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الابل ، وقد يصنعون منها أطعمة تتركب على نسب معينـة كالثريد فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز • ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيدة والعصيدة ، أو يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسـل والسمن كالوضيعة ، ولهم من أمثال هذه الأطعمة نحو أربعين لونا

ذلك هو طعام أهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة ، وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الابل أو الضأن ، وانما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد ، واذا جاعوا أكلوا العلهز وهو وبر الابل يمهونه بالحجارة فى الدم فيطحنونه ، وكان حال القرشيين قريبا من ذلك (١) وربما أكلوا القرامة ونحاتة القرون والأظـلاف والمناسب من برادتها ، او القرة وهى الدقيق المختلط بالشعر • وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء ، شربوا الفظ وهو عصارة الفرث أو المجدوح وهو مصل دم الابل (٢)

فلما جاء الاسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ، ووقعوا على الوان من الأطعمة لم يعرفوها ، فأشكل عليهم أمرها وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فأحضره الى أصحابه فظنوه ملحا ، فطبخوا طعاما ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعما ولم يعلموا ماهو ، فرآه رجل عرف مافيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوى درهمين (٣) ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعا يكتب عليها (٤) وشاهدوا الأرز فظنـوه طعـاما مسموما (٥) ثم مالبثوا ان أقاموا بين أولئك الاقوام حتى تعرفوا مآكلهم ولاسيما الفرس ، فأخذوها عنهم كما أخذوا أكثر مبادىء الحضارة وكثيرا من العـادات والآداب ، وليس فى الشرع الاسلامى مايمنع تمتعهم بالطيبات من الأطعمة الا ماجاء النص بتحريمه

---

(١) ابن خلدون ١٧٠ ج ١
(٢) كتاب البخلاء ١٨٣
(٣) الفخرى ٧٤
(٤) ابن خلدون ١٤٤ ج ١
(٥) الهمدانى ١٨٨

فأخذوا بأطراف الحضارة من أيام بنى أمية ، وأول من قلد الأعاجم بأسباب الترف معاوية ، فتنعم بمأكله ومشربه (١) واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ، ولا سيما بعد أن كثرت الأموال بين أيديهم فأكلوا السكباج ، وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل ، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه ، وكانوا يسمونه سيد المرق . والفالوذج وهو نوع من الحلوى ، وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر ، والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها ، وتفننوا فى معالجة اللحوم بالألبان والخضار والتوابل على أساليب شتى

٢ — اللباس

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطا مثل طعامهم وسائر طرق معايشهم ، ولا يزال حتى الآن فى عرب البادية نحو ماكان عليه قبل الاسلام ، وهو عبارة عن القميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ، ولم يكن العرب فى جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية (٢) وانما هى فارسية ، وكذلكالنعال والخفاف ، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها . وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم ، وثيابهم على الاجمال قصيرة الى أسفل الركب (٣)

وافضل مثال للباس العرب لباس النبى (صلعم) فقد ذكروا أن احبالباس اليه البرود (*) والبياض والحبرة ، وهى ضرب من البرود فيه حمرة ، وكان كمه قصيرا الى الرسغ ، يلبس أحيانا حلة حمراء وازارا ورداء ، والازار قصير الى أسفل الركبة ، ولبس الخف والنعل (٤) وقد نهى عن الثوب الطويلالذى يجر على الارض من الخيلاء ، ومن أقواله : « فضل الازار فى النار» (٥)ولميكن العرب يعرفون من الأنسجة غير القطن والصوف

على أن الذين كانوا يفدون على الشام والعراق من اغنيائهم لتجارة أو زيارة كانوا يقلدون أهلها بملابسهم الفاخرة ، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولاسيما فى أوائل الاسلام . ومن المأثور عندهم ان اول من لبس الخز الادكن من العرب عبد الله بن عامر ، وأول من لبس الدراريع السود (**)

---

(١) الدميرى ٥٥ ج ١
(٢) البيان والتبيين ٥٣ ج ٢
(٣) سراج الملوك
(*) البرود جمع بردة ، وهى شملة من الصوف الغليظ يلتف بها الانسان ويلتحفها فى الليل ، ولونها بنى أو رمادى . والبياض كساء ابيض خفيف من الكتان او القطن . والحبرة ، بفتح الحاء وكسر الباء ، بردة حمراء
(٤) تهذيب الاسماء ٦٠
(٥) الكامل للمبرد ٢٦
(**) الدراريع جمع دراعة ، بضم الدال وتشديد الراء ، وهى قميص طويل او جلبابه من القطن أو التيل مفتوحة الصدر الى الوسط ، وفى فتحتها أزرار . وكانت تلبس بيضاء أو على الوان اشهرها البنفسجى : وقد صارت مع الزمن ملبس الوزراء حتى اصبحت وكانها زى خاص بهم

المختار بن أبى عبيد ، وأول من لبس الطيلسان فى المدينة جبير بن مطعم (١) وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الاسلام . والعادة أن يبدأ الأمراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس . وأول من اقدم على تقليد الاعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله . فزياد بن أبيه أمير العراق أولَ من قلد الفرس بلبس القباء الديباج (٢) وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة

ولما اترف بنو امية لبسوا الحرير على أنواعه ، وتفننوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوشى وأكثروا من لبسه ، فقلدهم الناس فى ذلك فراجت المنسوجات الموشاة فى ايامهم ، واتخذوا كثيرا من ألبسة الروم ، ولكنهم لرغبتهم فى المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق ، وكان الأحنف يقول : « لاتزال العرب عربا ما لبست العمائم وتقلدت السيوف » (٣)

اللباس فى عصر الحضارة

فلما أفضت الخلافة الى العباسيين ، واستسلموا للفرس وأخذوا نظامهم وآدابهم ، قلدوهم بالألبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمى من أوائل دولتهم . فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها ، بدل العمائم ، أو يعتموا فوقها بعمامة صغيرة . وأن يعلقوا السيوف فى أوساطهم ، وان يكون اللباس الأسود عاما فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الامويين . فلابد للداخل على الخليفة العباسى من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطى سائر الثياب . وألبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » (٤) وبعث الى عماله فى سائر الاقطار أن يأمروا رجالهم بمثل ذلك (٥)

فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس فى الملابس ، ولا سيما أهل الدولة ورجال الحكومة ، فلبسوا الأقبية والسراويلات والطيالسة والخفاف والجوارب وغيرها ، مع بقاء ألبسة العرب عند عامتهم . ثم اختصت كل طائفة أو طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان أسود (٦) وأول من غير لباس العلماء على هذه الصورة أبو يوسف قاضي الرشيد (٧) وأما لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيالسة الرقاق ، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأعصر مما لا محل لاستيفائه

---

(١) المعارف لابن قتيبة ١٨٧
(٢) الاغانى ١٠٤ ج ١٤
(٣) الكامل للمبرد ١٠٠
(٤) الاغانى ١٢١ ج ٩ وابن الاثير ٢٨٩ ج ٥ والعقد الفريد ٧٤ ج ١
(٥) ابن تغرى بردى ٤٣٧ والمقريزى ٣٠٧ ج ١
(٦) الاغانى ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦ وطبقات الاطباء ٤ ج ٢
(٧) ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢

أما عامة الناس فتختلف أشكال ألبستهم باختلاف صناعاتهم وأحوالهم وطبقاتهم ، وباختلاف الأصقاع والأطوار مما لا يمكن حصره ، وانما يقال بالاجمال أن لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال ، على نحو لباس المصريين والسوريين فى أوائل القرن الماضى وهو مايلبسه جماعة المشايخ الآن (*)

ثياب المنادمة والتطيب والخضاب

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الانس والشراب يسمونها «ثياب المنادمة» ، وهى أثواب مصبغة بالألوان الزاهية: الاحمر أو الاصفر أو الاخضر ، يصقلونها حتى تلمع وتشرق ، ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون ، ولهم ألبسة يتخففون بها فى منازلهم وأخرى يلبسونها فى الأسفار وغير ذلك

أما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبل عندهم ، ومن أمثالهم : « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم : رجل رأيته راكبا ، أو سمعته يعرب كلامه، أو شممت منه طيبا » (**)

والخضاب كان مستحسنا عندهم ، وأصله هندى أخذه الفرس عن الهنود(١) ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام ، ويقال ان أول من خضب بالسواد من أهل مكة عبد المطلب (٢) وقالوا بل المغيرة بن شعبة . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب فى الأرض تعلموا فنون الخضاب ، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة فضلا عن الخضاب الاسود، وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت (٣) وأول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر (٤) وكان حسان ابن ثابت يخضب لحيته على أسلوب خاص ، فيلون شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ فى الدم (٥) وقس على ذلك تفننهم فى الخضاب للرجال والنساء ، ولا يزال ذلك شائعا فى الشرق الى الآن ،

(*) فى كل ما يتصل بملابس المسلمين انظر قاموس دوزى عن الملابس العربية وقد أشرنا اليه سابقا ، وانظر أيضا فهارس النجوم الزاهرة لابى المحاسن بن تغرى بردى ، والسلوك لمعرفة دول الملوك لتقى الدين أحمد بن على المقريزى ، وكذلك الخطط من تاليفه ، الجزء الذى نشره جاستون فييت فى القاهرة ، والجزءين اللذين نشرهما الدكتور جمال الدين الشيال من مفرج الكروب لجمال الدين بن واصل ، وانظر بصفة خاصة فهرس كتاب الموشى لمحمد بن اسحاق ابن يحيى الوشاء ، وجامع المفردات Glossarium الذى وضعه دى غويه لتاريخ الطبرى

(**) انظر كتاب الموشى الذى أشرنا اليه فى التعليق السابق ، فصول : ذكر زى الظرفاء فى الطعام (ص ١٦٧ من طبعة القاهرة ١٩٥٣) وذكر زيهم فى الشراب (ص ١٧١)

(١) المسعودى ١١٥ ج ١

(٢) لطائف المعارف ٨

(٣) ألف باء ٣٤٤ ج ٢

(٤) المعارف لابن قتيبة ٩٩

(٥) الاغانى ٣ ج ٤

والاكثرون يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء ويندر الخضاب بالزعفران ، ولا نعرف أحدا يبيض شعره بالكبريت

٣ ــ المأوى

مساكن العرب

كان العرب قبل الاسلام أهل خيام وأنعام ، يحملون منازلهم على ظهورهم ، الا من أقام منهم فى مكة أو المدينة أو الطائف أو غيرها من مدن الجاهلية ، ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة أسباب تغلبهم . فلما فتحوا الأمصار تحاشوا سكنى المدن ، ونصبوا مضاربهم فى ضواحيها أوبنوا بيوتا من القصب(*) معسكرا لهم ، لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء ، كأنهم محتلون الى أجل . وكانوا اذا فسد مابنوه من القصب أو احترق ، استأذنوا الخليفة عمر فى بنائها بالحجارة ، مثل المدن التى فتحوها بمصر والشام والعراق ، ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفا عليهم من الترف والرخاء ، ولهذا السبب أيضا منعهم من الزرع . ثم أذن لهم بالبناء ، ولكنه اشترط الاقتصاد فيه ، فلما استشاروه فى بناء الكوفة بالحجارة قال لهم : « افعلوا ، ولا يزيدن احد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة » (١)

على أن ناموس العمران غلب على ما أراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون فى المعسكرات ، فما لبثوا أن تحضروا وتحولت تلك المعسكرات الى مدن عامرة ، ونزلوا المدن القديمة التى فتحوها ، وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها ابنية الدول السالفة

أساليب البناء فى الاسلام

وكانت أساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الأمم ، ولكل منها نمط تولد عندها بتوالى الأجيال ، اما رأسا أو اقتباسا . وأهمها النمط البيزنطى فى الشام ومصر ، والفارسى فى فارس وخراسان ، والقوطى فى الأندلس وما يليها . فلما تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المبانى استخدموا فى بنائها مهندسين من الروم والفرس ، فكانوا يخططونها على ماعرفوه من الأساليب التى ذكرناها . ثم أخذ العرب تلك الصناعة وأدخلوا فيها تغييرا يوافق الذوق الشرقى ويلائم الاسلام . فتولد نمط اسلامى خاص يعرف بالنمط العربى أو الشرقى يختلف باختلاف الأصقاع واختلاف العصور والدول ، وترجع تنوعاته الى ثلاثة أعصر كبرى :

(*) المراد بالقصب هنا أعواد النباتات مثل الذرة والقمح والقصب الذى ينمو على شواطىء الانهار ، فكانوا يقيمون هيكل البيت بالخشب ثم يغطونه بالقصب من كل نواحيه . وكانت بيوت القصب معرضة للحريق ، وقد احترقت الكوفة والبصرة أكثر من مرة عندما بنيتا بالقصب لاول أمرهما

(١) ابن خلدون ٢٩٩ ج ١

أولا ــ العصر العربى الرومى : هو أقدم أعصر البناء فى الاسلام ، وأساسه النمط البيزنطى ، وتنوع فى أثناء التمدن الاسلامى وتفرع الى خمسة أشكال: (١) النمط السورى ومثاله الجامع الأقصى فى القدس والجامع الاموى فى الشام، (٢) النمط المصرى ومثاله جامع عمرو بالفسطاط ، (٣) النمط الافريقى ومنه جامع القيروان (٤) النمط الصقلى فى صقلية بايطاليا ومن أمثلته قلاع سرقوسة (*) وغيرها (٥) النمط الأندلسى ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية فى طليطلة مما بنى قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد

ثانيا ــ العصر العربى البحت : وهو يشمل الاشكال التى تكيفت بين يدى العرب حتى بعدت عن الأصول التى نقلت عنها وهى قسمان : (١) النمط المصرى ومنه الابنية التى اقيمت فى مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفى جملتها الجوامع التى بناها السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن ، (٢) النمط الاندلسى وهو مابنى فى الاندلس بعد القرن العاشر ومن امثلته ابنية اشبيلية وغرناطة ولاتزال آثارها باقية الى الآن

ثالثا ــ العصر المختلط : ويدخل فيه : (١) النمط الاسبانى العربى ويراد به مابناه المسيحيون بعد استيلائهم على الاندلس وخروج المسلمين منها ، (٢) النمط الاسرائيلى العربى ومن أمثلته الآثار الباقية لليهود فى طليطلة من انقاض الكنائس ، (٣) النمط الفارسى العربى كالجوامع التى بناها الفرس بعد الاسلام ولاسيما فى أصبهان ، (٤) النمط الهندى العربى وهو خليط من النمطين الهندى والعربى كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين ، (٥) النمط المغولى العربى كالأبنية التى أقيمت فى الهند أثناء سلطة المغول واشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها (١)

فمساكن الناس فى عهد التمدن الاسلامى كانت تختلف شكلا باختلاف البلاد والعصور ، وتتفاوت سعة وقدرا بتفاوت طبقات الناس : من الاكواخ الحقيرة الى القصور الفخيمة ، وسنأتى بأمثلة من القصور وسائر الأبنية الاسلامية عند الكلام على الحضارة (**)

(*) فى الاصل زيزا وكوبا ، وهو خطأ مطبعى ، لان المراد سرقوسة من مدن صقلية ، وهى تكتب بالافرنجية Syracusa

(١) La Civilisation des Arabes, 597

(**) تقدمت دراسات العمارة والفنون الاسلامية تقدما عظيما خلال نصف القرن المنقضى ، ونورد فيما يلى بيانا بأهم المراجع التى يستطيع الدارس ان يرجع اليها :

George Marçais : Manuel d'art musulman (l'architecture : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile) Vol. du IXe au XIIe siècle. Paris, 1926. Vol. II, du XIIIe au XIXe siècle. Paris, 1927.

وفى كل من هذين المجلدين ثبت بالمراجع عن العمارة فى تونس والجزائر ومراكش والاندلس وصقلية

وانظر أيضا الفصلين الخاصين بالعمارة الاسلامية والفنون الاسلامية الصغيرة من كتاب

تراث الاسلام ، الترجمة العربية ظهرت في القاهرة سنة ١٩٣٨
وكذلك فصل الفن الاسلامي في

T. Cuyler Young. Near East: Culture and Society. New York, 1953.

الترجمة العربية ظهرت في القاهرة بقلم الدكتور عبد الرحمن أيوب • مجموعة الالف كتاب القاهرة ١٩٥٧

وفي الترجمة الاسبانية التي قام بها اميليو غرسيه غومس للجزء الثالث من كتاب « تاريخ اسبانيا الاسلامية » لليفي بروفنسال ، قسم خاص جديد عن العمارة الاندلسية يشغل نصفه تقريبا بقلم ليوبولدو توريس بالباس Leopoldo Torres Balbas وهذا القسم يقع في المجلد الخامس من كتاب Historia de Espana الذي يشرف عليه R. Menendez Pidal

ومن أهم المراجع عن الفن الاسلامي بصفة عامة والفنون الزخرفية بصورة خاصة : م. س. ديماند : الفنون الاسلامية ، ترجمة الاستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٣

وكذلك : زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٥١

وقد استعمل المؤلف في هذه الفقرة مصطلحات لا يستعملها دارسو الآثار الآن ، واليك مصطلحاته وما يقابلها الآن : العصر العربي الرومي = العصر العربي البيزنطي ، نمط = طراز ، النمط الافريقي = الطراز المغربي ، النمط الاسباني العربي = الطراز الاندلسي المغربي

أما ما ذكره المؤلف باسم النمط الاسرائيلي المغربي فيدخل تحت طراز من طرز العمارة الاندلسية يسمى الطراز المدجني

انظر عن طرز الفن الاندلسي :

حسين مؤنس : تطور العمارة الاسلامية في الاندلس • حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد الاول سنة ١٩٥١ ص ١٨٥ — ٢٥٨

حضارة الدولة الإسلامية

حضارة الدولة الاسلامية

نريد بالحضارة ماتبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع فى اسباب الترف والرغد فى أرقى درجات عمرانها . والدولة الاسلامية أدركت تلك الدرجات أولا فى العصر العباسى ببغداد من أواسط القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) الى أواسط الرابع (العاشر الميلادى) ، وفى العصر الأموى بالاندلس فى القرن الرابع ، وفى العصر الفاطمى بمصر من أواسط الرابع الى أواسط السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)

وأسباب الحضارة فيما نحن فيه تقسم الى قسمين كبيرين : الأول العمارة أى انشاء المدن وبناء المصانع والقصور ، والثانى الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس فى النعيم والرخاء وبسطة العيش . فنتكلم أولا عن المدن ، فالمبانى ، ثم نبين مابلغت اليه الامة من الثروة وأسباب الترف والرفاهية

عمارة المدن والقصور

ان المدن التى سكنها المسلمون وحواها التمدن الاسلامى تعد بالمئات ، وهى منتشرة فى آسيا وافريقيا وأوربا ، ومنها ماكان عامرا قبل الاسلام ، ومنها مابناه المسلمون لأنفسهم . وقد نشرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فصلا فى المدن الاسلامية ، وما بلغت اليه من الحضارة والثروة فى عهد التمدن الاسلامى واقتصرنا على أعظم تلك المدن : البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، وبغداد . وأجلنا الكلام فيما بقى الى هذا الجزء فنقول :

القطر المصرى

مساحة الارض الزراعية فيه

القطر المصرى اليوم (حوالى سنة ١٩١٠) فى نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حد استغربه الناس وخافوا رد الفعل (١) لأنهم رأوا غلاء فى الأسعار، مفاجئا لم يعهدوا مثله ، وزادت مساحة الارض الزراعية ستة أضعافها فى قرن واحد . فبعد أن كانت مساحتها فى أيام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان(*) . وبعد أن كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيها

---

(١) فصلنا ذلك بمقالات فى « النهضة المالية المصرية » فى السنتين ١٣ و ١٤ من الهلال

(*) المعروف ان المساحة المنزرعة الآن تبلغ نحو ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان

بيع بمائة جنيه ، أو مائة وخمسين جنيها أو أكثر . فكيف لو علموا أن مساحة الأرض الزراعية فى ابان التمدن الاسلامى زادت على ٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠ فدان ؟ وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الاول من هذا الكتاب نقلا عن ثقات مؤرخى العرب ، فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة أو الأكذوبة على عادتهم فى الاستخفاف بأقوال مؤرخى المسلمين . ولا نرى باعثا على هذا الاستخفاف ، والمسلمون أو العرب من أكثر الأمم تحقيقا فى حوادث التاريخ ، لما تعودوه من التحقيق فى المسائل الدينية بالاسناد ونحوه (*)

على أننا لا نلومهم اذا استغربوا تلك الرواية ، لأن الناس يقيسون الأشياء بما علموه من أشباهها ، فثروة القطر المصرى اذا قيست بما ألفناه من أحوال عمرانه فى القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحته الزراعية الى ثلاثة أضعاف ما بلغت اليه اليوم . ولكن لو قيل لأهل هذا الجيل أن مساحة الارض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين أو ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق ، لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون

(*) ناقشنا فى تعليقاتنا على الجزء الثانى من هذا الكتاب رأينا فى تقدير العرب لمساحة المزروع من أرض مصر أيام الفتح الاسلامى ، ونضيف الى ما ذكرناه هناك أن الاحوال المناخية فى مصر اذذاك كانت تختلف عما هى عليه الآن ، فقبل ثلاثة عشر قرنا كان المطر فى مصر وكل المناطق الواقعة على خط عرضها أكثر جدا مما هى عليه اليوم ، فكان معظم شبه الجزيرة العربية وشبه جزيرة سينا وصحارى مصر الحالية مناطق سهوب وأعشاب تخضر فى الشتاء والربيع والخريف وترعاها الماشية ، وكانت عيون الماء أكثر مما هى عليه اليوم ، فكانت صحراء مصر الشرقية والغربية كثيرة الواحات تزرع منها مساحات واسعة ، ولهذا فقد كان معظم الصحارى القاحلة الآن أرضا صالحة للسكنى تعيش فيها جماعات كثيرة من البدو والرعاة ، وعند عيون الماء قامت منشآت أهمها الاديرة ، وقد كانت الصحراوان الشرقية والغربية غنيتين بها ، وقد جفت هذه النواحى وانعدمت الحياة فيها شيئا فشيئا حتى صارت الى ما هى عليه اليوم . ولهذا فقد قدر الناس أن أرض مصر كلها مزروعة وحسبوها على هذا الاساس فقالوا أن الارض المزروعة ٢٥ مليون فدان ، بل للمقريزى رواية تقول انها ٣٠ مليون فدان ، أما الارض المزروعة زراعة منتظمة ويجبى عليها الخراج الكامل فكانت أقل من ذلك بكثير .

ولا نستطيع الاعتماد على تقديرات الخراج فى تقدير مساحة الارض المزروعة ، لان هذه التقديرات تشمل ضريبة الارض وضريبة الرءوس ، وكان العرب أول الامر يجبون مال مصر جملة واحدة دون تقدير خراج أو جزية ، ثم جاء الفقهاء بعد ذلك وحاولوا التوفيق بين المبالغ المجموعة وما تقضى به الشريعة ، فجعلوا شيئا من المال المجموع جزية وبعضه خراجا . وعندما انتشر الاسلام فى مصر وتلاشت الجزية أصبح المال المجموع كله يمثل الخراج والعشور التى كانت تجبى على بعض صنوف الارض ثم الضرائب الاضافية الاخرى ، وقد ثبتت جباية مصر ابتداء من أيام معاوية بن أبى سفيان عند ٤ مليون دينار ، ثم هبطت فى العصر العباسى الى ٣ر٢٠٠ر٠٠٠ دينار تقريبا ، فاذا قلنا ان الضرائب الاضافية والزكاة وجزية من بقى على دينه تقدر فى مجموعها بنصف مليون دينار ، كان الباقى ٢ر٧٠٠ر٠٠٠ دينار ، ومن المعروف أن ضريبة الفدان كانت دينارا ، فمعنى ذلك أن مساحة المزروع فى العصر العباسى كانت ٢ر٧٠٠ر٠٠٠ فدان ، فاذا فرضنا أن مقدار الجباية هبط أيام العباسيين بسبب الاضطراب والفوضى عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين والامويين أمكننا أن نقول أن مساحة أرض مصر المزروعة زمن الفتح الاسلامى كانت حوالى ٣ر٥٠٠ر٠٠٠ فدان ، وربما كان هذا هو الذى أراد المقريزى قوله ، ثم وقع الغلط من النقل والتصحيف

وقد ناقشنا ذلك مناقشة وافية فى الفصل الذى كتبناه عن تاريخ مصر من الفتح الاسلامى الى نهاية العصر الاخشيدى فى كتاب تاريخ مصر الذى تنشره حاليا وزارة الارشاد القومى والثقافة

فدان الى ثمانية ملايين . أما لو قيل ذلك لاهل أواسط القرن الماضى لعدوه مستحيلا ، لأن مساحة أرض مصر التى تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ۰۰۰ر۰۰۰ر۷ فدان ، وهاك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠ (١) باعتبار الفدان :

	أرض مزروعة	غير مزروعة	الجملة
مصر السفلى	٢٢٤٩٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٣٨٠٠٠٠٠
« الوسطى	٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢٠٠٠٠
« العليـا	٧٥٠٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	١٥٩٤٠٠٠
	٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧٠١٤٠٠٠

فتكون مساحة الأرض التى يمكن زرعها بمصر ۰۰۰ر۰۱٤ر۷ فدان . فمن كان هذا اعتقاده فى أطيان مصر لا يصدق اذا قيل له أن مساحة هذه الأطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان ، أو ١٢ مليونا بعد بضع عشرة سنة

عدد السكان

ويقال نحو ذلك فى عدد السكان ، فلو قيل فى أواسط القرن الماضى ان القطر المصرى سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين أو ١٢ مليونا لعدوا قولنا من الخرافات ، أو كما قال الدكتور كلوت بك : « من عادات الشرقيين فى المبالغة »، لأن عددهم فى أيامه لم يكن يزيد على ۰۰۰ر۰۰۰ر۳ نفس ، فكيف يصدق زيادته الى أربعة أضعافه ؟ لانقول ذلك تحكما أو افتراضا ، ولكننا ننقل للقارىء قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر فى هذا الشأن — فقد بحث فى كتابه عن سكان القطر المصرى سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين نفس ، فصدر بحثه بمقدمة عن احصائهم فى الزمن القديم قال فيها مامعناه : « يؤخذ من احصاء مؤرخى اليونان أن سكان هذا القطر بلغ عددهم فى زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية ، وأما مؤرخو العرب فزعموا أن عددهم فى زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليونا ، وهو قول يدل على عادة الشرقيين فى المبالغة فى كتاباتهم . . . لأننا لو قسنا مصر بما نعلمه فى سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة مايتوطنونه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفى كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ، ومهما قلنا فى خصب وادى النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة ، ولو سلمنا بامكان استثمار البقاع الرملية — فمع كل هذه الوسائل لايرجى زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذى ذكره العرب » (أى نحو ۰۰۰ر۳۳۳ر٦ نفس) — هذا هو رأيه ، وأنت ترى أن سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين،

(1) Aperçu sur l'Egypte. 1,265

ولن تمضى بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليونا ، أو ضعفى ماظنه الدكتور كلوت بك غاية مايمكن الوصول اليه

وقياسا على ماتقدم لانرى مانعا من بلوغ سكان القطر المصرى الى ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد فى ابان التمدن الاسلامى — وانما انكر أبناء هذا الجيل ذلك استخفافا برواية العرب ، مع أنها مبنية على احصاءات رسمية واقعية فى أزمنة معينة لأجل تعديل الجزية أو الخراج ، وليست من قِبيلَ الحدس أو الرجم بالغيب . الاحصاء الأول وقع فى زمن الفتح على أيام عمر . ذكر المقريزى أنهم أحصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية فبلغ عددهم ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس ، فاذا اعتبرناهم ثلث الامة كان مجموعها ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس . والاحصاء الثانى فى ولاية الوليد بن رفاعة سنة ١١٠هـ، ذكروا انه خرج ليحصى أهلها وينظر فى تعديلَ الخراج ، فأقام فى ذلك ستة اشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، ومعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير ، وثلاثة أشهر فى الوجه البحرى ، فأحصوا من القرى عشرة آلاف قرية ، فى أصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، فتكون جملة ذلك على الاقل ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ رجل ، وعلى متوسط مايلحق ذلك من النساء والأطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس

مساحة الارض الزراعية

ويقال نحو ذلك فى الأرض الزراعية ، فانهم استخرجوا مساحتهابالاحصاءات الرسمية لأجلتعديلى الخراج . منها احصاء لعبيدالله بنالحبحاب سنة١٠٧هـ فبلغت مساحة الأرض الزراعية مما يركبه النيل ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان ، أى نحو أربعة أضعاف مابلغت اليه مساحتها اليوم ، مع اجتهاد حكومتنا فىتعميم وسائل الرى ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى أذهاننا الأستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد أنها مكذوبة ، أما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصولَ الى الحقيقة

فالمقريزى وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضا ولا تركوا فى قولهم التباسا . وذكروا فى أمكنة أخرى أن الارض الزراعية نقصت فى أيام ابن المدبر، اى بعد قرن ونصف قرن ، الى ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان ، ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع ، واشترطوا عددا معلوما منهم فاذا نقص نقصت غلة الارض (١)

ولا يتجلى لنا وجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التى كانت عامرة فى ذلك

---

(١) المقريزى ١٠٠ ج ١

العصر . فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الآن ، أى يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والغربية ، لحكمنا باستحالة زعمهم . لأن مساحة مصر الجغرافية اليوم ، وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والعريش ، نحو ٤٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، معظمها صحراء قاحلة . أما الأرض الزراعية فمساحتها ١٧٫٨٢٦ ميلا مربعا ، يخرج منها ٤٫٨٥٠ ميلا مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها ، فالباقى ١٢٫٩٧٦ ميلا مربعا ، أى نحــو ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ فــدان ، وهى الأرض المزروعة الآن فلا سبيل الى المزيد

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن أحوال مصر فى ابان تمدنهم ، ومما جاء من أخبارها القديمة ، أن حدودها الزراعية كانت أوسع من ذلك كثيرا — ذكروا أنها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة (١) وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش ، ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديما الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيرا . ولا تزال آثار العمارة باقية فى تلك البقاع ، فان تحت الرمال تربة ســــوداء زراعية يعرفها من اختبر الارض بالمسبار (*)

وكان الصعيد عامرا ويمتد من جهته الشرقية الى البحر الأحمر وأراضى البجة(١) وكانت أطيان الفيوم ممتدةالىماوراءالعمارة المعروفة مسافةبعيدة . فاذا اعتبرنا ماذكروه من هذا القبيل ، وأن النيل كان أكثر فروعا وأغزر ماء وأوسع فيضانا مما هو عليه اليوم ، هان علينا قبول أقوالهم وان كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احيـــاء الصحارى المحيطة بوادى النيل شرقا وغربا ، بنزع مايغطيها من الرمال وارووائها بالترع المتصلة اليها من النيل أو الآبار الارتوازية ، نرى أقوالهم معقولة . ولا نظن ذلك بعيدا ، ورجال الأعمال يدرسون أمثال هذه المشروعات

مدينة القاهرة

واشهر مدن القطر المصرى فى الاسلام الفسطاط والقاهرة ، وقــد ذكــرنا عمارة الفسطاط فى الجزء الثانى . وأما القاهرة فقد بناها القائد جوهرفىأواسط القرن الرابع للهجرة معقلا لمولاه المعز لدين الله الفاطمى وجنده . فظلت فى أثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وانما كانت العمارة للفسطاط والقطائع . وذكر المقريزى أنه كان فى هاتين المدينتين — غير القاهرة — ١٠٠٫٠٠٠ بيت ، فى بعضها

---

(١) المقريزى ١٨٢ ج ١
(*) هذا يؤيد ما قلناه فى تعليقنا السابق
(٢) المقريزى ١٨٩ ج ١

مائة انسان ومئتان،اذ يكون البيت مؤلفا من خمس طبقات أو ست أوسبع(١) ومع ذلك فهى فى تقديره لاتزيد على ثلث بغداد ، فكم تكون عمارة هذه ؟ ولما أفضت الدولة الى السلطان صلاح الدين أذن للناس بسكنى القاهرة ، فاتصلت بمدينة الفسطاط . وكانت الفسطاط تسمى « مصر » ، فلما صارتا مدينة واحدة أطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ، ثم قالوا « مصر القاهرة » ، ولما خربت الفسطاط ظل الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور (*)

الأندلس

لما فتح المسلمون الأندلس كانت عامرة آهلة ، فأقاموا فى مدنها وزادوها عمرانا ، واشهر تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه فى ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة مما سنذكره

قرطبة

هى من أعمال الأندلس ، واقعة على الوادى الكبير تستقى ماءها منه ،وكانت عامرة قبل الاسلام ويظن أنها من بناء القرطجنيين ودخلت فى حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد ، وتوالت عليها أحوال شتى حتى فتح المسلمون الأندلس واستولوا على طليطلة ، ثم جعلوا مقر الامارة فى قرطبة ، وزاد الأمويون عمارتها بما أنشأوه من القصور والمساجد والجسور وغيرها ، فاتسعت مساحتها ، وكان محيط المدينة الأصلية ٣٣٠٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب ، فنشأ حولها ٢١ ربضا فى كل ربض من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله . فصار

---

(١) المقريزى ٣٤١ ج ١

(*) تاريخ مدينة القاهرة طويل ولا يزال متصلا ، فقد اختطف عام ٩٦٩/٣٥٩ أى أنها عمرت الى الآن ٩٨٩ سنة حافلة بالتطورات والاحداث ، وقد الف الدكتور عبد الرحمن زكى فى تاريخها سلسلة من الكتب بعنوان « القاهرة » استوفى فيها تاريخها وتطورها ، ولهذا فسنكتفى بذكر أهم المراجع القديمة والحديثة :

المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، جزءان ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، وقد نشر جاستون فييت قسما من الجزء الاول فى أربعة مجلدات ، القاهرة ١٩١١ — ١٩٢٤

ابراهيم بن محمد بن ايدمر بن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الامصار ، طبعة Vollers فى خمسة أجزاء ، بولاق ١٣٠٩

ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الخامس الخاص بمصر ، نشر الدكتور زكى محمد حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥٢

السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، القاهرة ١٩٤٧

المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة ١٩٤٨

أبو المحاسن جمال الدين بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ظهر منه ٩ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٤٣ ، ابتداء من الجزء الرابع

شرف الدين يحيى بن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، نشره المستشرق موريتز ، القاهرة ١٨٩٨

على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، القاهرة ١٣٠٤ — ١٣٠٦

ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٠٦

ابن الزيات : الكواكب السيارة ، القاهرة ١٣٢٥

طولها ٢٤ ميلا وعرضها ستة أميال أو ١٤٤ ميلا مربعا (ومساحة لندن ١١٧ ميلا) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادى المذكور

وقد أحصوا مبانى هذه المدينة وأرباضها فى ابان عمرانها احصاءات مختلفة خلاصتها ان عدد الأبنية فيها كما يأتى :

عدد	
١١٣٫٠٠٠	دور الرعايا
٤٣٠	« القصر الكبير
٦٫٣٠٠	« أهل الدولة
٣٫٨٧٣	المساجد
٩٠٠	الحمامات
١٢٤٫٥٠٣	

وذكروا أن عدد الأبنية بلغ فى أيام ابن أبى عامر ٢٠٠٫٠٠٠ دار للرعية ، و ٦٠٫٣٠٠ دار لأهل الدولة ، و٨٠٫٤٥٥ حانوتا غير الحمامات والخانات (*)(١) ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة ، والأول أقرب الى الصواب . واذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفى عدد أبنية القاهرة اليوم

على انك ترى فى هذا التقسيم تمييزا بين الخاصة والعامة فى المساكن ، وأن دور الخاصة نحو ٦ فى المائة من دور العامة — على حين أن دور الأشراف فى رومية لم يزد عددها فى ابان عمرانها على ٢٫٠٠٠ دار (٢) فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد ، وأما سكانها فكانوا يناهزون المليونين ، وسيأتى الكلام على قصورها (**)

(*) وهذا التقدير يخالف الاول ، وقد روى المقرى الخبرين فى الفصل الذى عقده لقرطبة من كتابه نفح الطيب

(١) نفح الطيب ٢٥٦ ج ١

(٢) Gibbon, 1829

(**) لم يكتب بعد وصف قرطبة وتاريخها فى العربية ، وأهم المراجع العربية القديمة عنها. وتاريخها أقصر من تاريخ القاهرة ، فقد اتخذها المسلمون عاصمة الاندلس عام ٩٦/٧١٦ واستولى عليها فرناندو الثالثه ملك قشتالة فى شوال سنة ٦٣٣ / يونيو ١٢٣٦ ، أى أنها ظلت عاصمة اسلامية ٥٢٠ عاما ، ولكن تاريخها القصير حافل بالتطورات والاحداث ، وقد روى تاريخها ووصفها حتى القرن العاشر ليفى بروفنسال فى كتابه المعروف « اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر» ، باريس ١٩٣١ ، فى الفصل السادس ، ص ١٩٤ وما يليها ، ثم عاد فأكمل ذلك الوصف فى الجزء الثالث من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » ، فى الفصل الخاص بالمدن . وأهم مرجع عربى قديم فى وصفها : نفح الطيب للمقرى ، طبعة مصطفى محمد ، القاهرة ١٩٤٩ ، الجزء الرابع ، ص ٤ وما يليها ، وهناك فصول عنها فى صفة المغرب للرازى ، الترجمة الفرنسية التى نشرها ليفى بروفنسال فى مجلة الاندلس سنة ١٩٥٣ — والروض المعطار لابن

غرناطة

وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الأندلس ، لكثرة أثمارها وأعنابها وفاكهتها وتمتاز عن سائر مدائن الأندلس بنهر يتوزع على دورها وأسواقها وحماماتها وأرجائها الداخلة والخارجة وبساتينها ، كما يتوزع نهر بردى فى دمشق . وبلغت غرناطة قمة مجدها فى الدولة النصرية ، وأشهر ملوكها ابن الاحمر ، فى أواسط القرن الثامن للهجرة ، وهو الذى بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء فى قرطبة (*) . ونتقدم الى ذكر القصور والمبانى

القصور والمبانى

قال ابن خلدون : « ان المبانى والمصانع فى الملة الاسلامية قليلة ، بالنسبة الى قدرتها وبالقياس على من كان من الدول قبلها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من أسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفتن ، ونظرنا الى مابقى من أبنيتها فى مصر والشام والعراق وفارس والهند والأندلس ، رأيناها اكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف . ولعل الذى بعثه على هذا القول أن كثيراً من هذه المبانى شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك فى مصر ، وبعضها لم يتصل علمه به مما فى بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان للخلفاء والأمراء ، على اختلاف الدول والممالك ، عناية فى بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون فى هندامها واتقانها ، فضلا عن المتنزهات والحدائق مما ينفقون فيه الأموال الطائلة ، فيجلبون اليه الأغراس من أطراف المعمور ، ويتفننون فى تزيين مجالسهم بالاشعار والتصاوير المموهة بالذهب ، وبينها رسوم الحيوانات والآدميين والأزهار وغيرها مما ستراه

عبد المنعم الحميرى ومعجم الادباء لياقوت ، والمسالك والممالك لابن خرداذبة ، وصورة الارض لابن حوقل ، والمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ، وغيرها من كتب الجغرافية . ومن أهم الابحاث الحديثة عنها :

Levi Provencal. L'Espagne musulmane au Xème siècle (Paris, 1932) chap. XI, Cordoue

Ibidem. Histoire de l'Espagne musulmane, Vol. III. Paris, 1954. Index.

Manuel Gomez Moreno. Ars Hispaniae, Vol. III. Madrid, 1951.

(*) كانت غرناطة أول الامر قرية صغيرة الى جانب مدينة البيرة Elvira التى اتخذها المسلمون قاعدة للكورة التى تحمل نفس الاسم فى جنوب الاندلس ، وقد بدأت أهميتها تظهر فى عصر الطوائف عندما اتخذها بنو زيرى قاعدة لامارتهم التى كانت مملكة من ممالك الطوائف (١٠١٢ — ١٠٩٠ م) فانتقلت الاهمية من البيرة اليها وأخذت تتسع ، وبنى لها سور عظيم ، وعندما اتخذها محمد بن نصر المعروف بابن الاحمر قاعدة لمملكته فى سنة ١٢٣٢ بدأ نجم المدينة يصعد ، وانشئت فيها حصون الحمراء وقصورها ومسجدها ، وشيئا فشيئا أصبحت اعظم ما بقى فى أيدى المسلمين من بلاد الاندلس وبلغ عدد سكانها الى مليون ونصف ، وظلت معقل الاسلام فى الجزيرة حتى سقوطها فى يد فرناندو وايزبيلا ملكى قشتالة وارغون فى سنة ١٤٩٢ ، وبسقوطها انتهى أمر المسلمين فى شبه الجزيرة الايبيرية

انظر مادة غرناطة أو اغرناطة عند ياقوت وابن عبد المنعم الحميرى — كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، طبعة ليفى بروفنسال والادريسى وجغرافية ابى الفدا ، وانظر فهرس المكتبة الجغرافية

١ ــ مبانى الأمويين فى الشام

لم يصلنا من أخبار مبانى الأمويين فى الشام مايستحق الذكر الا « الجامع الأموى » الذى جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا ، فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على أن تقسم الكنيسة مناصفة : المسيحيون يصلون فى نصفها الغربى ، والمسلمون فى النصف الشرقى . فلما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك أخذالنصفين جميعا وجدد بناء الجامع ، فاستقدم نحو ١٢٫٠٠٠ صانع من بلاد الروم ، تأنقوا فى بنائه فغطوا جدرانه كلها بفصوص من الفسيفساء صبغت بأنواع الاصبغة الغريبة فمثلت أشجارا ، وفرعت أغصانا منظومة بالفصوص ببدائع الصنعة الانيقة . فأنفق فى ذلك نحو ١١٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع ، وعرضه ٢٠٠ ذراع ، قائم على ٦٨ عمودا . وأعظم مافيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع وقد زاره ابن جبير الرحالة الأندلسى فى القرن السادس للهجرة ، ووصفه وصفا مطولا وذكر تاريخه الى أيامه مما يضيق عنه المقام (١) ولا يزال هذا الجامع قائما الى الآن ، ويعد من أفخر أبنية المسلمين

وبنى الحجاج بن يوسف قبة الاسلام فى واسط ، وكانت من أفخم الأبنية وفيها يقول الشاعر :

بنى قبة الاسلام حتى كأنما   اتى الناس من بعد الضلال رسول(٢)

٢ ــ مبانى العباسيين بالعراق

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ليحول أذهان الناس عن الكعبة اليها ، وبنى الجامع والحصون والقصور فى بغداد ، كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفاء بعده فى تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراؤهم وأمراؤهم ، فأقاموا قصورا فخيمة تعرف غالبا بأسماء بانيها ، كقصور البرامكة فى الشماسية ، وقصر ابن الخصيب ، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقى من بغداد ، وقصر بنى خلف بالبصرة ، وقصر عيسى ابن على وهو أول قصر بناه الهاشميون فى أيام المنصور ، وقصر وضاح بناه رجل اسمه وضاح للمهدى العباسى ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ،وقصر ابن مقلة ، غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتى ذكرها ، ودار القرار وهى قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك. واخذت

(١) رحلة ابن جبير ٢٦٣
(٢) الكامل للمبرد ٢٨٧

رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدينة وأغرقوا في الترف والرخاء. على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها وأولهم المعتصم بالله ، فقد كان كلفا بالبناء فبنى سامرا لأتراكه وأقطعهم فيها القطائع . والمتوكل على الله كان مغرما بالعمارة ، فبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث أساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله ، منها النمط الحيرى والكمين ذات الأروقة . وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهآرونى والجوسق والجعفرى ، بذل فى بنائها جميعا أكثر من ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (١) أنفق منها على القصر الجعفرى أكثر من ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (٢) أو نحو ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المبانى عادة جرى عليها الخلفاء والاغنياء ، فضلا عن المتنزهات ، فبنى اسماعيل ابن على متنزها أنفق فيه ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٣)

قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محبا للعمارة أيضا ، فبنى قصرا فى الجانب الشرقى من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم فى أيامه فأتمه ابنه المكتفى . وكان فى مكانه قصر بناه جعفر البرمكى ثم سكنه الحسن بن سهل فسمى القصر الحسنى . فلما تولى المعتضد سنة ٢٨٩ هـ أضاف اليه ماجاوره ، فوسعه وكبره وأدار عليه سورا واتخذ حوله منازل كثيرة ودورا ، واقتطع من البرية قطعة عملها ميدانا . واخذ فى بناء قصر التاج ، فاتفق خروجه الى آمد ، فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار ، فكرهه وابتنى على ميلين منه قصرا سماه « قصر الثريا » طوله ثلاثة فراسخ أنفق فيه ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (٤) وصله بالقصر الحسنى وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سردابا تمشى فيه جواريه وحرمه وسراريه ، وما زال باقيا الى الغرق الأول الذى صار ببغداد (*) . وفى قصر الثريا يقول ابن المعتز :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ... فلا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل ... فلا زال معمورا وبورك من قصر
جنان وأشجار تلاقت غصونها ... وأورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطير فى أغصانهن هواتفا ... تنقل من وكر لهن الى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته ... كمثل نساء قد تربعن فى أزر

(١) المسعودى ٢٧٩ ج ٢
(٢) ابن الاثير ٣٣ ج ٧
(٣) ابن الاثير ٢٨ ج ٦
(٤) المسعودى ٣٢٨ ج ٢
(*) عن قصور بغداد انظر الفصل الثامن عشر من كتاب
Guy Le Strange. Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford, 1900) p. 262-282

وأنهار ماء كالسلاسل فجرت   لترضع أولاد الرياحين والزهر
عطايا اله منعم كان عالما   بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

ولما توفى المعتضد قام ابنه المكتفى سنة ٢٨٩ هـ فأتم بناء قصر التاج ، وكان وجهه مبنيا على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين فى خمسة أذرع (١)

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله فى أول القرن الرابع دارا فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة فى وسط بركة كبيرة أمام ايوانها وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير . وفى جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا ، ومثلها عن يسار البركة قد ألبسوا أنواع الحرير المدبج ، مقلدين بالسيوف وفى أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه (٢)

وفى دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية ، أنفق فى بنائه ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ومود سقفه بالذهب ــ ذكروا أنهم لما ارادوا هدمه بذلوا فى حك الذهب من سقفه ٨٫٠٠٠ دينار (٢) ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن (*)

---

(١) معجم ياقوت ٨٠٦ و ٩٢٤ ج ١
(٢) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣
(*) عن بغداد أنظر : اليعقوبى ، كتاب البلدان لاحمد بن محمد بن أبى يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبى ، طبعة جوينبول T.G.J. Juynboll ، ليدن ١٨٦٠ ص ١ ــ ٢٨
ابن سرابيون : صفة الجزيرة وبغداد نشره وترجمه الى الانجليزية Guy Le Strange فى مجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٨٩٥
الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣٢ الجزء الاول . وقد ترجم معظم هذا الجزء G. Salmon بعنوان Introduction topographique de l'histoire de Baghdad
الفصل الخاص ببغداد من المسالك والممالك للاصطخرى ، وصورة الارض لابن حوقل ، وأحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم للمقدسى
رحلة بنيامين التطيلى : طبعة عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥
حمد الله مستوفى : نزهة القلوب ، طبعة بومباى ١٨٩٤/١٣١١ Voyage en Arabia
ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ ، مادة بغداد
رحلة ابن بطوطة طبعة Defrémery et Sanguinetti جـ ٢ ص ١٠٠ ومايليها
وأهم المؤلفات الحديثة :
Guy Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate. Oxford 1900
Tavernier, Les six voyages. Utrecht C. Niebuhr, Reisebeschreibung
ترجمه الى الفرنسية بعنوان Voyage en Arabie.

٣ ــ مبانى الامويين بالاندلس

اما الأندلس فقد بنى بها آلَ مروان قصورا سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقيا الى اليوم ، وأكثرها فى قرطبة وغرناطة ــ فمنها فى قرطبة :

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان ، شرع فى بنائه عبد الرحمن الداخل فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، واتمه من جاء بعده وبنوا القصور فى داخله . وقد رأيت عند ذكر ابنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ دارا ، بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص ، كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والبديع . وقد غالوا فى زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والاحواض ، جلبوا اليها الماء فى قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال ، حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها ، وفى ساحاتها ونواحيها بواسطة تلك القنوات التى تؤديها الى المصانع (أى المنشآت) ، هذا الى صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ، الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الصور الجميلة على أشكال بديعة (١)

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ، ذكروا أنه لم يكن فى بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء ، وكان فى مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الأموى فى دمشق ، ثم أخذوا فى توسيعه والزيادة فيه بأنقاض الكنائس على توالى الأجيال . وأعجب مافيه صومعته أو المئذنة ، قالوا لم يكن فى مساجد المسلمين صومعة تعدلها ، بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعا ، والى أعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعا ، وعرضها فى كل تربيع ١٨ ذراعا

وتدرج الجامع فى الاتساع بتوالى التجديد فيه ، حتى بلغت مساحته فى أيام

ونشر فى امستردام ١٧٧٦ ــ ١٧٨٦ ــ وترجم الى العربية ونشر فى مجلة سومر سنة ١٩٥٤
J. F. Jones, Memoire on the Province of Baghdad in Selections from the Records of the Bombay Government. Number 43 new series pp. 304 sqq. M. Streck, Die Alte Landschaft Babyloniens,
Sarre und Herzfeld, Archaelogische Reise im Euphrat und Tigris gebiet
C. Huart, Histoire de Baghdad dans les temps modernes.

(١) نفح الطيب ٢١٩ ج ١

الخليفة الناصر ٢٢٥ ذراعا فى ٢٠٥ أذرع ، وزاد الحكم فى طوله مائة ذراع وخمسة اذرع فصار طوله ٣٣٠ ذراعا ، وزاد ابن أبى عامر فى عرضه ثمانين ذراعا فصار ٢٨٥ ، وأرضه مرصفة باحدى عشرة بلاطة ، الوسطى عرضها ١٦ ذراعا ، وعرض كل واحدة من الست الباقية ١١ ذراعا ، وزاد ابن أبى عامر ثمانى بلاطات عرض كل واحدة عشرة أذرع (*) . وكان سقفه قائما على ١٢٩٣ سارية من الرخام ، وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا ، منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة . وكان فى وسط الجامع تنور نحاس يحمل ألف مصباح

وكان للجامع تسعة أبواب مصفحة بالنحاس الأصفر ، الا باب المقصورة فانه من الذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء . وفى رأس الصومعة ثلاثة تفافيح ، دور كل تفاحة ثلاثةاشبار ونصف ، اثنتان من الذهب الابريز وواحدة من الفضة . وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على راس الزج . وكان فى بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان ، وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت ، وفوقه أغشية الديباج . وهو موضوع على كرسى من العود الرطب بمسامير الذهب . وقد أفاض صاحب نفح الطيب فى وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك (١) وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة فى حوزة الافرنج الى كنيسة ، ولا يزال على بنائه الاسلامى وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية (**)

قصر الزهراء

ومن قصورهم فى قرطبة « الزهراء » ، بدأ بانشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على أربعة أميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة . وهى عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٫٧٠٠ ذراع وعرضه ١٫٥٠٠ ، وعدد أعمدته أو سواريه ٤٫٣٠٠ سارية ، بعضها حمل الى قرطبة من روما وافريقية وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردى والمجزع . وكان فى الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق ، على نحو ماتقدم فى وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها ،وأحواض

(*) الاصح هنا ان يقال : وكان عرض المسجد احدى عشرة بلاطة ، الوسطى منها اعرض من الباقيات ، اذ ان عرضها كان ١٦ ذراعا اما الباقيات فكان عرضها ١٤ ذراعا ، اما فى الطول فكان عدد البلاطات اثنتى عشرة . والمراد بالبلاطة هنا الجزء من البناء الذى يقع بين عمودين ويدور عليه من أعلى قوس واحد

(١) نفح الطيب ٢٦٠ ج ١

(**) المراجع عن مسجد قرطبة الجامع كثيرة مابين قديمة وحديثة ، وقد اجملنا وصفه وأتينا بالنصوص الخاصة بذلك والمراجع التى اعتمدنا عليها فى مقالنا عن تطور العمارة الاسلامية فى الاندلس ، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس، المجلد الاول سنة ١٩٥١ ص ١٩٢-٢١٢.

الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، فى جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان ، جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر فى بيت المنام بالمجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالى مما صنع بدار الصناعة فى قرطبة ، بصورة أسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجرى الماء من أفواهها (١)

ووكل الناصر النظر فى بناء هذه القصور الى ابنه الحكم بعده . وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة ، وكانت ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء . وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلو فرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر فى نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما انفق على الزهراء أكثر من ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر أن الانفاق السنوى لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة الا فى بضع سنين ، وأما فى سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيرا (*)

وقد ورد فى مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها فى أيامه ٣٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة ، فاذا حسبنا ما انفقه ابنه الحكم فيما بقى من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما انفقه هو بالاضافة الى المقدار السنوى المذكور — كان مجموع ما دخل فى بناء هذه المدينة نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار على الاقل . ولا غرابة فى ذلك ، لأننا اذا اعدنا النظر فى تفاصيلها رأينا فيها ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيها شيئا كثيرا من الذهب حتى جعلوا بعض قرميدها منه . وقد كان يتصرف فى بنائها من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و ١٫٥٠٠ دابة . وأغرب من كل ذلك أن الناصر انما عمد الى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه أن يبنى مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢)

---

(١) نفح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢

(*) انظر عن مدينة الزهراء التى ابتناها عبد الرحمن الناصر وأتمها ابنه الحكم المستنصر ومدينة الزاهرة التى بناها المنصور محمد بن ابى عامر

Ricardo Velasquez Bosco, Medina Azzahra y Alamiriyya (Madrid, 1912)

والمراد بالعامرية هنا مدينة الزاهرة التى بناها المنصور محمد بن ابى عامر ، وهى منسوبة اليه ، وتسمى أيضا مدينة المنصور . وقد أكمل ابحاث بلاسكث بوسكو الاستاذ ليوبولدو توريس بالباس فى القسم الذى كتبه عن العمارة الاندلسية الى نهاية الخلافة فى المجلد الخامس من تاريخ اسبانيا الذى يشرف على تحريره رامون منندذ بيدال . وهذا الجزء نصفه الاول ترجمة اسبانية للمجلد الثالث من تاريخ اسبانيا الاسلامية لليفى بروفنسال ، والثانى دراسة عامة عن الفن الاندلسى الى نهاية عصر الخلافة . وانظر أيضا :

Manuel Gomez Moreno, El arte arabe espanol hasta los Almohades Vol. 3 Ars Hispaniae. Madrid, 1951.

(٢) نفح الطيب ٢٤٨ ج ١

الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبى عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هـ قصرا (*) لاقامته سماه «الزاهرة» ليكون معقلا له يحميه من أعدائه ، فأقامه فى طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ فى رفع أسواره وجعل فيه أبنية كثيرة من جملتها أهراء ودواوين ، وأقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق ، فقامت الأسواق وتنافس الناس فى النزول فى أكنافها تقربا من صاحب الدولة ، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا فى هذا المقام الاشارة الى القنطرة الفخيمة التى اقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ثم سقطت فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقى ، وطولها ٨٠٠ ذراع ، وعرضها عشرون ذراعا ، وارتفاعها ٦٠ ذراعا ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وأبراجها ١٩ برجا (١) (**)

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير فى غرناطة لا يزال شكله محفوظا الى الآن يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الأحمر فى أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم فى أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها ، وفى هذا القصر كانت بركة السباع ، وفى وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل (***)

وبنى المنصور بن الأعلى قصرا فخيما فى بجاية ، انشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها فى الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التى ذكرنا انها نصبت فى قصر المقتدر العباسى عند كلامنا عن أبنية العباسيين . وقد نظم أحمد بن حمديس الشاعر الاندلسى قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الاسود قال منها :

(*) يصف المؤلف الزهراء والزاهرة على انهما قصران ، والحقيقة انهما كانتا ضاحيتين لقرطبة فى كل منهما القصور والمساجد ودور للادارات الحكومية

(١) نفح الطيب ٢٢٦ ج ١

(**) واعيد بناء القنطرة مرة أخرى ايام هشام بن عبد الرحمن الداخل واصلحها الحكم المستنصر والمنصور بن ابى عامر

(***) بدىء فى بناء قصور الحمراء فى ايام ابى الحجاج يوسف بن اسماعيل بن نصر ، سابع سلاطين بنى الاحمر (٧٣٣ - ١٣٣٢/٧٥٥ - ١٣٥٤) واجتهد فى استكمالها ابنه ابو عبد الله وحفيده محمد الخامس الملقب بالغنى بالله (٧٥٥ - ١٣٥١/٧٩٣ - ١٣٩٠) ومن جاء بعدهم انظر عنها مقالنا الانف الذكر عن تطور العمارة الاندلسية ، ص ٢٢١ وما يليها

وضراغم سكنت عرين رياسة / تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها / وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك / فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما / أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها / نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول / ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه / درعا فقدر سردها تقديرا (١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذى النون الأندلسى ، فانه أنفق فى بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق راس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكبا لا يفتر والمأمون قاعد فيها (٢)

٤ ـ مبانى مصر

مبانى آل طولون

انشأ بنو طولون فى مصر أبنية اشهرها الجامع الذى بناه احمد بن طولون ، لا تزال آثاره الى الآن بالقاهرة . والقصر الذى بناه فى القطائع وجعل له ميدانا كبيرا ، ولما توفى أحمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كلهبستانا زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، ونقل اليه الشجر اللطيف الذى ينال ثمره القائم (أى الرجل الواقف) ومنه ما يتناوله الجالس من اصناف خيار النخل . وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران وكسا اجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ،وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر الى فساق معمولة ،ويفيض منها الماء الى مجار تسقى سائر البستان . وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لاتزيد ورقة على ورقة . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والازرق والاصفر الجنوى العجيب . وأهدى اليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستطرف ويستحسن . وبنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص ،

(١) نفح الطيب ٢٢٣ ج ١
(٢) سراج الملوك ٥٠

وزوقه بأصناف الاصباغ وبلط أرضه وجعل فى تضاعيفه أنهـارا لطافا جداولها يجرى الماء مدبرا من السواقى التى تدور على الآبار العذبة ويسقى منها الأشجار وغيرها . وسرح فى هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الانهار الجارية فى البرج ، وجعل فيه أوكارا فى قواديس لطيفة ممكنة فى جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيدانا ممكنة فى جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضا بالصـياح . وسرح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئا كثيرا (*)

وعمل فى داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلهـا بالذهب المحلى باللازورد المعمول فى احسن نقش واظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين . والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة ، وهى مسمرة فى الحيطان ولونت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ،فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا

وجعل بين يدى هذا البناء فسقية ملأها زئبقا . وذلك انه شكا طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتدليك فأنف من ذلك وقال : « لا أقدر على وضع يد احد على » فقال له : « تأمر بعمل بركة من زئبق » فعمل بركة يقـال انهـا خمسون ذراعا طولا فى خمسين ذراعا عرضا وملأها من الزئبق فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة . وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة ، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة ، وعمل فرشا من ادم (أى جلد) يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التى فى حلقة الفضة بسكك الفضة ، وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم ماسمع به من الهمم الملوكية يرى لها فى الليالى المقمرة منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزئبق (١)

مبانى الفاطميين

ولما افضى الأمر الى الفاطميين بنوا فى القاهرة الجامع الأزهر ، وهو عامر الى

(*) انظر صفة ذلك بالتفصيل فى النجوم الزاهرة لابى المحاسن ، المجلد الثالث الفصل الخاص بخمارويه بن احمد بن طولون

(١) المقريزى ٣١٦ ج ١

اليوم ، وقصورا أشهرها القصران الشرقى والغربى ، وانفقوا على الاخير منهما ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (١) فقس على ذلك ما انفقوه فى سائر القصور والدور ، كدار الفطرة ودار الديباج وغيرهما . ولما استبحر عمرانهم تفننوا فى بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطىء النيل ، كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الغزالة بجانبها ، ومنظرة السكرة ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة (*) دار الملك ، غير المتنزهات العظيمة والقصور الفخيمة فى الجزيرة والروضة ، كالقصر الذى بناه الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية وسماه الهودج

وكانوا يتأنقون فى زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقا عظيما يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء ، كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر أبيات نظمها فى ذكر المنظرة ، وبجانب كلٍ صورة رف لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن يحط على كلٍ رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا ،فيدخل الشاعر ويأخذ صرته (٢)

مبانى الايوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة الى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ،بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ، ولا تزال قائمة الى اليوم

ومعظم مافى مصر الآن من الآثار البنائية انما هو من أعمال السلاطين المماليك ولاسيما المساجد ، كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباى وقلاوون وغيرها . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم ، وان نسبت الى الخلفاء بالاسم ، غير ماأندثر من قصورهم . وكانوا يقلدون الفاطميين فى زخرفها كالرفرف الذى بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجيزة كلها ، وصور فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه ، وقصر يلبغا ، بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة ، وغيرها

---

(١) المقريزى ٤٥٧ ج ١

(*) المنظرة هى الغرفة الفسيحة يعمل الحائط المطل منها على النيل او الحديقة من الزجاج وتفتح فيه ابواب تؤدى الى شرفة واسعة ، أى أنها كانت أقرب شىء الى مانسميه اليوم terasse او esplanade ومن لفظ منظرة جاء اللفظ العامى « منظرة » بمعنى حجرة

(٢) المقريزى ٤٨٦ ج ١

الثروة والرخاء ونتائجهما

واشتغال الخلفاء والأمراء بانشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات انما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود فى بيوت الأموال ، فتنتقل الى رجال الدولة وغيرهم على مابيناه فى نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالا لأنه قابض على بيت المال ، يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالأتباع والتجار وغيرهم ، واليك أمثلة من ذلك

ثروة الخلفاء وأهليهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها الى الوزراء تحولت الثروة اليهم وأصبح الخلفاء أحيانا مثل سائر الفقراء (١) والاصل فى ثروة بيت المال ان تكون للدولة تنفق فى مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به . ولكن الخلفاء تصرفوا فى أموال الدولة أولا لاعتبارهم انفاقها مساعدا على تأييدها ، ثم انفقوها فى الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرجوا الى بذلها فى ملذاتهم وسائر أسباب تنعمهم . وكان يبقى مع ذلك فى بيوت الأموال شيء كثير . وقد بينا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب مقدار مابقى منها فى خزائن الخلفاء الأولين من بنى العباس : المنصور والمهدى والمعتصم والمستعين والمكتفى وغيرهم ، وما صار اليهم من الضياع الكثيرة ، وذكرنا مابلغت اليه ثروة أمهات الخلفاء ولاسيما الخيزران أم الرشيد وقبيحة أم المعتز وغيرهما ، فلا حاجة الى التكرار . وانما نأتى ببعض التفصيل على سبيل المثال — ذكروا أن المكتفى خلف ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار هذا تفصيلها (٢)

دينار	
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	من العين والورق (أى الفضة) والأوانى المعمولة
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الفرش
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الكراع والسلاح والغلمان
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الضياع والعقار والاملاك
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الجوهر والطيب وما يجرى مجراهما

(١) الجزء الثانى من هذا الكتاب
(٢) لطائف المعارف ٧٢

وذكرنا فى الجزء الثانى أيضا سبب ثروة الوزراء ومقادير الأموال التى حصلها الحسن بن الفرات والمادرائى وابن كلس والأفضل وابن شهيد الاندلسى واليك أمثله أخرى :

أول من أثرى من الوزراء البرامكة فى عهد الرشيد ، فكثرت ضياعهم (الابعديات والجفالك) (*) حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة . ولما نكبوا وقبضت أموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣٠٫٦٧٦٫٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش (١) ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر ، وقد أثرى منهم جماعة كبيرة كآل المادرائى(**) فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، فملك أحدهم محمد بن على المادرائى ماقيمته ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والأمتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب . وكانت غلته ٤٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة (٢) وهو مع ذلك لايعد شيئا بالنظر الى البرامكة . ومثلهم آل المغربى وآل الكتامى بمصر أيضا

(*) الابعدية هى الضيعة او العزبة ، وهو لفظ عامى مصرى ، والجفلك هو الضيعة باللغة التركية

(١) العقد الفريد ٢٢ ج ٣

(**) فى الاصل الماردانى والصحيح المادرائى ، وقد جاء الخطأ من نسخة « الخطط » التى رجع اليها المؤلف . والمادرائيون اسرة فارسية الاصل ، أصلها من مادرايا ، وفد أول رجل منهم الى مصر أيام أحمد بن طولون على الاغلب ، ودخل فى خدمة الدولة وارتقى فى مناصبها ثم استدعى أقاربه ، فتكاثروا فى مصر

وقد عظم أمر المادرائيين فى مصر خلال العصرين الطولونى والاخشيدى وما بينهما ، وبسطوا أيديهم على الشئون المالية للبلاد ، فكانوا أشبه بوزراء المالية ، وربما لقب بعضهم بالوزير . وكانوا يضمنون جبايات مصر للحكام بمبالغ لايستطيع غيرهم التقدم بها ، وكانت لهم من المعرفة بشئون البلاد الخراجية والمالية مايمكن لهم من جمع المبالغ التى يرتبطون بها ، وكان هذا سر قوتهم ، اذ لم يكن أحد من الحكام يستغنى عنهم ، وظلوا مسيطرين على ماليات مصر سبعين سنة انتهت بدخول الفاطميين مصر . واهم رجال هذه الاسرة :

١ ــ أحمد بن ابراهيم أو محمد بن أحمد بن ابراهيم المادرائى تولى خراج مصر سنة ٢٦٦ هـ /٨٧٩ شركة مع على بن الحسين بن شعيب المداينى ، وقد ولاه الخراج أحمد ابن طولون

٢ ــ على بن أحمد المادرائى ، وهو أخو الاول أو ابنه وكان يعينه فى عمله ، وقد أصبح كبير البيت وعميد الاسرة أيام خمارويه بن أحمد بن طولون

٣ ــ أبو بكر بن على بن أحمد بن المادرائى السابق ذكره ، وهو أكبر رجال البيت قاطبة ، وظل المسيطر على شئون مصر المالية حتى وفاته فى سن الخامسة والثمانين باستثناء فترة ١٤ عاما

٤ ــ ابو على الحسين بن أحمد المادرائى عم ابى بكر السابق ذكره ويلقب بأبى زنبور ، وهو يلى أبا بكر فى الاهمية والكفاية

أنظر فصل « المادرائيين » من كتاب « مصر فى عهد الاخشيديين » للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٧ ــ ٥٢

H., Gottschalk, Die Madarijjun (Berlin und Leipzig 1931).
Wuestenfeld, Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen, Gottingen 1875
Zaky M. Hassan, Les Tulunides, Paris 1933

(٢) المقريزى ١٥٥ ج ٢

أما العمال والأمراء فقد كانوا يحشدون الأموال الكثيرة ، ولاسيما المفوضين منهم ، ويسهل ذلك عليهم لاطلاق أيديهم فى مصادر الجباية فيجمعون ماشاءوا وكيف شاءوا . وقد اثروا وكثرت أموالهم من أيام بنى أمية قبل زمن الوزراء، فخلف عمرو بن العاص سبعين بهارا من الدنانير — والبهار أردبان بالمصرى — ذهبا (١) وبلغت غلة خالد القسرى ١٣،٠٠٠،٠٠٠ درهم (٢) وصاروا فى عهد بنى العباس أوفر ثروة ، ولاسيما بعد أن طمعوا فى الاستقلال ، فخلف يعقوب ابن الليث الصفار فى بيت ماله ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم و ٤،٠٠٠،٠٠٠ دينار (٣) وقس على ذلك أموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم . وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلى تقدر بالأرطال والقناطير والصناديق — مثال ذلك ما خلفه الأمير سيف الدين تنكز التسترى منها ١٩ رطلا من الزمرد والياقوت ،وستة صناديق جواهر وفصوص الماس ، و ١،٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال ، و ٢٤٠،٠٠٠ مثقال ذهب ، و ١٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم فضة، وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور ، وستة قناطير فضيات ، و ١،٢٠٠،٠٠٠ دينار . فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين والمماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم

غير ثروة الحواشي والأتباع ، ممن اثرى بالصناعة والأدب أو التجارة ، فقد ذكرنا ثروة بعض التجار فيما تقدم ، فاعتبر ذلك فى سواهم من الأطباءوالمغنين والشعراء ، فان ابراهيم الموصلى مغنىالرشيد توفىعن ٢٤،٠٠٠،٠٠٠درهم (٤) وذكرنا فى باب الرواتب من الجزء الثانى ما كان يقبضه جبرائيل بن بختيشوع طبيبه

نتائج الثروة

من قواعد العمران اذا تكاثرت الأموال فى أيدى الناس أن يتوسعوا فىالانفاق ويتنعموا بمعيشتهم ، فيتأنقوا فى الطعام والشراب والسماع وغيرها منالملذات الجسدية ، ويتنعموا بالألبسة الثمينة والرياش الفاخر . ثم يطلبوا الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء المجوهرات والعقارات ، ويلتمسوا سعة الشهرة فيقربوا من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار فى ذلك العهد ، كما يفعل بعض أغنياء زماننا بالتقرب من أرباب الصحافة . ونقسم الكلام فىهذا الباب الى فصول :

---

(١) المقريزى ٣٠١ ج ١
(٢) ابن الاثير ١٠٣ ج ٥
(٣) المسعودى ٣١٤ ج ٢ وابن خلكان ٣١٩ ج ٢
(٤) سير الملوك ١١٣

١ ــ التأنق فى الطعام

قد رأيت فى كلامنا عن أطعمة العرب أنها كانت ساذجة قليلة ، ثم تعددت بعد الاختلاط بالأعاجم ولا سيما الفرس . والعرب قلدوا الفرس فى أكثر أسباب الحضارة فضلا عن نظام الحكومة . فكانوا اذا أحوجهم الاحتفال بعيد أو عرس أو ختان سألوا عما يفعله الفرس فى مثله وقلدوهم فيه ــ هموا بذلك من عهد الأمويين ، وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التنعم اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم . فأبو موسى الأشعرى كان يتجافى عن أكل الدجاج لان العرب لم يعهدوا ذلك . وكانوا يتجنبون الاكثار من أكل اللحوم ويعتقدون أضرارها ، نحو ما يعتقده النباتيون اليوم تمثلا بما قاله عمر بن الخطاب : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . فلما حكم الأمويون ومالوا الى التنعم كان الفرس أحسن مثال لهم . وأراد غير واحد من أمراء العراق تقليدهم فى ذلك ، ولكن البداوة كانت تتغلب عليهم فيرجعون . ذكروا أن الحجاج بن يوسف أولم لختان أحد أولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال : « أخبرنى بأعظم صنيع شهدته » فقال : « شهدت أيها الأمير بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعا أحضر فيه صحائف الذهب على أخونة الفضة أربعا على كل واحد ، وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس ، فاذا أطعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك أكبره وغلبت عليه البداوة فقال : « ياغلام انحر الجزر وأطعم الناس .. » (١)

على أنهم مالبثوا أن رضخوا لتيار الترف وتكيفوا لموافقة البيئة التى تحف بهم ، فبعد أن كانوا يحسبون الكافور ملحا والأرز طعاما مسموما والخبز المرقق كاغدا ، وبعد أن أكلوا العلهز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالتها(٢) فاقوا الفرس والروم فى التأنق والتنعم ، فتفننوا فى معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماسا للمزيد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بنى هاشم اذا جلسوا الى الطعام يقف الاطباء بين أيديهم ومعهم البرانى (*) بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية فى الشتاء على اصطلاحهم فى ذلك العصر . ويقفون فى الصيف ومعهم الأشربة الباردة والجوارشنات الموافقة لذلك الفصل (٣) واقتدى بهم سائر الأمراء وأهل الدولة فكانوا يستشيرون الأطباء ويستعينون بهم فى حفظ صحتهم ، حتى فى أثناء

---

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١

(٢) ابن خلدون ١٧٠ ج ١

(*) البرانى جمع برنية ، وهى الاناء الصغير . والجوارشنات مساحيق كانوا يتعاطونها لتسهيل الهضم

(٣) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١

الطعام وهم على المائدة ، وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيبا أرزاقهم جارية

وغالى الخلفاء فى استحضار ما اشتهر بطيبه من ألوان اللحوم والطيور والفاكهة ولو بعد مكانه ، فيحملونه على البريد ينفقون فى ذلك الأموال الكثيرة (١) وكانوا يربون الطيور الداجنة على أطعمة مغذية يتوهمون أنها تزيد فى لذةطعمها أو نفعها أو تسهل هضمها . فكانوا يعلفون الفراريج الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب (٢) وتفنن الطهاة فى اصطناع الأطعمة التى يظنون فيها الغذاءالكثير أو النفع الصحى ، وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة فى الاحتفاء ، كما فعل ابراهيم ابن المهدى فى زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له أطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه ، فسأله الرشيد عن ذلك فقال : « يا أمير المؤمنين هذه ألسنة السمك » وقدرت نفقة مافى ذلك الجام بألف درهم (٣) وقس عليه تفننهم فى اصطناع الفالوذج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل

فاتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع فى النفقة عليها ، حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس ، وبلغت علوفة البط وحدها على أيام المقتدر العباسى ٣٠ قفيزا من الشعير كل شهر (٤) فاعتبر كم يحتاج اليه احدهم اذا أراد نقل مطبخه من الدواب لحمله . ذكروا أن عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل (٥) وكان للخليفة المقتفى العباسى ثمانون جملا تحمل الماء من دجلة لشرب عياله (٦) وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له ، على أنهم كانوا يجعلونه أضعاف ما يحتاجون اليه مخافة أن يطرقهم أضياف ، فكانت الأطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها (٧)

فنتج من الانغماس فى الأكل والتفنن فى التشويق اليه كثير من علل القناة الهضمية ، توالت على أهل الترف فى ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا ، وغيرها من عواقب النهم فى اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما وتسلطت السويداء على أمزجتهم ، وتولتهم حدة المزاج فجرهم الغضب الى

---

(١) لطائف المعارف ٩٥ وابن بطوطة ٣ ج ٢
(٢) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١
(٣) المسعودى ١٩٩ ج ٢
(٤) تاريخ الوزراء ٣٥١
(٥) الفخرى ٢٣٢
(٦) الفخرى ٢٧٦
(٧) المقريزى ٣١٨ ج ١

سرعة الفتك والقتل من تغلب السويداء ، كما يتضح من مراجعة أخبارهم . وعلة ذلك فى الغالب فساد الهضم . واشتهر من الخلفاء والأمراء غير واحد من الأكلة ، منهم فى أيام بنى أمية معاوية بن ابى سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بنى العباس محمد الأمين (١)

٢ ــ البذخ فى الألبسة

كان المسلمون فى صدر الاسلام يتوخون الخشونة فى العيش والتعفف فى المطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى فى الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع الى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ وفى رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف وفى يده درة يستوفى الحد بها (٢) . وكان عمالهم فى مثل حالهم ، اذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم بعمامة دكناء واحتذى خفين ودخل عليه (٣) وأول من اتخذ زى الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميرا فى الشام . وقدم عليه عمر بن الخطاب فى اثناء ذلك فلما رآه فى أبهة الملك أنكرها عليه وقال له : « أكسروية يا معاوية ؟ » (٤)

ثم تحضروا وكثرت الأموال بين أيديهم وخالطوا أهل الترف من الاعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدنية الى التبسط فى العيش والتنعم باللباس . وأحب الامويون الوشى كما تقدم ، واكثرهم رغبة فى لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢,٠٠٠ قميص وشى و ١٠,٠٠٠ تكة حرير . وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل (٥) وفى أيامهم تسابق الصناع الى اجادة الوشى . وزاد المسلمون بذخا فى أيام بنى العباس ، ورغب أهل التجارة فى حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التى يصنع فيها ، على نحو مابيناه فى كلامنا عما يحمل من اصناف التجارة الى بغداد

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز ، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الارانب (٦) والابريسم حرير خالص ، والديباج نسيج حريرى موشى بالقصب باشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطنى ثمين وغير ذلك من اصناف الحرير والكتان والأودارى ، والملحم والمعلم والمنير

---

(١) المسعودى ٢٦٧ ج ٢ والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢
(٢) الفخرى ٢٥ و ٦٦
(٣) العقد الفريد ٦ ج ١
(٤) ابن خلدون ١٦٩ ج ١
(٥) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢
(٦) الف باء ١٨٧ ج ٢

ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف ، ومايلحق ذلك من أنواع السمور والقاقم وغيره ــ يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصناعات ويغالون في ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدى الناس ولاسيما الخليفة وأهل دولته . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الالبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقى خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها . وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ . وقد تزيد على أضعاف حاجتهم اليها فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولاسيما الخلفاء ــ مثاله ماخلفه المكتفى بالله من الألبسة وهو :

عدد	
٤ر٠٠٠ر٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣ر٠٠٠	« الأثواب الخراسانية المروية
٨ر٠٠٠	« الملاءات
١٣ر٠٠٠	« العمائم المروية
١ر٨٠٠	« الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب
١٨ر٠٠٠	« البطائن التى تحمل من كرمان فى انابيب القصب
١٨ر٠٠٠	« الأبسطة الارمنية

وتوفى ذو اليمينين وفى خزانته ١ر٣٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا فى كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقى ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا فى تركته ألف سروال ديبقى بألف تكة حرير

وغالوا فى البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة ، وكان الفاطميون يلبسون الفيلة اجلة فى الخسرواني الاحمر المذهب (*) . وكان فى القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع أنواع الثياب والبز ، ويكسون بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصل المقريزى ما تحويه تلك الدار من الالوان والاشكال (١) ولما جهز خمارويه ابنته قطر الندى الى الخليفة المعتضد العباسى كان من جملة الجهاز الف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير (٢) وقس عليه سائر الملابس

(*) أى يجللونها بالخسرواني الاحمر المذهب
(١) المقريزى ٤٠٩ ج ١
(٢) المقريزى ٣١٦ ج ١

٣ ـ الأثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الأرض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم ، فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس فى قصره على الأرض مع العرب ، ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الأيدى لجلوسه شأن الملوك يومئذ ، فيجلس عليه وهو على ماتقدم ، وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحا لأبهـة الملك . فما لبث المسلمون أن تحضروا وأثروا حتى اتخذوا الأسرة من الذهب والعاج وفاقوا الاكاسرة والقياصرة قبلهم . وأول من اتخذ السرير فى الاسلام معاوية بن أبى سفيان ، ويريدون بالسرير المقعد أوالكرسى الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك الا بعد استئذان المسلمين ، واعتذر بثقل جسمه فزعم أنه بدين ، فأذنوا له فاتخذه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء (١)

الاثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح فى زمن الراشدين كان أكثر مالقوه من الفـرش الفاخر والمجوهرات الثمينة فى فارس وعند فتح المدائن ، فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته . ذكروا بدويا ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوى مبلغا عظيما فلم يدر قيمته ، فاشتراه منه بعضهم بألف درهم ثم علم أنه كان يساوى أضعاف ذلك المبلغ فلامه أصحابه على تفريطه به فقال : « لو عرفت عددا أكثر من الألف لطلبته » (٢)

وكان فى جملة ماعثروا عليه فى المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجوهر ، وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر . وظفر آخرون بسفطين فى أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته (*) الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضـة مكلل بالجوهر ، وفى الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكلل بالجوهر . ووقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعا فى ٦٠ مطرز بالصور وعليه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة ، وخلال ذلك فصوص كالدر وفى حافته كالارض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع ، والورق من الحرير على قضبان الذهب والفضة وثمره الجوهر . وحمل هذا البساط الى عمر فى المدينة فقطعه وفرقه فى أصحابه مثل سائر الغنائم (٣)

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجوهر بكى لما كان يخافه من

---

(١) ابن خلدون ٢١٧ ج ١
(٢) الفخرى ٧٤
(*) أى صدره
(٣) ابن الاثير ٢٥٥ ج ٢

مصير المسلمين الى الترف المؤذن بالانحدار . وكذلك أبو بكر الصديق ، وله السبق فى نصرة الاسلام والفضل فى تأييده ، فلما حضرته الوفاة وبخ المهاجرين وخوفهم وقال : « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبى (صلعم) قبلهما نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب (١) فلم ينفعهم ذلك كله ، فما كادوا يأخذون بأطراف الحضارة حتى انغمسوا فى أسباب التنعم بالفرش الوثير والرياش الفاخر

بدأ بذلك الأمويون لما تقدم من رغبتهم فى الدنيا وتحويلهم الخلافة الى الملك ، فأكثر خلفاؤهم المسرفون ولاسيما الوليد بن يزيد من عقود الجوهر يغيرها فى كل يوم كما تغير الثياب ، وكان يجمعه من كل وجه ويغالى فيه حتى اغلاه (٢) على أنهم اقتصروا من أسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم فى البقاء على البداوة. الا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التى كانت تصنع لهم فى مصر كما تصنع للروم من قبل ، عليها طراز باليونانية مفاده البسملة عند النصارى (٣) فأبدلها عبد الملك بالطراز العربى بصورة التوحيد . غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة

الأثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا الى الترف فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقتنوا الأسرة الذهب المرصعة بالجوهر أو الابنوس المطعم بالعاج ، واتخذوا المقاعد والنمارق والكراسى ، ونصبوا منائر الذهب أوقدوا فيها الشموع من العنبر ، وعلقوا الستور المطرزة والموشاة ، وافترشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت (٤) وغالوا فى اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته وأثمنها فحملوا الستور المعلمة من فسا ، والبسط والمصليات من تستر وبخارا ، والحصر من عبادان ، والمقاعد من دشت — على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من ارمينية . والطاقم الأرمنى — وهو عشر مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها وبساطها — يساوى خمسة آلاف دينار (٥) وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة وأكثره وارد فى الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه فى كلامنا عن التجارة من هذا الجزء . ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به

(١) الف باء ١٨٧ ج ٢
(٢) الاغانى ١٢٩ ج ٦
(٣) الدميرى ٥٨ ج ١
(٤) ابن خلدون ١٤٥ ج ١
(٥) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١

المثل بالرقة والصفاء فيقال ارق من زجاج الشام واصفى من زجاج الشام (١)ـ اتخذوا ماتقدم من الآنية والمفروشات تقليدا للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عربوها فجعلوا ماينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة (٢) ويزركشون البسط والطنافس فيرسمون فى أواسطها أشكالا وصورا مما فى البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أبياتا من الشعر وربما طرزوا دور البساط (أى حافته) بقصيدة (٣) وغالوا فى الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور واطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها ـ يتفاوت ذلك شكلا ومقدارا بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحرير الى المزركش بالقصب فالمحلى بالذهب فالمرصع بالجوهر ـ كالبساط الذى كان لأم المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب واعينها يواقيت وجواهر انفقت فى صنعه ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم (٤)

واحدث العباسيون فى عهد الرشيد أشكالا من الفرش وفنونه لم يسبقهم اليها أحد ، منها ماينسبون اختراعه الى زوجته زبيدة ، فقد ذكروا أنها أول من اتخذ القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج وانواع الحرير الاحمر والاصفر والاخضر والازرق (٥)

واخترع العباسيون المذاب وهى نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم (٦) وتفننوا فى تزيينها وكتابة الأشعار عليها مما يناسب المراد بها أو يشار به الى غرض . كما فعل أبو العتاهية فى طلب الجارية عتبة من الرشيد ، وكان يخاف أن يرده ، فأهدى اليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتا هذا مجموعها :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتى ... فاذا لها من راحتيه شميم
اعلقت نفسى من رجائك ماله ... عنق يحث اليك بى ورسيم
ولربما استأسيت ثم اقول لا ... ان الذى ضمن النجاح كريم (٧)

على أن كتابة الأشعار على المراوح كانت معروفة فى أيام بنى أمية (٨)

---

(١) لطائف المعارف ٩٥
(٢) الاتليدى ٩٨
(٣) الاغانى ٤١ ج ١٥
(٤) المستطرف ١٣٤ ج ١
(٥) المسعودى ٣٦٦ ج ١
(٦) الاغانى ٨١ ج ١٢
(٧) المسعودى ١٩٦ ج ٢
(٨) العقد الفريد ١٨٤ ج ٣

المجوهرات عند العباسيين

غالى الخلفاء العباسيون فى اقتناء المجوهرات ، ولا سيما الدر وهو اللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر القانى ويسمى البهرمانى ، ويتلوه الأحمر المشرقى الرمانى ثم الازرق الغميق وتشوب زرقته حمرة ويسمى الاسمانجونى ،وبعده الاصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبى . ولكل من هذه الأشكال قيمةتختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد وأحسنه يعرف بالذبابى لقرب لونه من لون الذباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه مايشوب لونه حمرة يسيرة — هذا أهم ماكانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة ، وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرته

واكثر ماتناقله المسلمون من الحجارة الكريمة فى أوائل دولتهم ماخوذ من غنائم الفرس ، لأنهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التى قضى الفرس الأجيال وهم يجمعونها ويتوارثونها ، فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفا . وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الأكراد فانهم غنموا سفطا فيه جوهر حملوه الى عمر فى جملة الغنائم فأمر ببيعه وقسمة ثمنه فى المسلمين ، فباعه وقسمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون الفا (١)

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالأثمان الغالية ، فاشترى الرشيد فص ياقوت أحمر بأربعين الف دينار وكان قديما ويعرف بالجبل والملوك تصونه، فنقش عليه الرشيد اسمه (٢) واشترى فصا آخر بمائة وعشرين الف درهم (٣) وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على يحيى بن خالد سفط جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم (٤)

وكثيرا ماكانوا يستخدمون الجواهر بدلا من المبالغ الكبيرة فاذا عزم احدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلا ، فبدلا من أن يحمل ذلك المال ذهبا أو فضة استبدله بجوهرة أو عدة جواهر يسهل حملها فى الجيب . فاذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر وانفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحاويل المصارف المالية أو البنكنوت (العملة الورقية)

وكان الأمويون يرغبون فى المجوهرات أيضا ، وقد رصعوا بها الحلى وبعض الآنية واصطنعوا منها العقود للبسهم ولبس نسائهم وجواريهم . اماالعباسيون

(١) ابن الاثير ٢٤ ج ٣
(٢) المسعودى ٣٠٠ ج ٢
(٣) الاتليدى ١٤١
(٤) الطبرى ١٨٩ ج ٢

فبالغوا فى ذلك حتى نظموها فى عصائب نسائهم كما فعلت أخت الرشيد (١) ورصعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته (٢)

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الآنية والفرش والمجوهرات والثياب مالا يعلم مقداره الا الله ، يدلك على ذلك ماقدمناه مما خلفه المكتفى وغيره وما اخرجوه من خزائنهم فى فتنة البساسيرى فى أواسط القرن الخامس من جملته ٧٥٫٠٠٠ قطعة ديباج و١١٫٠٠٠ كزاغند و ٣٠٫٠٠٠ سيف ، وهو بعض ما كان فى دار الخليفة ، ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى

وقد انكر ابن خلدون ماذكره المؤرخون عن ترف بنى العباس فى ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم ، لما كانوا عليه من خشونة البداوة (٢) واستشهد بالمسعودى والطبرى . ولا ينطبق رايه فى ذلك على ماذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه . لأن المسعودى هو الذى اخبرنا بنظم الجوهر فى خفاف ام جعفر وهى من أقرب الناس للتقوى . والطبرى أورد أخبارا كثيرة ، تدل على ترف العباسيين فى عصر الرشيد . غير ماذكره غيرهما من ثقات التاريخ والأدب المتقدمين كأصحاب الاغانى والعقد الفريد والكامل والمعارف (*) وغيرهم . ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه — حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر فى مقدمة تاريخه « أن المأمون أعطى بوران فى مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت ، وقد أوقد شموع العنبر فى كل واحدة مائة من وثلثان ، وبسط لها فرشا كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت » (٤) ويلوح لنا أن ماكانوا يتجافون عنه فى صدر الدولة العباسية انما هو الركوب بحلية الذهب ، وأول من ركب فيها منهم المعتز بالله (٥) فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة فى تنزيه العباسيين عن الترف وهم من أعرق الخلفاء فيه

بذخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الاسلامية فى مصر والشام والمغرب والأندلس ، فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين فى كل شىء حتى فى أسباب الحضارة ، وكان التمدن الاسلامى قد نضج والدولة العباسية اخذت فى التقهقر ، ففاقوهم فى كثير من أسباب البذخ والترف ولا سيما من

---

(١) الاغانى ٨٣ ج ٩
(٢) المسعودى ٣٦٦ ج ٢
(٣) ابن خلدون ١٥ ج ١
(*) هم على الترتيب : الاصفهانى وابن عبد ربه وابن الاثير وابن قتيبة
(٤) ابن خلدون ١٤٥ ج ١
(٥) المسعودى ٣٠٥ ج ٢

حيث الأثاث والرياش والثياب ، فقد رأيت أن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ، ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعا بالجوهر ، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس ، وتأنقوا فى المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة فى مجالسهم. فاذا جلس الخليفة فى احدى المناظر للراحة او تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصوانى الذهب ، عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها ، معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها ، المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان ، فى كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده ، وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكات فضة وذهب ، وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات ، وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة. ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته واشكال من سائر الوحوش ، واصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة (١)

وكان للفاطميين فى القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ يسمونها خزائن ، بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسرج أو الدرق أو الكسوات أو الادم أو الشراب أو التوابل أو الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له فى تلك الخزائن. والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة . وقد توسع المقريزى فى وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والاطياب مما يضيق عنه هذا المقام فليراجع فى مكانه (٢) ونأتى بشىء من ذلك على سبيل المثال :

الحلى والجواهر عند الفاطميين

فمما اخرجوه من خزانة الجوهر فى أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفى سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشىء اذا كان مثله موجودا . واستخرجوا خريطة فيها ويبة جوهر قال الصياغ ان قيمته لا تقدر واصل ثمنه ٧٠٠،٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين ألف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من اقداح البلور المنقوش والمجرود وصحونا من الميناء منها ما يساوى مئات من الدنانير ، وفى

(١) المقريزى ٤٧٢ ج ١
(٢) المقريزى ٤٠٩ — ٤٢٥ ج ١

مكان آخر ١٨٫٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح أثمانها بين عشرة دنانير وألف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بأنواع النقوش ، و ١٧٫٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب ، ونحو مائة كأس بادزهر وأشباهها على أكثرها اسم هرون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وأنصابها من الجواهر المختلفة ، وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج ، محلاة بالجواهر مما يساوى ألف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة أزيار مملوءة كافورا وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتى وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٫٠٠٠ من الثياب المصمت الوانا و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ومعممات بجواهر من ايام المعز ، وبيت هرون الرشيد الخز الاسود الذى مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز أيضا ويطول شرحه. وخزائن مملوءة بأنواع الصينى تساوى القطعة منها الف دينار، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال يظن أنه الحصير الذى حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها الى العزيز بالله

ووجدوا أنواعا من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة أو العاج أو الابنوس ، وعددا كبيرا من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٫٠٠٠ قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد. والكلوتة (أى الطاقية للرأس) المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠٫٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلا . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه أبيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر فى اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئته من الجواهر قيمتها لا تقدر . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من أمثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا فى خزائن الفرش من أصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك ١٠٠٫٠٠٠ قطعة خسروانى أكثرها مذهب ، ومراتب خسروانى وقلمونى

ثمن الواحدة ٣٫٥٠٠ دينـــار ، واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الاحمر المذهب ، و ٣٫٠٠٠ قطعة خسرواني احمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشـــتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج وسائر انواع الحرير وعليها اشـــكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف الوانها واطوالها ، فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله ، و ٤٫٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيـــط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التسترى غريب الصـــنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعز لدين‌الله أمر بعمله ، وفيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شـــبه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبـــل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة أو الحرير ، وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تدل‌عليه هذه الآثار من رقي‌المدنية والحضارة ، وكم تكون قيمتها لو وجدت الآن وكم يدفع المتمولون من المبالغ في الحصول عليها

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ، ففي خزانة السلاح سيف الحسين بن علي ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر الصـــادق ، ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج الوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي ألف دينار . وفي خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصـــون والقصـــور ، والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديبـــاج المكي والارمني والبهنساوي والكردواني ، وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشـــكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على اعمدة ملبسة بالفضة . ومن‌هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعا كبيرا يحمله مع ملحقاته مائة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها

ومن أدلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت الحاكم بأمرالله اهدت اخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا ، منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في العصور الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها ، واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق (١) ولذلك قالوا : « من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف وأمثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف رأى العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التى أقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ماكان باقيا في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره ـ قال : « وحمل الجميع الى صلاح الدين ، وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء ، وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ، ومن الجواهر التى لم توجد عند غيرهم ، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو ١٧ مثقالا أنا لا أشك ، لانى رأيته ووزنته ، واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذى طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير » (٢)

بذخ الاندلسيين

واقتدى بالعباسيين في الترف والبذخ الاندلسيون ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيهما . على أن بعضهم تفنن بذلك على شكل لم يسبقه أحد الى مثله ، فالمنصور بن ابى عامر في أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم ، وهو أعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان ، ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم . فأراد المنصور أن يبغته بما يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة ، فأمر أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعا صغارا قدر ما تسع النيلوفرة ، وملأ بها جميع النيلوفر وبعث الى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فأجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم الاقبية والمناطق من الذهب والفضة ، وبيد ٥٠٠ منهم أطباق من ذهب وبيد ٥٠٠ أطباق من فضة ، فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم . فحين اشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لأخذ الذهب والفضة منه وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب ، حتى التقطوا جميع ما فيها وجاءوا به فعرضوه بين يدى المنصور حتى صار كوما ، فتعجب الرسول من ذلك وطلب المهادنة . واصطنع المنصور هذا نموذج قصر من فضة لصبح أم هشام وحمله اليها على

---

(١) ابن خلدون ٣٠٢ ج ١ .
(٢) ابن الاثير ١٦٥ ج ١١

رءوس الرجال استجلابا لحبها (١)

واغرب منه ما فعله المعتمد الاندلسى لأم أولاده الرميكية الملقبة اعتماد ، وقد رأت ذات يوم نساء البادية بأشبيلية يبعن اللبن فى القرب وهن رافعات عن سوقهن فى الطين فقالت : « ياسيدى أشتهى أن افعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء » فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طينا فى القصر ، وجعل لها قربا وحبالا من الابريسم وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين (٢)

وقس على ذلك سائر ملوك الاسلام فى عصر الترف ، فقد كان عند سنجر ابن ملكشاه ١٠٣٠ رطلا من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك . وكانوا يقيسون الاسراف أحيانا بما ينفقونه من الشمع فى الاضواء ، فذكروا أن وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة الف رطل من شمع فى الشهر (٣) واشتهر محمد الامين بكبر شمعه . ولم يكن ذلك الترف قاصرا على الخلفاء والملوك والامراء ، ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة ومن يرتزق منهم ، وأما العامة فربما كانوا فى اشد الضيق — راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب

٤ — التسرى

هو اقتناء الجوارى للتمتع بهن أو استيلادهن . وقد علمت ما كان من تكاثرهن والاتجار بهن وتربيتهن وتهاديهن فى ذلك العصر ، ونتكلم هنا عما بعث عليه الترف من تسريهن . وكثيرا ما يعقب التسرى التزوج ، فاذا ولدت الجارية لأحدهم تزوجها . وكان العرب يكرهون التزوج بالجوارى ، فمع كثرتهن فى صدر الاسلام لم يتزوج الراشدون جارية (٤) ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش . فتوفى الامام على عن ٤ نسوة و ١٧ سرية (٥) وكانت تلد الجارية لأحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجوارى ، فنهى عمر عن بيع أمهات الاولاد (٦) وكانت العرب على كل حال تحتقر ابناء الجوارى ، حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد (٧) فرغب الناس فى التسرى (*)

---

(١) نفح الطيب ٧٣١ و ٧٣٢ ج ٢
(٢) نفح الطيب ٢٠٨ ج ١
(٣) ابن خلكان ٨٧ ج ١ و ٦٣ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٢٦ و ٩٢ ج ٣
(٥) الف باء ٣٤٧ ج ٢
(٦) ابن الاثير ٢٩ ج ٣
(٧) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

(*) روى خبر اولئك الثلاثة أبو العباس المبرد فى الكامل من كتاب ربيع الزمان للزمخشرى، وخلاصته ان بنات يزدجرد الثالث وقعن فى أسر المسلمين ، فاشتراهن على بن أبى طالب ودفع واحدة لعبد الله بن عمرو واخرى لولده الحسين ، واخرى لمحمد بن أبى بكر الصديق ، فأولد

وليس المسلمون أول من اقتنى السرارى ، فالتسرى كان شائعـا عنـد الرومانيين ، والسرية عندهم احط منزلة من الزوجة ولـكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية . وكانوا فى أول أمرهم كالعرب يكرهون التسرى ، حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار أمرائهم فعكفوا عليه (١)

وزادت رغبة المسلمين فى التسرى فى ابان الحضارة ، حتى أصبح أكثر أبناء الخلفاء من أولاد الجوارى (٢) وأكثر نساء أهل الدولة منهن ، واقتدى بهم سائر الوجهاء والاغنياء . فعمدوا الى اقتناء السرارى ، ومن ولدت له تزوجها أو أعتقها . فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ، ذكروا انه كان للمتوكل العباسى ٤٠٠٠ جارية وطئهن جميعا (٣) وعلم الامراء برغبتـه فيهن فتقربوا اليه بالهدايا منهن ، فأهداه عبد الله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة (٤) . وكان لنصر الدولة صاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عداد أيام السنة (٥) غير ما كانوا يقتنونه من الجوارى للغناء ، فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية (٦) منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب (٧)

وأصبح الاستكثار من الجوارى عادة مألوفة ، حتى صار النساء يقتنينهن للزينة . فكان عند أم جعفر البرمكى ٤٠٠ وصـيفة يخدمنها (٨) وقد رأيت ما اتخذته زبيدة من الجوارى المقدودات وكيف ألبستهن ملابس الغلمـان فقلدتها الوجيهات من أهل اليسار ، فاتخذن الجوارى المطمومات أوالغلاميات، ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء فى ذلك ، حتى ألف القاهر بالله العباسى جوقا من الجوارى بقد واحد ألبسهن القراطق والاقبية والطرر والاقفية والمنـاطق من الذهب أو الفضة كأنهن الغلمان (٩)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين فى المشرق والمغرب ، وقد فاق الفاطميون سواهم فى الاكثار من الجوارى أيضا ، فكان فى قصر الحاكم بأمر الله ١٠,٠٠٠ جارية وخادم (١٠) وكان عند أخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠ جارية منها

عبد الله ولده سالما ، وأولد الحسين عليا زين العابدين ، وأولد محمد بن أبى بكر ولده القاسم . وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الاولاد ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبد الله بن عمرو ففاقوا اهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس فى السرارى .

(١) Gibbon, 11. 205
(٢) الجزء الرابع من هذا الكتاب
(٣) المسعودى ٢٧٩ ج ٢
(٤) الاغانى ١٣٣ ج ١٩
(٥) ابن خلكان ٥٧ ج ١
(٦) الاغانى ٨٨ ج ٩
(٧) الاتليدى ٦٧
(٨) المسعودى ٢٠٨ ج ٢
(٩) المسعودى ٣٦٦ ج ٢
(١٠) المقريزى ٣٦ ج ١

١٥٠٠ من البنات الابكار (١) ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد فى القصر الكبير ١٢٫٠٠٠ نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده ، غير الخدم والغلمان والامتعة والتحف ، وأطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين (٢) ويقال نحو ذلك فى السلاطين المماليك بمصر وبنى امية فى الاندلس مما يطول شرحه ، ولا يزال مثاله عند بعض أمراء الشرق وملوكه الى اليوم (قبل الحرب العالمية الاولى)

اثمان الجوارى

والاستكثار من الجوارى فى أوائل الاسلام لم يكن يحتاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن ويغالون فى رفع اثمانهن، وكانت أسعارهن تتضاعف اذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء . ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة آلاف أو مائة ألف دينار . وأول من بذل فى هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع « الذلفاء » الجارية الشهيرة بمليون درهم (٣) (نحو ٧٠٫٠٠٠ دينار)

وابتاع الرشيد جارية بمائة الف دينار (٤) وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلى بمبلغ ٣٦٫٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها الى الفضل وطلب محمد الأمين الى جعفر بن الهادى أن يبيعه جارية له اسمها « بذل » فأبى ، فأمر فأوقروا قاربه ذهبا فبلغت قيمة ذلك ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٥) أى أكثر من مليون دينار — وهذا اذا صح كان أعظم مابلغ اليه بذلهم فى أثمان الجوارى

وأما ماخلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموى « سلامة » المغنية بعشرين الف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين الف دينار ، واشترى جعفر البرمكى جارية بأربعين الف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحية » بعشرة آلاف دينار . وقس عليه مادون ذلك وما فوقه ، واعتبر مقدار ماكانوا ينفقونه من الأموال فى اقتنائهن

٥ — السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم ، وانهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الاسلام حتى أصبح من قواعد الارتزاق فيمن

(١) المقريزى ٤٨٥ ج ٢
(٢) المقريزى ٤٩٧ ج ١
(٣) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢
(٤) الطبرى ١٣٣٢ ج ٢
(٥) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغانى ١٤٥ ج ١٥

يحومون حول الخليفة واهل الدولة ، فلما توفرت الأموال فى أيدى هؤلاء وتمتعوا بالحاجات والكماليات من الملاذ الجسدية تطلبوا الملاذ المعنوية بحسن الأحدوثة ، وهم اهل أريحية يستفزهم الاطراء والاستنجاد ، فوجدوا فى السخاء بابا واسعا لتلك الملاذ ، فبذلوا الأموال على الشعراء والندماءوالمغنين والمستجدين من سائر الطبقات ، لما فى ذلك من لذة الفخر أو توقع الأجر

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا فى كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ماالذى بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم فى الحضارة والمدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ، فكان الأمويون يعطون بالالف درهم أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية أوالكسوة او الخيل ، واذا توسموا فى العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف اوعشرات الالوف أو مائة الف أو مئات الألوف ، كما فعل معاوية فى استرضاء الناس واكتساب بنى هاشم الى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام . وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب أو لغير سبب ، كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠٠٠٠٠ درهم على ان يسميه معاوية فرضى ، ولكنه أعطى تلك الصلة للذى بشره بالغلام (١)

واقتدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وامرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء فى الدولة الأموية ، كما اشتهر البرامكة فى الدولة العباسية(٢) ومن أسخياء عمالهم خالد القسرى والحجاج بن يوسف اذا مست الحاجة الى السخاء . فالحجاج أعطى للذى توسط فى زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاما مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لايرسل الى أحد هدية مع عبد الا كان العبد فى جملتها (٤)

أما العباسيون فكانت الثروة فى أيامهم أوفر ، فبلغت عطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهبا أو فضة ، أو يهدون الغلمان يحملون بدر المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، أويولون

(١) الاغانى ٧١ ج ١١
(٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢
(٣) الاغانى ١٣٠ ج ١
(٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢
(٥) لطائف المعارف ١٦

الولايات والاعمال ، وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب أو استفزهم الاطراء فقد ولى السفاح رجلا الأهواز بقصيدة (١) والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسى يعود نفعه على الدولة ، كما فعل المنصور اذ أعطى فى يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها فى أعمامه ووجوه قواده ليقطع ألسنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدى استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلسا عاما فرق فيه ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وقرر لكل واحد من أهل بيته ٦٫٠٠٠ درهم كل سنة (٢) واعطى المغيرة بن حبيب ألف فريضة يضعها حيث شاء (٣) وفرق الرشيد فى يوم واحد ١٫٣٥٠٫٠٠٠ دينار (٤) وطرب يوما فنثر على الناس ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٥) وأعطى الهادى لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالا أرسله اليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (٦) وأعطى الأمين الى سليمان بن أبى جعفر مليون درهم (٧) واختص الامين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بايقار زورق الطالب ذهبا أو فضة ، وكان قصره على شاطىء دجلة فاذا جاءه شاعر أو طالب فى زورق وأخذته الأريحية واستخفه الطرب قال : « أوقروا زورق هذا ذهبا أو فضة » . وقلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب أن يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبى محمد التيمى ، فانه مدح الأمين بقصيدة اطربته فأمر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالا فقال : « نعم ياسيدى » فلما طالبه التيمى بذلك قال له الفضل : « أنت مجنون ! من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ » ثم صالحه على ١٠٠٫٠٠٠ درهم (٨) واجاز المأمون طبيبه بمليون درهم والف كر حنطة (٩) وفرق المأمون فى ساعة ٢٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، ومدحه اعرابى فأجازه بثلاثين الف دينار (١٠) وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١١) وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء ، وانما ذكرنا أعظمها لبيان مبلغ ذلك فى ابان التمدن

فلما افتقر الخلفاء العباسيون فى أواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية وألقاب الشرف يسترضون الناس بها . وهذه أبيات يقولون أن أبا بكر الخوارزمى نظمها بهذا المعنى :

---

(١) فوات الوفيات ٢٠ ج ١
(٢) سير الملوك ٦٥ و ٦٦
(٣) الاغانى ٩٨ ج ١٨
(٤) المستطرف ١٣٥ ج ١
(٥) الاغانى ٨٨ ج ٥ و ١٢٤ و ج ١٧
(٦) ابن الاثير ٤٢ ج ٦
(٧) المستطرف ١٣٣ ج ١
(٨) الاغانى ١١٨ ج ١٨
(٩) طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١
(١٠) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١
(١١) الاغانى ٣ ج ١١

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ... ما كان يرضى به للحبس بوابا
قل الدراهم فى كفى خليفتنا ... هذا فانفق فى الاقوام القابا

سخاء البرامكة

على أن العصر العباسى الأول انما زها بالبرامكة ، وهم الذين رغبوا الخلفاء فى السخاء ، وأولهم خالد بن برمك وزير المنصور ، والثروة لم تنضج فى أيامه ، ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال ، فقال خالد : « هذا والله اسم أستقله لطلاب الخير ، وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤملين ، لأن فيهم الأشراف والاحرار وأبناء النعيم ، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ، ولكننا نسميهم الزوار » وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد فى فعله حذو برمك ... فمجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله ... بلفظ على الاعدام فيه دليل
يسمون بـ «السؤال» فى كل موطن ... وان كان فيهم نابه وجليل
فسماهم « الزوار » سترا عليهم ... فأستاره فى المهتدين سدول

فأعطاه خالد عن كل بيت ألف درهم (١)

وكان ابنه يحيى بن خالد اذا ركب أعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم(٢) ، ويروون من أخبار سخائه ماهو أشبه بالخرافات منه بالحقائق . نذكر حادثة تواتر ذكرها فى كتب التاريخ والأدب ، وهى تمثل سخاء يحيى أحسن تمثيل . وذلك أن البرامكة لما نكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم أو رثائهم ، فمن ذكرهم انما يذكرهم سرا . وظلوا على ذلك فى أيام الأمين والمأمون . فسمع المأمون بشيخ يأتى خرابات البرامكة ويبكى وينتحب طويلا ثم ينشد شعرا يرثيهم به وينصرف ، فبعث فى طلبه فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ، فقال الرجل وهو غير هائب : « للبرامكة عندى أياد خضر ، فان أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها » فقال : « هات » . فقال : « أنا المنذر بن المغيرة الدمشقى ، نشأت فى نعمة فزالت حتى وصلت الى بيع دارى وأملقت الى غاية ، فأشير على بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعى نيف وعشرون امرأة وصبيا ، فدخلت بهم الى مسجد ببغداد ثم خرجت وتركتهم جياعا لا نفقة لهم . فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زى ، فجلست معهم أردد فى صدرى ما أخاطبهم به فتحيد نفسى عن

(١) الاغانى ٣٦ ج ٣
(٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ٢

ذل المسألة ، واذا خادم قد ازعج القوم فقاموا فقمت معهم ، ودخلوا دارا كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم فى يد كل خادم منهم مجمرة ذهب فيها قطعة عنبر ، فتبخروا واقبل يحيى على القاضى وقال : زوج ابن عمى هذا بابنتى عائشة . فخطب وعقد النكاح وأخذنا النثار من فتات المسك وبنادق العنبر وتماثيل الند ، فالتقط الناس والتقطت . ثم جاءنا الخدم فى يد كل واحد منهم صينية فضة فيها الف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدى كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير فى كمه والصينية تحت ابطه ويخرج ، فبقيت وحدى لا أجسر أفعل ذلك ، فغمزنى بعض الخدم وقال : خذها وقم . فأخذتها وقمت وجعلت أمشى والتفت خوفا من أن تؤخذ منى ، ويحيى يلاحظنى من حيث لا أفطن . فلما قاربت الستر رددت ، فيئست من الصينية ، فجئته فأمرنى بالجلوس فجلست ، فسألنى عن حالى فحدثته عن قصتى فبكى ثم قال : على بموسى . فجاءه ، فقال : يابنى ، هذا رجل من أولاد النعم قد رمته الايام بصرفها ، فخذه اليك فاخلطه بنفسك . فأخذنى وخلع على وامرنى بحفظ الصينية لى ، فكنت فى الذ عيش يومى وليلتى . ثم استدعى أخاه العباس وقال : ان الوزير قد سلم الى هذا وأريد الركوب الى دار أمير المؤمنين فليكن عندك اليوم ، فكان يومى مثل أمس . فأقبلوا يتداولوننى وأنا قلق بأمر عيالى ولا اتجاسر أن أذكرهم . فلما كان فى اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى فأقمت عنده يومى وليلتى ، فلما أصبحت جاءنى خادم فقال : قم الى عيالك وصبيانك . فقلت : انا لله ، ذهبت الصينية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ! وقمت والخادم يمشى بين يدى ، فأخرجنى من الدار فازداد مابى ، ثم أدخلنى الى دار كأن الشمس تطلع فى جوانبها ، وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالى يرتعون فى الديباج والستور ، وقد حمل اليهم مائة الف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم الى الخادم صكا باسم ضيعتين جليلتين وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة فى أخفض عيش الى الآن . ثم قصدنى عمرو بن مسعدة فى الضيعتين والزمنى من خراجهما مالا يفى به دخلهما ، فكلما لحقتنى نائبة قصدت دورهم فبكيت »

فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يرد على الرجل ما استخرج منه ، ويقرر خراجه على ماكان فى أيام البرامكة . فبكى الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : « الم أستأنف بك جميلا ؟ » فقال : « بلى ، ولكن هذا من بركة البرامكة ! » فقال : « امض مصاحبا ، فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الايمان » (١)

---

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاتليدى ١٣٢

وعلى ذلك شب جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة ، وتوسعوا فى السخاء حتى عينوا الرواتب لأهل الحاجات . فقد ذكرنا فيما تقدم أن غلتهم بلغت ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة ، فلما قتل جعفر وقبضت أموالهم وجدوا ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فى بدر مختومة وعليها صكوك لأناس على سبيل الرواتب أو الصلات أو نحو ذلك (١) . ومن فنون سخائهم ان الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعا بخطه فحواها « امض الى فلان الصيرفى وخذ منه كذا وكذا دينارا » حسبما يجريه الله على يده ، ويركب فى الليل أو فى القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها . وسئل عن ذلك فقال : « أردت أن يصل برى الى من لا يصل الى ولا أعرفه ولا يعرفنى » ، فاذا وجد أحد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفى فيأخذها منه ويعطيه مافيها ، وعند الصيرفى أمين جالس لئلا يصالحه على بعضها . ولا يعطى لأحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه ، وربما جاءت بيد الصبى والمرأة والذمى فيأخذ ما فيها (٢)

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات فى أيام المقتدر ، فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والأدباء والفقهاء وأهل الفاقة ، وقد نكبوا كما نكب البرامكة ، ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم ، فأصبحوا مضرب الأمثال فى الكرم . ولا يزال الناس يتداولون أخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون أريحية العظماء على السخاء بما يروون من أحاديثهم ، حتى ظنها بعضهم موضوعة لهذه الغاية . ولا يبعد أن تكون رغبة الناس فى الاستحثاث بعثت على المبالغة فى بعضها ، ولكنها صحيحة على أجمالها — قال السلطان العادل الأيوبى مرة وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم من الكرماء : « هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين ، يقصدون بذلك ان يحركوا همم الملوك والأكابر للسخاء وتبذير الاموال »

فقال بعض الحضور : « ياخوند ، ولأى شىء يكذبون عليك ؟ » (٣) (*)

السخاء على الشعراء والمغنين

واعتبر ذلك فى سخائهم على الشعراء ، فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامة من أوائل الاسلام لأسباب تقدم ذكرها ، ويشبه ذلك ماتنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها أو تأخذ بيدها فى نشر مبدأ أو رأى .

---

(١) العقد الفريد ٢٢ ج ٣
(٢) ترتيب الدول ٢٢
(٣) نفح الطيب ٤٧٢ ج ١
(*) الخوند — بفتح الخاء والواو وسكون النون — هو المولى أو السيد . والمراد : يامولانا . وهذه الملاحظة من ذلك الرجل اشارة الى بخل السلطان العادل .

وتعودوا أن يسموا مايعطى للشاعر جائزة أو صلة ، كما يسمون ما يعطى للصحف اعانة أو راتبا . على أن بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة أو مسانهة ، وربما عدوا الجائزة راتبا يناله الشاعر اذا وفد على الخليفة أو الأمير فى يوم معين من السنة . وقد تكلمنا عن الشعر وسائر أحواله فيما تقدم ، ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء فى ابان الحضارة

أول من جاد على الشعراء فى الاسلام بنو أمية ، وأسخاهم الوليد بن يزيد وهو أول من عد أبيات الشعر وأعطى على كل بيت ألف درهم (١) واقتدى به من جاء بعده منهم . أما العباسيون فزادوا القيمة وأعطوا على القصيدة فى مدحهم ١٠٠٫٠٠٠ درهم ، وأول من نال هذه الصلة منهم مروان بن أبى حفصة وصله بها المهدى على قصيدة مدحه بها مطلعها :

« طرقتك زائرة فحى خيالها » (٢) ومدحه سلم الخاسر بقصيدة مطلعها :

« حضر الرحيل وشدت الأحداج »

فأراد أن ينقص له من جائزة مروان فحلف انه لا يأخذ الا مائة ألف ألف درهم ، ويقال انه أعطاه اياها (٣) والغالب أنه أعطاه مائة الف فقط ، وانما أضيفت الألف الأخرى خطأ من النساخ

وكان المنصور قبله بخيلا على الشعراء ، اذا أحب أن يعطى شاعره أبا دلامة فرض على الهاشميين دينارين ليعطيها له (٤)

أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدى ، اى مائة ألف درهم (٥) وأعطاه مرة ٥٠٠٫٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطى أبا العتاهية راتبا سنويا مقداره ٥٠٫٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون (٦) وفاقهم المتوكل فى ذلك لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها ، وهو أول من أعطى ذلك (٧) وكان المعتصم اذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهرا ، وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك (٨)

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسرى يجلس للشعراء فى

---

(١) ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ والاغانى ١٤٨ ج ١٧ و ٣٩ ج ٩
(٢) ابن خلكان ١١٢ ج ٢
(٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١
(٤) الاغانى ١٢٨ و ١٣١ ج ٩
(٥) الاغانى ١٩ ج ١٢
(٦) الاغانى ١٥٧ ج ٣
(٧) الاغانى ١٨٤ ج ٦
(٨) الاغانى ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ و ج ١

يوم معين ويجيزهم . وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الاعطية والجوائز (١)

أما فى الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعا فى أجازة الشعراء ، وخصوصا الفضل بن يحيى وقد قالَ فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء (٢)

وكان أبوه يحيى اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته (٣) وقد فاق البرامكة الخلفاء فى اجازة الشعراء ، فنال شاعرهم أبان اللاحقى على قصيدة واحدة مثل ماناله مروان بن أبى حفصة من الرشيد كل عمره (٤) وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء ، فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر (٥)

ويقال نحو ذلك فى سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدى دحمان المغنى فى ليلة واحدة ٥٠٫٠٠٠ دينار لأنه أطربه . وأعطى الأمين اسحق الموصلى ١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم لانه غناه شعرا فى مدحه فحملها الى داره مائة فراش (٥) وكان الهادى يجرى على ابراهيم الموصلى عشرة آلاف درهم فى الشهر سوى صلاته . أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد حتى ولّى اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بغنائه (٧) واخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا محل لها

واقتدى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدول الاسلامية ، وان لم يبلغوا شأوهم

٦ ــ المسكر

كان المسكر شائعا قبل الاسلام فى الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها ، وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات . ويقال ان الرومانيين لم يتعودوا المسكر الا بعد فتحهم آسيا . على أن عقلاء الناس كانوا يحرمون شربه حتى فى جاهلية العرب ، فان جماعة منهم حرموه على أنفسهم وأهلهم ، واذا عربد احدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه ونفوه . فلما جاء الاسلام ورد النص بتحريمه ، واقيمت الحدود فى منعه بالجلد والحبس وحلق الرأس أو اللحية والشوارب أو قطع العطاء ، وعاقبوا بائعيه وكسروا أوانيه ولاسيما فى عصر الراشدين وأوائل أيام بنى أمية ، حتى

---

(١) الاغانى ١٦٤ ج ١١
(٢) ابن خلكان ٤١١ ج ١
(٣) الاغانى ٨ ج ٥
(٤) الاغانى ٧٣ ج ٢٠
(٥) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢
(٦) الاغانى ٩٩ و ١٤٢ ج ٥
(٧) حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤

عنف عمر بن الخطاب خالد بن الوليد على تدلكه فى الحمام بغسل فيه خمر ، وقال له : « ان الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها بأجسادكم » ومع ذلك فاختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عودهم اياها ، حتى شربها جماعة من الصحابة وابنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب . واول من عوقب على شربها وحشى بن حرب قاتل حمزة (١) ثم عوقب غير واحد منهم ومن ابنائهم ، وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد بن عقبة ، ويزيد بن معاوية ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب واخويه عبد الرحمن وعاصم ، والعباس بن عبد الله ابن عباس ، وقدامة بن مظعون ، وعبد العزيز بن مروان ، وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفى القاضى ، وابى محجن الثقفى وغيرهم (٢)

ومما ساعد على اقبال نفر من المسلمين على الخمر أن بعض الخلفاء الامويين كانوا يشربونها ، كيزيد بن معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد (٣) والوليد هذا اول من وصف الخمر وتغزل بهـا فسرق الشعراء معانيه وادخلوها فى اشعارهم . وتهتك الوليد فى المسكر حتى حدثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة ، فخوفه أصحابه من الناس فامسك . وقد أفسده وعلمه الخلاعة مؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى (٤) على ان رجال الحكومة كانوا يشددون فى منع الخمر والحد عليها ، حتى كثيرا ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوها منه (٥) واشهر من شدد فى منعها من الخلفاء عمر ابن عبد العزيز الأموى والمهتدى العباسى ، ومع ذلك فقد كانت تزداد انتشارا باتساع أسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالغناء والجوارى حتى صاروا يشربونها جهارا . واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء واهلهم ورجال الدولة مع التهتك فى مجالس الشرب . فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين الى انتحال المسوغات لشربها ، فأخذوا يبحثون فى الفرق بين انواعها وميزوا بين المحلل والمحرم منها فاجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا فى تحريم النبيذ ، وفى اى انواعه حلال وأيها حرام ، ويقال بالاجمال ان اهل العراق كانوا يستحلون النبيذ واهل الحجاز يحرمونه (٦)

والنبيذ يصنع من اكثر انواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والتفـاح والمشمش ومن الذرة . ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق عمـله ، وهو عصير بعض هذه الأثمار أو منقوعها كما ينقع الزبيب اليوم (الخشـاف)

(١) المعارف لابن قتيبة ١١٢
(٢) العقد الفريد ٣١٤ ج ٣
(٣) الاغانى ١٥٤ ج ١٩ و ١٥٧ ج ١٣ والعقد الفريد ٣١٤ ج ٣
(٤) ابن الاثير ١٢٤ و ١٣٦ ج ٥
(٥) المقريزى ٢٩٧ ج ٢
(٦) ابن الاثير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١

وقد يضيقون اليه العسل أو الدبس أو يصنعونه من أحدهما مع الحب على النار (١) وكانوا اذا أقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالأقداح الكبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه . واذا صفى فى القناني صعب تمييزه من الخمر أو منقوع الزبيب أو مذاب العسل (٢) فمن أحب الشرب استحل تناوله على أنه نبيذ، فاذا أكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحلّل قليل الخمر ويحرم كثيرها ، وآخرون يحللون شرب الخمر الا اذا أدت الى السكر (٣) ولكن الأكثرين حكموا بتحريمها ، ولهم فى ذلك أقوال يطول شرحها تراها مبسوطة فى كتب الشرع

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا أنهم سكروا فى بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ ، وهو حلو منعش فيكثرون منه حتى يسكروا . ويؤيد ذلك أنهم كانوا يشربونه بالأرطال ، واذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلا . وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون . وربما أتوا فى سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين . وأفظع مايروى من هذا القبيل أن الملك الناصر بن الملك المعظم الأيوبى كان اذا سكر يقول : « اشتهى أن أرى غلامى فلانا طائرا فى الهواء ! » فيرمى ذلك المسكين بالمنجنيق، ويراه فى الهواء فيضحك ويشرب ويقول : « أشتهى أن أشم رائحة فلان وهو يشوى ! » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى (٤) . وكتب التاريخ والأدب مشحونة بأخبار مجالس الشراب ، وهى فى الغالب مجالس الغناء ، ويندر أن يترفع خليفة أو وزير عنها . ومن أكثر العباسيين رغبة فيها الهادى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، وأكثرهم نفورا منها المنصور والمهتدى. واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر (٥) واشتهر بمقاومتها الحاكم بأمر الله ، وكثيرا ما أمر باراقة الخمور وأراقة العسل حتى لا تصنع منه

أما العامة فانغمس الكثيرون منهم فى المسكر وشربوه على أنواعه ، شأنهم فى كل زمان وان لم يشربه حكامهم ، فكيف اذا كانوا يشربون ؟ والغالب فى شاربى النبيذ أن ينبذوه فى بيوتهم ، وبعضهم يشربه عند اخوانه ، وآخرون يتناولونه فى الحانات وكانت كثيرة ، وأكثر أصحابها من اليهود ، وقد يشربون الخمر فى الأديار وخمرها مشهورة بجودتها

٧ ـ التهتك

وطبيعى فيما قدمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شىء من التهتك

---

(١) كتاب البخلاء ٥١
(٢) الاغانى ٤ ج ٥ و ١١٢ ج ٤ و ٣٥ ج ٢
(٣) العقد الفريد ٣٠٩ و ٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والف باء ٨١ ج ١
(٤) فوات الوفيات ١٥٧ ج ١
(٥) المقريزى ١٥٤ ج ٢

والفحشاء،وان كان ذلك لايخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ، ولكنه يكثر غالبا فى المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم . كان فى جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون اماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا (١) ولكن ذلك شأن الحضر منهم ، لان البدو أقرب الى صحة الآداب ، فاعتبر كم تكون أسباب التهتك أوفر فى المدن الكبرى ، حيث تتزاحم الاقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجوارى ويتفشى الغناء والمسكر ، كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط فى ابان ذلك التمدن . فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما فى العصور الوسطى ، حتى صار البغاء فى بعض الاحيان صناعة عليها رئيس يحتكم اليه البغاؤون عند الحاجة (٢) وتفننوا فى ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات (٣) وأصبح أهل القصف من الاغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون . وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم فى منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما فى امكانهم (٤) ولما عجزوا عن كف أذاها بالقوة ضرب بعضهم عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات (٥)

وأقبح ما ظهر من التهتك فى أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم ، وظهر ذلك على الخصوص فى أيام الامين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم وفيهم الارقاء بالاسر أو بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابقوا الى اقتناء الجوارى وغالوا فى تزيينهم وتطييبهم . وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم . وفشا حب الغلمان فى أهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء (٦) حتى غارت النساء من ذلك فعمدن الى التشبه بالغلمان فى اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٧)

وكثرة الجوارى فى بعض القصور جرتهن الى التفنن فى أساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج ، كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر (٨) حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الاكفاء أو لاسباب أخرى كان يجرهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة

---

(١) العقد الفريد ٢ ج ٣
(٢) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢
(٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزى ٣١٦ ج ١
(٥) المقريزى ٨٩ ج ١
(٦) تزيين الاسواق ١٦٣
(٧) المقريزى ١٠٤ ج ٢
(٨) ابن الاثير ١٨٨ ج ٧

التزويج (١) ذكروا أن ابنة الاخشيد صـاحب مصر أشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفـاطمى ذلك ــ وكان لا يزال فى الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ــ فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر وقال : « هذا دليل السقوط » وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سيـاج العمران

(١) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

أبهة الدولة

أبهة الدولة

الابهة « العظمة والبهجة والكبر والنخوة » ، ونريد بها مظاهر الدولة فى أبهج أحوالها وأفخم أطوارها ، والبحث فيها يتناول النظر فى مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم والعابهم وملاهيهم وملابسهم ، وغير ذلك مما سنفصله . ولما كانت الدولة العباسية أسبق الدول الاسلامية الى تلك المظاهر وقدوتها فيها ، رأينا أن نحصر كلامنا عن الابهة فى العصر العباسى ، مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الاخرى فنقول :

مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلا وأبهة باختلاف الدول ، وفى الدولة الواحدة باختلاف أطوارها ، وفى كل طور باختلاف المراد منها . فكانت مجالس الراشدين فى المسجد أو المنزل ، يقعدون على حصير أو جلد يلتفون بعباءة أو نحوها ، فيدخل عليهم الناس فى حوائجهم ويخاطبونهم بأسمائهم ، لايستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . واذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول ، وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل . وكان عمالهم فى الامصار على نحو ذلك ، على أن العمال — نظرا لاقامتهم فى مدن عمرها الفرس أو الروم مع ما رأوه من أحوال تينك الدولتين — كانوا أقرب الى مظاهر الابهة ، وكان الخلفاء اذا علموا بذلك أنبوهم كما فعل عمر لما علم أن سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة اتخذ قصرا وجعل عليه بابا ، فأرسل اليه رجلا من خاصته وأمره أن يحرق الباب عليه ففعل

ثم ان طبيعة العمران غلبت على تلك السذاجة ، فتدرج الخلفاء والامراء فى مظاهر الابهة واتخاذ الحجاب — بدأ بذلك معاوية بن أبى سفيان ، وأعانه عليه أمراؤه فى العراق ومصر ، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم ، واقتدى بهم سائر خلفاء بنى أمية . وزاد العباسيون أسباب الابهة بمن قربوهم من الفرس ، فأدخلوا فى الدولة كثيرا مما كان عليه الاكاسرة فى مجالسهم وسائر أحوالهم ، فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلسا للحكم وآخر للمنادمة أو للمناظرة أو للمذاكرة أو غيرها ، ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتيبا

على أن مؤسسى الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر فى شؤون

الدولة ، فمعاوية بن أبى سفيان (١) وأبو جعفر المنصور (٢) كانا يوزعان ساعات النهار على ما لديهما من الاعمال من ادارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة . أما فى أواسط الدولة فتعددت المجالس ، والمراد هنا بالاكثر المجلس الذى كانوا يجلسونه للنظر فى مصالح الدولة

شكل المجلس وفرشه

قلنا ان الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون فى المساجد ، لان الاسلام كان لايزال غضا ، فلما جعله الامويون دولة جلسوا فى قصور كانت للدول السابقة أو بنوا قصورا لأنفسهم نصبوا بها الاسرة والكراسى ، وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور وأقاموا الحجاب . فالاسرة أول من اتخذها معاوية ، قلد بها بطارقة الروم فى الشام وكذلك الستور والطنافس ، وأما الكراسى فيظهر انه قلد بها مرازبة الفرس لأن أول من استخدمها من أمراء المسلمين زياد بن أبيه عامله على فارس (٣) فلعله نقلها الى الشام ، وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأسا — وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الابهة من الطراز ونقش الاشعار فى صدور المجلس ، وفرش الديباج والخز واصطناع الاسرة من الابنوس أو الصندل أو العاج أو الذهب أو غيرها

وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع فى بناء واحد اختصت كل منها بادارة . وأصبح لبعض كبار الرجال ادارات خاصة بأعماله تشبه ما للخلفاء من ادارات الكتاب والحساب والاطباء وغيرهم (٤) وكان لمجلس الحكم فى العصر العباسى داران ، دار خاصة ودار عامة ، يجلس الخليفة فى الاولى مع رجال الدولة أو من يفد عليه من كبار الامراء أو الملوك . وينظر فى الثانية فى سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية

والمجلس فى ابان الحضارة كان ينعقد فى قاعة أو بهو كبير ، على جدرانه صور ممثلة بالذهب والفضة لما فى البر والبحر من شجر أو حيوان أو جبال ، ويكسو أرضه بساط واحد أو عدة أبسطة من الديباج أو نحوه ، وفى أطراف البهو مناور من الذهب أو الفضة توضع عليها الشموع (٥) ويسبل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير او غيره مطرزة بشارة الدولة أو بأشعار أو حكم أو آيات أو أحاديث أو رسوم مدن أو أنهر أو جبال .

---

(١) المسعودى ٥١ ج ٢
(٢) ابن الاثير ١١ ج ٦
(٣) العقد الفريد ٤ ج ٣
(٤) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١
(٥) العقد الفريد ١٠٨ ج ٣

وفى وسط القاعة سدة او سرير يجلس عليه الخليفة (١) يصنع من العـاج أو الابنوس أو الصندل يحلى بالذهب . وقد غالى الفاطميون فى النفقة على الاسرة حتى يدخل فى الواحد منها ١١٠٫٠٠٠ مثقـال من الذهب الابريز الخالص (٢) وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف أو نحوها للزينة أو التشاغل بها . فالمعتمد الاندلسى كانوا يضعون أمامه فى المجالس تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجمل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلى بنفائس الدر (٣) . ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون فى وسط القاعة سترا بينهم وبين الجلساء (٤) أو يستترون عنهم وراء شباك مخرم . على أن فرشهم يختلف فى الشتاء عنه فى الصيف ، فيضاف اليه فى الشتاء مواقد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون الفراء اللائقة بالوقت على أشكالها (٥)

مجالسة الخلفاء

الاستئذان فى الدخول

كان الاسـتئذان على الخليفة فى عصر الراشدين أن يقف الرجل بالبـاب ويقول : « السلام عليكم . أأدخل ؟ » يكرر ذلك ثلاثا ، فان لم يؤذن له لم يعدها (٦) وربما أقام الراشدون الحجاب لمنع الازدحام أو للاستئذان فى بعض الاحوال . فلما انقضى ذلك العصر أقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس فى دخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفى أوقات معينة لكل طبقة من الجلساء أو الادباء أو الشعراء أو غيرهم (٧) أما فى المجالس العامة فيقدمون النـاس حسب مراتبهم

وأول من رتب المراتب فى الدخول على الخليفة زياد بن أبيـه فى العراق ، أشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس ، فجعل الاذن للناس على البيوتات ثم على الاسنان ثم على الآداب (٨) وصار ذلك سنة فى الاستئذان على الخلفاء فى عصر الامويين ، فاذا استأذن جمـاعة فى الدخول على الخليفة أو الامير يؤذن أولا لأشرفهم نسبا ، واذا تساووا فى النسب قدموا أكبرهم

---

(١) طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١
(٢) المقريزى ٣٨٥ ج ١
(٣) نفح الطيب ١١٢٨ ج ٢
(٤) الاغانى ٩٩ ج ٢
(٥) ترتيب الدول ١٢٣
(٦) العقد الفريد ٢١ ج ١
(٧) الاغانى ٦٠ ح ٥
(٨) العقد الفريد ٥ ح ٣ و ٢١ ج ١

سنا ، فاذا تساووا فى السن قدموا أكثرهم أدبا ، وظلت هذه القاعدة مرعية فى سائر العصور الاسلامية

وكانوا فى أيام بنى أمية وفى أوائل الدولة العباسية اذا وفد الناس على الخليفة أو الامير وقفوا ببابه يلتمسون الاذن ، فاما أن يأذن لهم أو يصرفهم، فاذا صرفهم عادوا ثانية واذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم أو يملوا . ويعبرون عن ذلك بقولهم الاذن الاول والثانى والثالث الخ (١) ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم . وأول من فعل ذلك المنصور العباسى لما بنى بغداد ، فاتخذ فى قصره بيوتا للاذن فجرى الامر على ذلك فى الدولة العباسية (٢) فكان الوافد يقيم ريثما يستريح ثم يستأذن . وقد يلتمسون اذنا لدخول القصر وآخر لدخول المجلس

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فاذا أذن لاحدهم بالدخول تقدم وألقى التحية . وكانوا فى أول الاسلام يحيون تحية عامة ، فيقول الداخل على الخليفة أو الامير أو الوالى : « السلام عليك » ويكرهون قولهم : « عليك السلام » لأنها تحية الموتى (٣) وقد يضاف الى التحية كنية الامير أو الخليفة ، ولا يزيدون على ذلك . فلما خالطوا الاعاجم ، ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرؤوس ، هموا بتقليدهم . وأول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال : « ينبغى أن يكون بين الامير ورعيته فرق » ، وألزم أهل عمله أن يؤمروه أى يحيوه تحية الامراء وهى : « السلام عليك أيها الامير ورحمة الله وبركاته » (٤) أو « السلام على الامير ورحمة الله » ففعلوا . واقتدى بهم سائر المسلمين ، وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة ، فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » أو « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » (٥) وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه ، فقلدوا الدول الاخرى بالتعظيم ، وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب ، واقتصروا فى تحيته على الخدمة والدعاء له. والخدمة تختلف بين أن تكون بانحناء الرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع ، وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية ، وكانوا فى أوائل الاسلام يقبلونها عند

---

(١) الاغانى ٧٠ ج ٦
(٢) لطائف المعارف ١٤
(٣) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١
(٤) الاغانى ٣٥ ج ١٢
(٥) المقريزى ٢٨٨ ج ٢

البيعة أو تجديد العطاء ، وعند العفو أو الوداع ، وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبى (صلعم) وظل متبعا مع أكثر الخلفاء . ثم ترفع هؤلاء عن أن يلمس الناس أكفهم ، فصار التقبيل للأكمام والعتبات على حسب الاقتدار . واذا أراد الخليفة تشريف احد قواده منعه من تقبيل يده أو كمه كما فعل المهدى مع مسلم بن قتيبة ، فجذب يده منه وقال : « نصونك عنها ولا نصونها عن غيرك » (١) وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الاحوال . فان جوهر القائد لما ودع مولاه المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر أنزل المعز أولاده لوداعه ، فنزلوا عن خيولهم ونزل أهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وحافر فرسه (٢) . وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدى كان خائفا من الهادى لأنه سبه قبل خلافته ، فرأى منه رعاية وحلما فلم يتمالك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته(٣) وكذلك فعل ابراهيم الموصلى فقبل حافر دابة الرشيد لانه تنازل لزيارته (٤) وكان أهل الدين والنسك اذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم ، بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار

والداخلون على الخليفة يجلسون فى المواضع اللائقة بمراتبهم ، ويتولى اجلاسهم الحاجب أو الآذن ، وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة فى الدولة الاموية لبنى أمية ، يجلسون على الاسرة وبنو هاشم على الكراسى . واما فى الدولة العباسية فصارت الافضلية لبنى هاشم ، وصاروا يسمونهم الملوك والاشراف ، فيجلس الخليفة على السرير أو السدة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسى ، ويقعد بنو أمية اذا حضروا على الوسائد تثنى لهم (٥) لكن الامويين قلما كانوا يحضرون مجلس بنى العباس ، بعد أن نكبوهم وقتلوا معظمهم وما بقى منهم أسقطت مرتبته فى أيام المستعين سنة ٢٥٠ هـ (٦) ويلى هؤلاء سائر طبقات الجلساء من اهل الدولة وغيرهم ، وتتفاوت مراتب هؤلاء وتتباين على مقتضى الاحوال مما لا حد له

الآداب فى مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء فى صدر الاسلام مثل مجالسة سائر الناس ، لما علمته من سذاجة الراشدين ، وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه أو كنيته ، فيقولون : يا عمر أو يامعاوية أو ياعلى ، لايرون بذلك بأسا . وكان الجلساء يتخاطبون

(١) ترتيب الدول ٦٠ و ٩
(٢) ابن خلكان ١١٩ ج ١
(٣) ابن الاثير ٤٢ ج ٦
(٤) الاغانى ٩١ ج ٩
(٥) الاغانى ٩٢ ج ٤
(٦) ابن الاثير ٥١ ج ٧

ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب ، لاسباب تقدم بيانها . فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة ، عمل الامويون على التشبه بالدول المستبدة ، وأخذ الدهاة من عمالهم بتعظيم أمر الخليفة وتفخيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس . وأول من فعل ذلك زياد بن أبيه ، فوضع القاعدة « ان لا يسلم على قادم بين يدى الخليفة » (١) ثم منعوا الكلام فى حضرة الخلفاء على الاطلاق ، وأول من منعه عبد الملك بن مروان . وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون أسلافهم ، وأول من تجبر الوليد بن عبد الملك ، فكلف الناس أن لايكلموه كما كانوا يكلمون أسلافه ، وقال بعد كلام : « وانى أعطى الله عهدا يأخذنى بالوفاء به لايكلمنى أحد بمثل ذلك الا أتلفت نفسه ، فلعمرى ان استخفاف الرعية براعيها سيدعوها الى الاستخفاف بطاعته والجرأة على معصيته » . وقال له رجل من بنى مرة يوما : « اتق الله يا وليد فان الكبرياء لله » فأمر به فوطىء حتى مات ، فاتعظ الناس وهابوه(٢)وهو أول من منع الناس أن يكاتبوه بما كانوا يكاتبون أسلافه او يكاتبون بعضهم بعضا

ثم صارت القاعدة المرعية فى مجالسة الخلفاء أن لايدعى لأحد فى حضرتهم (٣) ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة — ثم صارت رسوم أرباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا فى دواوينهم لايقومون لأحد من خلق الله ممن يدخل عليهم (٤) فلا يتكلم أحد فى مجلس الخلفاء الا اذا كلموه ، أى لايبدأهم أحد بكلام . وجرت العادة أن يطلقوا الكلام للوافد عليهم بقولهم : « ما أنعمنا بك يا أبا فلان » وهى كلمة كانت تقولها العرب (٥) فيذكر الرجل ما جاء من أجله ، واذا لم يطلق له الكلام ظل ساكتا

وما زال ذلك سنة مرعية فى مجالس الخلفاء ، حتى أباح المأمون الكلام لأهل مجلسه للمناظرة بين يديه (٦) واستمر ذلك بعده مع مراعاة الاحوال . اما مباداة الخليفة بالكلام فأول من استطاعها أحمد بن أبى دؤاد وزير المعتصم (٧) . ولما استولى القواد على الامور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم ، حتى أبيح اللعب والضحك والهزل فى مجالسهم ، وأول من أباحها المتوكل على الله فى أواسط القرن الثالث للهجرة (٨)

---

(١) العقد الفريد ٦و٢١٨ ج ٢
(٢) لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الاثير ٢٥١ ج ٤
(٣) البيان والتبيين ٣٨ ج ٢
(٤) الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١
(٥) ترتيب الدول ٩٢
(٦) الاغانى ٣٦ ج ١٤ والمسعودى ٢٥٧ ج ٢
(٧) ابن خلكان ٢٢ ج ١
(٨) المسعودى٢٦١ ج ٢

ومن آدابهم فى ذلك المجلس ان لايأمر فيه أحد غير الخليفة (١) واذا نهض نهض سائر الحضور . وأن يصغى الجليس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشىء . ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل أن معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثا ، وابن سحرة مصغ فصك جبينه حجر غائر فأدماه ، فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، حتى نبهه معاوية الى ذلك فأجابه : « ان حديث أمير المؤمنين ألهانى حتى غمر فكرى وغطى على قلبى » فزاد معاوية عطاءه (٢)

والخلفاء لا يعزون ، وانما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل . ولا يقال للخليفة كيف أصبح ولا كيف أمسى ، ولا يسأل عن حاله ولا يطنب فى تحسين كلامه ولا افعاله ، ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزاد ولا تحسن الاشارات فى مجلسه ولا يغامز ، ولا يشتغل بحضرته بوداع راحل ولا سلام قادم (٣) ولا يليق أن يرد على الخليفة بلفظ « لا » فيحتال فى التخلص منها (٤) . وقد قالوا فى الاحتراس فى مخاطبة الملوك : « من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالاعمى وليخرج كالاخرس » (٥) ومن أمثلة التأدب فى مخاطبة الخلفاء أن عبد الملك بن صالح وجه الى الرشيد فاكهة فى أطباق الخيزران وكتب اليه : « أسعد الله أمير المؤمنين وأسعدنى به . انى دخلت الى بستان لى أفادنيه كرمك وعمرته لى نعمك ، قد أينعت أشجاره وآتت ثماره ، فوجهت الى أمير المؤمنين منه شيئا على الثقة والامكان فى أطباق القضبان ، ليصل الى من بركة دعائه مثل ما وصل الى من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تكنيته عن الخيزران بالقضبان لأنه اسم أمه (٦)

وكان الحديث يجرى فى مجلس الخليفة فى أول الاسلام باللغة العربية الفصحى ، فيعربون الكلام ويضبطون حركات الالفاظ ، فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحانا . فكان الامويون يرسلون أولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا ألفاظهم ، وقد أحسنوا ذلك الا الوليد بن عبد الملك فان أباه لم يرسله الى البادية فنشأ لحانا ، وكان أبوه يكره اللحن ومن أقواله : « اللحن فى الكلام أقبح من التفتيق فى الثوب والجدرى فى الوجه » ، ومنها : « تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض » . وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤمله ذلك ، وسأله سائل : « لقد عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين » فقال :

---

(١) العقد الفريد ١١١ ج ٣
(٢) المسعودى ١٥٧ ج ٢
(٣) ترتيب الدول ٦١
(٤) ابن الجوزى ٣٦ و ٦٠
(٥) ترتيب الدول ٩٨
(٦) فوات الوفيات ١٣ ج ٢

« شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » ، وكذلك كان سائر بنى أمية . وللوليد أخبار فى اللحن مضحكة (١) . وكان عمال بنى أمية مثل خلفائهم فى المحافظة على الاعراب الا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن أحيانا (٢) فلما استعجمت الدولة فى زمن بنى العباس قلت عناية الناس بالاعراب ، وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون فى كلامهم ، كأبى حنيفة النعمان وأبى عبيدة وغيرهما

احتجاب الخلفاء عن جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ، ثم احتجب الامويون وجعلوا بينهم وبين الجلساء حجابا ، ووسطوا فى حوائج الناس من يقضيها عنهم . وأول من احتجب معاوية بعد محاولة البرك بن عبدالله الخارجى سنة ٤٠ هـ قتله غيلة، وكان قد قعد له فى المسجد فلما خرج ليصلى الغداة شد عليه بالسيف فجرحه ، فلما شفى ابتنى هناك مقصورة يصلى فيها خوفا من مثل ذلك ، واحتجب عن الناس الا من اختصهم بالمجالسة ، واقتدى به الخلفاء بعده فى أوائل دولتهم وكذلك الاوائل من بنى العباس (٣)

والحجاب كان شائعا عند الفرس من عهد أردشير ، فكانوا ينصبون فى مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة أذرع وبينها وبين الجلساء عشرة أذرع ، فقلدهم العباسيون . ثم ضاعفوا الحجاب فى بعض الاحوال ، فاتخذوا عدة أستار الواحد وراء الآخر الى ثلاثة أو أربعة ، وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة أيضا(٤) وجعلوا لقصورهم عدة أبواب الواحد وراء الآخر (٥)

كذلك كان شأن العباسيين ، من أبى العباس السفاح الى المتوكل ومن بعده، الا الهادى فانه لم يحتجب عن أحد (٦) على انهم كانوا يحتجبون غالبا عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة ، وليس عن الخاصة الا أحيانا . فكانوا يقيمون عند الستارة حاجبا يسمونه صاحب الستارة ، يتوسط فى نقل مايريد الخليفة ابلاغه الى جلسائه أو ندمائه ، واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الاسلامية بمصر والاندلس

علامة الصرف

واذا أراد الخليفة صرف جلسائه أبدى اشارة يعرفونها فينصرفون . وهى عادة فارسية وضعها كسرى أنوشروان ، فكان اذا أحب أن يصرف ندماءه مد رجله فينصرفون .. وتابعه ملوكهم على ذلك، فكان فيروز يدلك عينيه ، وبهرام

---

(١) العقد الفريد ٢٢٤ ج ١ والفخرى ١١٢
(٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ١
(٣) المسعودى ١٠٦ ج ١
(٤) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١ والاتليدى ١٣٣
(٥) الاتليدى ١١٥
(٦) الاغانى ١٦ ج ٥

يرفع رأسه الى السماء (١) وقلدهم فيها المسلمون من أيام بنى أمية ، فكان معاوية اذا أراد صرف الناس قال : « اذا شئتم » أو « العزة لله » ، وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله : « على بركة الله » . وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فاذا ألقاها من يده عرف جلاسه أنه يريد انصرافهم (٢) وقس عليه سائر الخلفاء من بنى أمية وأمرائهم ، فكان يزيد بن هبيرة اذا أراد صرف جلسائه دعا بمنديل فيقومون

أما بنو العباس فقد كانت امارة السفاح منهم أن يتثاءب ويلقى المروحة من يده (٣) وكانت علامة المأمون أن يعقد أصبعه الوسطى بابهامه ويقول : « برق يمان برق يمان ! » . ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرى ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى

مجالس الادب والشعر

رغبة الخلفاء فى الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار ، فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من أهل الاخبار والنوادر والادب والشعر ، يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعه من أخبار العرب ونوادرهم وأشعارهم . وكان الدهاة من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة (٤) يقيمون اناسا يتلون عليهم أعمال القواد والملوك من الروم والفرس ، وأخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأى ، يلتمسون بذلك التوسع فى أسباب الدهاء وأفانين السياسة ، كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء

على انهم كانوا يعقدون مجالس الادب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة ، وتلذذا بالاطلاع على آداب العرب وأخبارهم ، فاختص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من أصحاب الاخبار والشعر ، يجالسونه فى أوقات معينة أو اذا دعاهم فى ساعة قلقه أو أرقه . وقد يكون ذلك فى أواسط الليل والناس نيام . فلا يزال الرجل ينتقل بحديثه من خبر الى نكتة الى نادرة الى شعر ، حتى يزول ما فى نفس الخليفة وينشرح صدره . وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الاخبار قبل أن ينشرح صدر الخليفة ، فيضع قصة من عند نفسه يبنيها على نكتة أو حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة له (٥)

---

(١) حلبة الكميت ٢٦
(٢) البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢١٩ ج ١
(٣) الاغانى ٢٠٦ ج ١٨
(٤) ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسعودى ٥١ ج ٢ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢ وسير الملوك ٢٢
(٥) المسعودى ١٦٣ ج ٢

احترام الخلفاء لاهل العلم

وكانوا يجلون أهل الادب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الاموال ويدافعون عنهم ، ولا سيما الرشيد والمأمون . وفيما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء أدلة عديدة على ذلك ، فكان كثير الملاطفة للاصمعى والاجلال له ، فاذا خلا به سأله واستفاد منه علما وادبا ، فيقول الرشيد عند ذلك : « هكذا وقرنا فى الملا وعلمنا فى الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة . وأكل أبومعاوية الضرير طعاما مع الرشيد ، فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الابريق وصب عليهما والرجل لا يعلم ، فقال له : « أتدرى من يصب الماء على يديك؟» قال : « لا » قال : « أنا » قال : « أنت يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « نعم ، اجلالا للعلم » (١)

ناهيك بما وقع من البحث فى مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه والكسائى، وكيف انتصر الامين الكسائى والمأمون لسيبويه ، وما جرى من الجدال فىذلك بحضرة الرشيد ، فأخذ الرشيد بناصر الكسائى فى حديث طويل ذكرنا خلاصته فى الجزء الثالث

ومن أدلة اجلالهم للعلم انهم كانوا يحرضون أبناءهم على تلقيه وحفظ الاشعار والاخبار ، ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين . فالمنصور ضم الشرقى بن القطامى الى ابنه المهدى وأوصاه ان يعلمه أخبار العرب ومكارم الاخلاق وقراءة الاشعار (٢) والرشيد عهد بتعليم ابنه الامين الى الاحمر النحوى ثم الى الكسائى وعهد بتأديب المأمون لليزيدى وسيبويه وغيرهما. وللرشيد وصية يقال انه أوصى بها الاحمر المذكور لما عهد اليه بتأديب الامين وهى :

« يا أحمر ، ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الاخبار ، وروه الاشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة» (٣)

وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو ، واتفق ان الفراء أراد أن

---

(١) سير الملوك ٧٩
(٢) المسعودى ١٨٠ ج ٢ وطبقات الاطباء ٤٢
(٣) ابن خلدون ٤٧٥ ج ١ والمسعودى ١٩٤ ج ٢

ينهض ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدماها له ، فتنازعا أيهما يقدمها ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة . وبلغ ذلك المأمون فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال المأمون : « من أعز الناس ؟ » قال : «لا أعرف أحدا أعز من أمير المؤمنين » فقال : « بل من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردا » فقال : « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا اليها أو كسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها » (١) . وعهد المتوكل بتعليم أبنائه الى ابن السكيت (٢) وتعلم عبد الله بن المعتز الادب والعربية على المبرد وثعلب واحمد بن سعيد الدمشقى (٣)

تقديم الشعراء

ويقال نحو ذلك فى تقديمهم الشعراء ، فقد أجزلوا لهم الاعطية ، وعينوا لهم أوقاتا يدخلون فيها عليهم كما قلنا فى غير هذا المكان ، وكانوا يفرضون لهم مالا يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة ، أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغا معينا . على أن مقامهم كان يعلو ويهبط تبعا لامزجة الخلفاء وأغراضهم وأحوال السياسة . فمنهم من كان يبعد الشعراء بخلا كعبدالملك ابن مروان وابنه الوليد (٤) . ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء من بابه تورعا لاعتقاده انه لا تصح اجازتهم من بيت المال ، وكان ذلك اعتقاد غير واحد من أبناء الصحابة كعبد الله بن الزبير وغيره . وكان المنصور بخيلا على الشعراء اشتغالا عنهم بتأييد الدولة . فكانوا يخرجون فى أيامه من بغداد ويجتمعون ويتذاكرون أيامهم فى الشام (٥) على عهد بنى أمية

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقربون الشعراء ، وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم أبيات مشهورة . وكان الشعراء يتقربون الى الخلفاء أو الامراء بالمديح ، وقد يرتكبون أقبح الاكاذيب فى هذا السبيل ، الا من لم ينتجع بشعره وهم قليلون ، وكانت لهم منزلة رفيعة عند أهل الدولة (٦) وأما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح أو الهجاء . وقيل للحطيئة : « اياك وهجاء الناس » فقال : « اذا يموت عيالى جوعا . هذا مكسبى ومنه معاشى » (٧) وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة فى الكسب ،

---

(١) طبقات الادباء ١٣٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢
(٢) طبقات الادباء ٢٣٨
(٣) فوات الوفيات ٢٤١ ج ١
(٤) الاغانى ١٥٨ ج ١٥ و ١١٩ ج ٢٠
(٥) الاغانى ٩١و١٠٢ ج ١٢
(٦) الاغانى ٧٩ ج ٢٠
(٧) الاغانى ٥٥ ج ٢

كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعليا (١)

وكان الشاعر اذا دخل على الخليفة بقصيدة أنشدها بصوت عال وهو قائم. واذا تعدد المنشدون قدمهم على الاسنان . وكان الخلفاء يتفهمون معانى الشعر حتى انهم كثيرا ما كانوا يباحثون الشاعر فى معنى البيت أو الكلمة ، واذا استبطأوا الشاعر أو الراوية بعثوا فى استقدامه من العراق أو الحجاز ، وقد لايكون الغرض من ذلك الا سماع بيت أو قصيدة ، كما فعل الوليد بن يزيد فى استقدام حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيها مغنيته (٢) أو لينظم له شعرا فى حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحاك ليقول فى ذلك شعرا (٣) وقد يجيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم ، كما اجاز المهدى الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته لانه أتاه بابن جامع (٤)

وكانوا لايكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء للاستجداء ، فيرسلون فى طلبهم الى الانحاء ، وأرغب الخلفاء فى ذلك الرشيد (٥) فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد ، واضطروا الى امتحانهم وترتيبهم فى الجوائز ، فعهد يحيى ابن خالد بذلك الى شاعره ابان اللاحقى (٦) واصبح الخليفة اذا احب مجالسة الشعراء بعث رجلا يثق به ليختار له أحسنهم (٧) أو اذا عن له بيت أو قصيدة خرج وصيف أو حاجب أو نحوهما فيقول للشعراء : « من منكم يقدر يقول قول فلان أو يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا » (٨) وكانوا يطربون للشعرَ ويستلذونه ، وربما تزاحفوا عن مجالسهم اعجابا وطربا (٩)

مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الادب فى أيام بنى أمية وأوائل بنى العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الادبية والعلوم اللسانية كما تقدم ، فلما ترجمت علوم القدماء فى العصر العباسى ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء . وقد سبق الناس الى العناية فى ذلك البرامكة ، فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من أهل النحل ، يتباحثون فى الكون والظهور والقدم

---

(١) الاغانى ١٣٩ ج ٤
(٢) الاغانى ٦٥ ج ٢
(٣) الاغانى ١٧٨ ج ٦
(٤) الاغانى ٨٣ ج ٦
(٥) الاغانى ٧٤ ج ١٧
(٦) الاغانى ٧٣ ج ٢٠
(٧) الاغانى ٢ ج ١٢
(٨) الاغانى ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧
(٩) سير الملوك ٩٣

والحدوث والاثبات والنفى وغيرها من الابحاث الفلسفيـــة المبنيـــة على علم الــكلام (١)

ثم اهتم الخلفاء انفسهم فى ذلك ، ولا سيما بعد أن ظهر القول بخلق القرآن وقام به المــأمون ، فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفى سواه ، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من ســائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم : « انزعوا أخفافكم » ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : « أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء » ومن كان خفه ضيقا فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها » . فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا ، فاستدناهم الخليفة حتى يدنوا منـــه ويناظرهم أحسن مناظرة وألطفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك الى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون (٢) وسار الواثق على خطواته فى هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة الى اثبات رأى أو مذهب جديد

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل ما فعل يحيى البرمكى وزير العباسيين ، فأنشأ مجالس للمناظرة فى الفقـــه والادب والشعر وعلم الــكلام وغيره ، وغرض هذه الدولة اثبات مذهب الشيعة لأن دولتهم قامت عليه . فأخذ الحاكم بأمر الله يفاوض العلماء ويجيزهم ، ويسهل عليهم البحث والمناظرة فى دار الحكمة التى انشأها فى القاهرة (٣) وربما عقـــدوا حلق المناظرة فى الجوامع أو غيرها

وصارت تلك المجالس عامة فى الدول التى خلفت الدولة العباسية أو تفرعت منها ، وأكثر العقلاء والاقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة ــ كذلك فعل صلاح الدين الايوبى وسيف الدولة الحمدانى ونظام الملك وزير ملكشاه والحكم المستنصر الاندلسى . واقتدى بهم أهل العلم والوجهـــاء والاطبـــاء ، وأطلقت حرية البحث فى كل شىء . ومن أشهر مجالس المنـــاظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه فى بغداد ، فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والاطباء والادباء والمتكلمين وغيرهم (٤) ومجلس أبى حامد الاسفراييني كان يحضره ٣٠٠ فقيه . وقس عليهما مجلس ابن المنجم وكان يعقده بحضرة المكتفى (٥)

---

(١) المسعودى ٢٠٢ ج ٢ وابن خلكان ٤٨٠ ج ١
(٢) المسعودى ٢٣١ ج ٢ وابو الفرج الملطى ٢٣٦
(٣) الجزء الثالث من هذا الكتاب
(٤) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ وابو الفرج الملطى ٢٢٧
(٥) ابن خلكان ٢٢٥ ج ٢

مجالس الغنـاء والانس

منزلة المغنين

تقدم الـكلام فى تاريخ الغناء وأصله وانتشاره ، وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص فى ابان الحضارة وعصر الرخاء والترف ، وجعلـوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم (١) وفرضوا لهم الرواتب كما فرضـوها للشعراء ، وعهدوا بهم الى بعض أهل البلاط أو الحاشية ينظرون فى أمورهم (٢) . وكانوا يصطحبونهم فى خروجهم للصيد أو نحوه ويجيزونهم (٣) الجوائز الكبرى وهم أقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق فى مجالسهم من طرب الخلفاء ، لانهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب ، فاذا طربوا بذلوا الاموال بلا حسـاب كما تقدم

ومن اكثر الخلفاء الامويين رغبة فى الغناء وبذلا للمغنين يزيد بن عبد الملك ، الذى استخفه الطرب من غناء جاريته حبابة حتى قال : « أريد أن أطير ! » . فقالت له حبابة : « على من تدع الامة وتدعنا ؟ » (٤) وكذلك كان ابنه الوليد ابن يزيد . ومن الخلفاء العباسيين المهدى والرشيد والامين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ فى أيامهم من الوجهاء والعظماء

على انهم كانوا اذا أهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها أبعدوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم ، كما فعل المأمون لما رجع من خراسان (٥) . وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة فى الدولة كابراهيم الموصلى وأبنه اسحق وابن جامع ، وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر ، ذكروا عن ابراهيم المذكور انه غنى للامين بشـعر أبى نواس :

رشأ لولا ملاحتـه خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على ابراهيم وجعل يقبل راسه ! فنهض ابراهيم واخذ يقبل اخمص قدمى الامين وما وطئتا من البساط ، فامر له بثلاثة آلاف درهم ، فقال ابراهيم : « ياسيدى قد أجزتنى الى هـذه الغاية بعشرين الف الف درهم » فقال الامين : « وهـل ذلك الا خراج بعض الكور ؟ » (٦) فاعتبر ما دخل على الموصلى من الرشيد وغيره . فلا غرو اذا توفى عن ثروة طائلة . واشتهر فى الاندلس على بن نافع المعروف بزرياب المغنى وهو الذى نقل هذه الصناعة الى الاندلس ، فقد أثرى وارتفعت منزلته حتى

---

(١) الاغانى ٩ ج ١٣
(٢) ابن الاثير ٦١ ج ٨
(٣) الاغانى ١١١ ج ٥
(٤) المسعودى ١٢٦ ج ٢
(٥) الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١
(٦) العقد الفريد ١٩٥ ج ٣

صار يركب فى ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق(١)(*)

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجالس الغناء المضحكون والمجانون ، أشهرهم أشعب فى دولة بنى أمية وأبو الحسن الخليع الدمشقى فى أيام الرشيد وأبو العبر فى أيام المتوكل وغيرهم كثيرون . فكانوا اذا عقدت مجالس الانس ودارت الاقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلدون بها الدب أو القرد ، يعلقون فى أعناقهم الجلاجل والاجراس مما يضحك الثكلى ، وكان بعض الخلفاء اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لايطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم ، فالمتوكل كان اذا طرب أمر بأبى العبر المجان أن يرمى به فى المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير ، فاذا علا فى الهواء صاح : « الطريق الطريق ! » ثم يقع فى الماء فيخرجه السباح . وكان يجلس أحيانا على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع فى البركة ، ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك (٢) وكان الامين اذا طرب صاح فى ندمائه وجلاسه : « من يكون منكم حمارى ؟ » فكل واحد يقول : « أنا ! » فيركب الواحد ويصله (٣) وكان يقع فى مجالس الوليد ابن يزيد من السكر والفحش فى القول والفعل ما نتحاشى ذكره . وقد افرط الخلفاء فى التبسط فى العيش والتمتع بالملذات ، ولذلك كانوا قصار الاعمار فمات اكثرهم قبل سن الكهولة

---

(١) الاغانى ١٣٢ ج ١

(*) المادة عن زرياب وافرة ، اهمها نفح الطيب للمقرى ، فهرس الطبعة الاوروبية ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، طبعة الدكتور احمد أمين وآخرين ، القاهرة ١٩٤٨ — ١٩٥٥ ، الفهرس العام فى الجزء السابع، وطوق الحمامة لابن حزم ، طبعة بتروف، ليون ١٩١٤ ص ١٠٨ ،وتاريخ الموسيقى العربية لفارمر ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٧

Julian Rebera, La musica arabe medieval y su influencia en la espanola. Madrid 1927.

(٢) الاغانى ٩٢ ج ٢٠

(٣) الاغانى ٢٠٣ ج ٦

مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة أو السلطان أو الامير فى عيد أو غير عيد ، وهو من مقتضيات الابهة والمدنية . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب فى الجاهلية ، فكان لمعديكرب عبيد من الاحباش يمشـــون بين يديه بالحراب (١) فلما جاء الاسلام تزهد أصحــابه من التقوى ، فكان الخلفــاء الراشدون يركبون فى خروجهم كسائر الناس . وكان أبو بكر فى أول خلافته يقيم فى السنح بضاحية المدينة ويغدو كل يوم على رجليه الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يغدو الى السوق فيبيع ويبتاع ، وله قطعة غنم تروح عليـــه وربما خرج هو بنفسه فيها منفردا . وكان عمر يخرج فى الاسواق ماشـــيا ويسوءه أن يركب عماله وأمراؤه ركوب الفرس والروم . وفد على الشام أربع مرات جاءها فى المرة الاولى على فرس ، وفى الثانية على بعير ، وفى الثالثة على بغل ، وفى الرابعة على حمار . وبعث فى احدى خطراته الى أمرائه أن يوافوه فى الجابية ، فكان أول من لقيه يزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير ، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها (٢) فقس على ذلك سائر الراشدين

مواكب الخلفاء فى ابان التمدن

على ان اتخاذ الآلة والاعوان فى المواكب انما بدأ به العمال فى الامصـــار ، لقربهم من حضارة الفرس والروم ، فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة . وأسبقهم الى ذلك معاوية ، فأقام حراسا يرفعون الحراب بين يديه ، أو يقفون بالسيوف عند المقصورة التى يصـــلى فيهـــا خوفا من الاغتيال (٣) واقتدى به عماله ، وبعضهم سبقه الى مثله ، فاتخذ زياد ابن أبيه رجالا يمشون بين يديه بالاعمدة (٤) أو بالحربة . وأصبح ذلك قاعدة فى المسير بين يدى الخليفة ، ثم صار المسير بالحربة خاصا بولى العهد أو بكبار العمال ، يحملها رجل راكب على جواد يتقـــدم الخليفة أو الامير ، فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون (٥)

---

(١) المسعودى ١٩٧ ج ١
(٢) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والعقد الفريد ٢٣٦ ج ٢
(٣) الفخرى ٩٧
(٤) لطائف المعارف ١٢ والعقد الفريد ٤ ج ٣
(٥) البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٩ ج ٦ والمقريزى ٣٠٧ ج ١

وفى أيام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبى (صلعم) تسمى العنزة ، وأصلها للنجاشى ، فأهداها للزبير بن العوام فأهداها الزبير للنبى (صلعم) وكانت تركز بين يديه فى العيدين ، ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها الى المتوكل، فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه (١) اذا خرج فى موكبه

وتدرجوا فى الابهة بتدرجهم فى أسباب المدنية واتساع السلطة ، حتى اصطنعوا المحامل أو القباب أو المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ، ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين أيديهم . وأقدم من فعل ذلك الاشعث ابن قيس سيد أهل اليمن ، فكان يركب والناس يمشون بين يديه (٢) ثم صاروا يمشون بين يدى الخلفاء بالسلاح ، وأول من فعل ذلك الهادى العباسى، فكان اذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسى الموتورة (٣) فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدما صغارا يسمونهم النمل يتقدمونه وبأيديهم قسى البندق يرمون بها من يعارضه من الناس (٤) ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والامراء ، وأول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه رجالة الحسن بن على وزير المسترشد(٥) وكانوا الى ذلك الحين يركبون بالحلية الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديباج ، ثم ركبوا فى حلية الذهب، وأول من ركب بها المعتز العباسى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فجرى الناس على ذلك

أما فى مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين فى مواكبهم على جارى العادة فى سائر أسباب المدنية ، وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ، ولعلهم نقلوا هذه العادة من المغرب لانها كانت جارية هناك قبل الاسلام ، فكان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس (٦) فاتخذها الفاطميون من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر وحولها الاعلام تختلف الوانها باختلاف الاحوال

وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر على رءوسهم ، وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة فى الهواء على رمح يحمله من يسير قرب الملك بحيث يظلله من الشمس ، ويتخذونه من الديباج أو الحرير المذهب (٧)

على أن تلك المواكب تختلف فخامة وشكلا باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول ، أهمها موكب الخروج الى الحج أو الى بلد آخر . ومواكب الاعياد وهى

(١) ابن الاثير ٣٢ ج ٧
(٢) لطائف المعارف ١٢
(٣) المسعودى ٣٦٥ ج ٢
(٤) الاغانى ٩٤ ج ٢٠
(٥) الفخرى ٢٧٢
(٦) الاغانى ٥٩ ج ٦
(٧) ترتيب الدول ١٠٣

تمتاز بمن يقف للخليفة فى خروجه من صفوف الجنـــد . وأول من صفت له الجنود يزيد بن الوليد الاموى ، فكان يخرج يوم العيـــد بين صفين عليهم السلاح (١)

وللخلفاء مواكب كثيرة لو أردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ، ولكننا نقول بالاجمال انهم كانوا يخرجون على الخيول أو فى القباب ، وحولهم الاعوان ركوبا والشرطة مشاة ، وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب أو يحملون المقارع أو الطبرزينات المحلاة بالذهب ، ويقف الناس أو الجند فى الطريق صفين يسير الموكب بينهما ، ويختلف طول هـــذا الموكب باختلاف مايريدونه من اظهار الابهة . وقد بلغ طوله فى خروج المتوكل على الله أربعـــة أميال ترجل فيها الناس بين يديه (٢) واذا كان المسير الى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة فى الطريق (٣) يستظل الخليفة بها أو يقيم فيها

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الازهر بالمظلة المذهبة وبين أيديهم نحو ٥٠٠٠ ماش ، وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخلافة ، حتى يأتى الجامع ويصلى، ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة . واذا خرجوا للمبايعة أو الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهر (٤) وثوب يقال له البدنة كله ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله ، وبين يدى الخليفة الجنائب عليها السروج الذهب المرصع بالجـوهر والسروج العنبر والقباب الديبـــاج بالحلى ، والعســـكر على أزيائه من الاتراك والديلم والعزيزية والاخشيدية والـكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبة ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزراقة ، وفوق الخليفة المظلة الثقيـــلة بالجوهر وبيده قضيب الخلافة ، ويمشى أمامه أصحاب الابواق الذهب فأبواق الفضة فالنحاس ، وأصحاب الطبول الـكبار التى مكان خشبها فضة ، والالوية تخفق فوق ذلك الموكب

احتفالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات فى التمدن الاسلامى بعضها دينى كالموالد والاعياد والكسوة ، وبعضها وطنى كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليـــج . على ان الاحتفالات الدينية انما اتخذوا أسلوب الاحتفال بها من غير المســـلمين ، كما

---

(١) ابن الاثير ١٤٧ ج ٥
(٢) ابن الاثير ٣٦ ج ٧ والاغانى ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢
(٣) فوات الوفيات ٤ ج ١
(٤) المقريزى ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢

اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال بأعيادهم من الوثنيين. ولايزال الاحتفال بالاعياد الاسلامية شائعا الى الآن مع تغيير اقتضاه الفرق بين التمدنين. وأكثر الدول الاسلامية عناية بهذه الاعياد الفاطميون . منها : يوم عاشوراء ، والمولد النبوى ، ومولد على وفاطمة والحسن والحسين ، والخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب ، وعيد النحر ، وعيد الفطر ، وفتح الخليج ، ويوم النيروز ، وغيرها مما فصله المقريزى فى خططه (١). ولهم فى كل من هذه الاعياد رسوم وقواعد يبذلون فيها الاموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلى وغيرها مما يطول شرحه

وممن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب أربل ، وكان احتفاله بالمولد النبوى بالغا حد النهاية فى الابهة ، والمشهور انه أول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم (٢) وكذلك السلطان أبو حمو موسى صاحب تلمسان (٣) — هذا غير احتفالاتهم الاجتماعية كالاعراس والمآتم والختان ونحوها ، والسياسية كاستقبال الوفود والمبايعة والتتويج والخلع ، فنذكر أمثلة منها فيما يلى :

احتفالات الاعراس ونحوها

فالاحتفال بالاعراس تقلب على أحوال شتى ترجع الى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين فى مصر الآن ، مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة . ونأتى بمثال من أبلغ ما يعرف من التناهى بالبذخ فى مثل هذه الحال، فنذكر احتفالين اشتهرا فى تاريخ الاسلام :

الاول : زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون ، احتفلوا به فى « فم الصلح » احتفالا لم يسبق له مثيل ، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت فى يد الرجل فتحها فيقرأ ما فى الرقعة ، فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ملكا آخر أو فرسا أو جارية أو مملوكا . ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، غير ما انفقه على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقا لا يحصى حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره . ذكروا انه خدم فى

(١) المقريزى ٤٩٠ ج ١
(٢) ابن خلكان ٤٣٦ ج ١
(٣) نفح الطيب ٦٠٤ ج ٤

ذلك الاحتفال ٣٦،٠٠٠ ملاح ونفد الحطب يوما فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموسا فى الزيت . ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحمدونة بنت الرشيد فما مست احداهن من الدر شيئا . فقال المأمون : « شرفن أبا محمد وأكرمنه » فمدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة ، فبقى سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ فقال المأمون : « قاتل الله الحسن بن هانىء » ، كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

وكانت فى المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دخانها فعملت له مثل من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار . وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة . وجاء المأمون الى عروسه فى الليلة التالية فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب (١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق

والاحتفال الثانى اقامه المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا ، ومما جرى فيه انه جلس بعد فراغ القواد والاكابر من الاكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجوهر ، وعليها أمثلة من العنبر والند والمسك المعجون على جميع الصور ، وجعلت بساطا ممدودا . وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب ، فوضعت بين أيديهم صوانى الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة . وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالادم مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، فصبت فى الفرجة حتى ارتفعت على الصوانى ، وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتنفل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات مما حملت يده ، وكلما خف موضع صب عليه من الزنابيل حتى يرد الى حالته . ووقف غلمان فى آخر المجلس فصاحوا : « ان أمير المؤمنين يقول لكم : ليأخذ من شاء ما شاء ! » فمد الناس أيديهم الى المال فأخذوه ، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به فيسلمه الى غلمانه ويرجع الى مكانه . ولما تقوض المجلس خلع على الناس الف خلعة ، وحملوا على الف مركب بالذهب والفضة وأعتق الف نسمة (٢)

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدى بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت اليه

---

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٢ ج ١
(٢) لطائف المعارف ٧٤

بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها الى دار الخلافة (١) وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه فى الجزء الاول من هذا الكتاب

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الابهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين ، وأول من خلع عليه جعفر البرمكى فى اليوم الذى تولى الرشيد الخلافة فيه ، وكان فى جملة ما خلعه عليه ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير ، وأمر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه وأعطاهم خاتم الملك ليختم به على ما يريد (٢) وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعمالهم خلعا تختلف شكلا وقدرا باختلاف الاحوال ، ومعها فى كل حال ثوب يرسله الخالع ويلبسه المخلوع عليه يقال له الخلعة . فالخليفة العاضد الفاطمى لما ولى السلطان صلاح الدين الايوبى الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر ، وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تنيسى بطرف ذهب وثوب ديبقى بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب ، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة (*) بثمانية آلاف دينار عليها سرج ذهب وسرسار ذهب مجوهر ، وفى رأسها مائتا حبة جوهر وفى قوائمها أربعة عقود جوهر وفى رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض . ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى ومنشور الوزارة مكتوب فى ثوب أطلس أبيض (٣)

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسى على السلطان الملك الظاهر بيبرس يومئذ خلعة ألبسه اياها باحتفال ، هى عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق فى عنقه من ذهب وقيد فى رجله من ذهب (٤) . وقس على ذلك

استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيما يظهرون به عز الاسلام ، ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم أو الهند أو الافرنج . والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الاحوال ، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسى برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم فى « دار الشجرة » التى تقدم ذكرها وعبى لهم الجيوش ، وصفت الدار بالاسلحة وأنواع الزينة ، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٫٠٠٠ رجل بين

(١) ابن الاثير ٦٥ ج ١٠
(٢) المقريزى ٩٩ ج ٢
(*) بكسر الحاء وسكون الجيم ، هى الفرس . انظر : ملحق القواميس لدوزى ، مادة حجرة
(٣) السيوطى ٢٥ ج ٢
(٤) السيوطى ٥٨ ج ٢

راكب وواقف . ووقف الغلمان الحجرية (*) بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين الفا . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف ، منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و٣٠٠٠ خادم أسود. ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق فى دجلة أعظم زينة . وزينت دار الخلافة، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ ستر ، وكانت جملة البسط ٢٢٠٠٠ بساط . واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع . وكان فى جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التى تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها فى محلها . فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه (١)

الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع وأهله فى خمول ، فبغتوهم وفتحوا بلادهم فى بضع عشرة سنة على أسلوب لم يسبق له مثيل. فلما افاقوا أرادوا ردهم فعجزوا عنه ، وما لبثوا أن شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة ، فهابوهم وأخذوا يتقربون اليهم بالوفود والهدايا الى المدينة فدمشق ، ثم أصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من أطراف العالم من الهند والصين شرقا الى أعالى آسيا واواسط أوربا شمالا الى أقصى افريقيا غربا والبحر الهندى جنوبا . وصارت البصرة مركز التجارة البحرية فى الشرق وملتقى السفن القادمة من أقاصى البحور

الاسلام فى تاريخ الصين

المشهور ان الاسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير أصحابه ، ولم يدون اخباره غير أهله ، حتى الروم مع ما كان من مدنيتهم يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئا عن الاسلام أو المسلمين (**) .ولكن الباحثين عثروا فى الكتب

(*) الحجرية بضم الحاء وسكون الجيم نسبة الى حجرة ، ويريد بهم الغلمان الذين تربوا داخل القصر (فى الحجرات)

(١) ابو الفدا ٧٣ ج ٢ وابن الساعى ٧٥

(**) كان هذا هو المظنون حتى أواخر القرن الماضى ، ثم ظهر بعد ذلك ان المدونات اللاتينية والنصرانية فى الشرق والغرب حافلة بالاشارات الى ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم وانتشار الاسلام ، بل فيها مدونات أرخت للاسلام تاريخا منتظما ، وفيها ماتعرض للاسلام وحاول اعطاء فكرة عنه ، وهذه الكتابات كلها تحمل طابع التحامل والتعصب الشديد ، عن جهل بالاسلام حينا وميلا الى العصبية الدينية حينا آخر ، وعلى سبيل المثال فقط نذكر مايلى من الاصول والابحاث مما كتبته أهل العصور الوسطى من النصارى عن الاسلام :

الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه ، فقيام أبى مسلم الخراسانى ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك . فقرأوا أسماء محمد وقريش ومعاوية وأبى العباس وأبى جعفر وغيرهما من رجال الاسلام مكتوبة بالاحرف الصينية . ومما جاء هناك أن أبا جعفر أرسل سنة ٧٥٦ م وفدا الى أمبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من « هوى هو » من مغول الشمال فاختصم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الامبراطور ، فانصف الحاجب بينهما وأدخل كل وفد من باب — ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر فى أثناء سيرة الامبراطور سوتسونغ . قالوا : «ثم تولى المهدى وخلفه هرون الرشيد وفى أيامه (سنة ٧٨٥ م — ٨٠٤) جرد العرب أصحاب الجبة السوداء على توفان (تيبت) ثم صار أهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة . وفى (٧٩٨ م) جاء ثلاثة سفراء من العرب الى بلاط الامبراطور الخ » (١)

ووقفوا فى تاريخ الصين أيضا على نصوص تشير الى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من أواسط القرن العاشر للميلاد أو الثالث للهجرة ، فذكروا سفنا تجارية عربية كانت ترسو على شواطىء الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيرا ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم . ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام مما يطول بيانه . ومع اختصار هذه الاخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهى عظيمة الاهمية، لانها منقولة عن مصدر صينى مستقل (*)

E.W. Brooks, The chronological canon of James of Edessa. ZDMG, vol 53 (1899)
Ibidem, A. Syriac Chronicle of the year 846. ZDMG, vol. 53 (1897)
H. Buk, Zur aeltesten christlichen Chronographie des Islam, in Byzantinilsche Zeitschrift. Vol. 14 (1905)
Georg Jakob, Berichte von Gesandten an germanische Fürstenhoefe aus dem 9. und 10. Jahrhundert. Berlin und Leipzig 1927.
H. Zotenberg, Mémoire sur la chronique byzantine de Jean, évêque de Nikion. dans J.A. (7ème série) X (1877) p 451 sqq; XII (1878), p. 245 sqq. XIII (1879). p. 291 sqq.
Monumenta Germaniae historica, Auctorum antiquissimorum, tomus XI, Chronica minora saec. IV, V, VI, VII, Vol. II, éd. Th. Mommsen. Berolini 1893.
Neciphori (Archiepiscopi Constantinopolitani) Opuscula historica. éd. C. de Boor. Bib-Teubneriana. Lipsiae 1880.
Theodor Noeldeke. Zur Geschichte der Araber im ersten Jahrhundert der Hijra aus syrischen Quellen ZDMG. XXIX (1875).
L. Schwenkow, Kritische Betrachtungen der lateinisch geschriebenen Quellen zur Eroberung Spaniens durch die Araber. Goettingen 1894.

وانظر بصفة خاصة

Cesar Dubler, Sobre la Cronica arabigo-bizantina de 741 y la influencia bizantina en la Peninsula Ibérica. Al-Andalus, Vol. XI, fasc. 2, 1846.

(١) E. Betschneider. The knowledge Possessed by the Ancient Chinese of the Arabs & Arabian Colonies 7.

(*) انظر عن هذا الموضوع : العلاقات بين العرب والصين ، بقلم بدر الدين حى الصينى ، القاهرة ١٩٥٠

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيرا من أخبار نزولهم شواطىء الصين والهند ودخولهم على ملوكهما ومخاطبتهم فى بعض الشؤون التجارية . ولكن أكثر الناس كانوا لايكترثون بتلك الروايات لاعتقادهم أنها محشوة بالمبالغات والخرافات ، كأنهم قاسوها بما يقرأونه من الاقاصيص الخرافية فى الف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحرى والفرس المسحور وغيرهما . على ان هذه الاقاصيص منقولة فى الاصل عن غير العربية ، وأكثر خرافات العرب دخيلة فى آدابهم — وأما ما يكتبونه من عند أنفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق ، ولا سيما كتب التاريخ ونحوها اذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا

على اننا لا نلوم المنكرين ، لانهم انما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط هممهم وضعف عزائمهم ، فأكبروا أن يكون لهم مثل تلك الهمم الشماء فى عهد ذلك التمدن، فكذبوا ما قرأوه فى كتبهم من هذا القبيل. أما وقد رأينا ما يؤيده فى كتب أهل الصين على غير تواطؤ أو نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه

وأقدم ما وصل الينا من الكتب العربية التى ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب بشواطىء تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التى أجرتها العرب والعجم من شواطىء خليج فارس الى بلاد الهند والصين ، تأليف سليمان التاجر وابى زيد حسن من أبناء القرن الثالث للهجرة . وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرنسية للمستشرق الشهير رينو . ثم « مروج الذهب » للمسعودى ، وهو مشهور ومتداول ، غير أمهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبنى على رحلات حقيقية أشهرها ما كتبه البلخى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى وغيرهم ، وليس هنا مكان الافاضة فى ذلك (*)

(*) معظم من تكلم عن الصين من كتاب العرب وجغرافييهم يتحدثون ايضا عن بقية ماعرفوه من بلاد آسيا ، وكتاباتهم على درجة عظيمة من الاصالة والصراحة لان الكثير منها مبنى على مشاهدة وتجربة مباشرتين ، مثل كتابات سليمان التاجر السيراف وابى دلف الينبعى ورشيد الدين فضل الله وسيدى الحلبى، وقد نشر معظم هذه النصوص المستشرق الفرنسى Reinaud فى كتابه Relation des Voyages وكذلك ابن بطوطة فى رحلته المعروفة وهى منشورة ، وبعض من كتب عن الصين وآسيا من العرب اتى بأخبار مبنية على مشاهدة جزئية وأكمل كلامه بنقول وروايات مثل ابى زيد الحسن السيراف والمسعودى وابن خرداذبة ، وبعضهم الآخر أعتمد على النقل مثل ابن الفقيه وابن حوقل واليعقوبى والادريسى وياقوت . ومن أهم هذه الاصول رحلة سليمان التاجر السيراف ، فقد كتب فى عام ٨٥١ بعد ان زار الصين اكثر من مرة، وهو الوحيد الذى وصف لنا الطريق البرى من العراق الى الصين ويبدو انه كان شديد الاعجاب بالصين واهلها ، فقد قال مثلا : « والصين كلها عمارة ، أهلها أجمل من أهل الهند واشبه بالعرب فى اللبس والدواب ، وهم فى هيئتهم فى مواكبهم شبيهون بالعرب ، يلبسون الاقبية والمناطق » وقال فى موضع آخر : « بلاد الصين انزه واحسن وأصح وأقل امراضا وأطيب هواء . لايكاد يرى بها اعمى ولا أعور ، ولا من به عاهة ، وأهل الصين فى كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة وعطاؤهم كعطاء العرب »

ومن أهم الكتب التى الفت حديثا عن الاسلام فى الصين

Marshall Broomball, Islam in China. London, 1906.

ويقال بالاجمال ان فى كتب التاريخ نصوصا كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق فى الهند والصين ، وان المهاداة كانت متواصلة بينهما . فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من أواخر القرن الثانى للهجرة تحمل الهدايا أو كتب المخابرة (١) ولا بد أيضا من وفود كانت تأتى بغداد من صاحب الصين

الاسلام وملوك أوربا

على ان علاقات ملوك المسلمين مع ملوك أوربا — وأعظمهم يومئـــذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان — كانت أوثق من ســـواها . أما الروم ، وهم ملوك القسطنطينية ، فكانت المخابرات متواصلة بينهم وبين المسلمين من أيام بنى أمية أما لصلح أو مهادنة أو مهاداة أو مفاداة (٢) . والحرب كانت سجالا بينهما على الحدود أو فى البحار . وقد حاصر الامويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها ولـكنهم فتحـــوا بلادا أخرى من أوربا وأوقعوا الرعب فى دول الافرنج . وكذلك بنو العباس (٣) فان الرشيد أخذ الجزية من ايرينى صاحبة القسطنطينية (*)

وأما حوادث المهاداة فهدية الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا أشهر من أن تذكر (**) . على أن هدايا ملوك الروم الى دار الخلافة كانت متواصـــلة ،

---

(١) العقد الفريد ١٤٩ ج ١ والمسعودى ٢٤٨ ج ٢ وترتيب الدول ٩٦
(٢) المبرد ٢٩٦ و ٣٢٤
(٣) ابن الاثير ٧٤ ج ٦
(*) فى تحقيق هذه العلاقات يستطيع القارىء الرجوع الى المراجع التى ذكرناها فى تعليقنا رقم ١ ص ١٥١

(**) سبق أن ذكرنا فى تعليقاتنا على الجزء الاول من هذا الكتاب ان قصة هدية الرشيد الى شرلمان قصة وضعها بعض تجار المغرب الذين ارادوا الحصول على بعض الامتيازات التجـارية فى بلاد الدولة الكارولنجية ، فزعموا أنهم رسل من الرشيد الى شرلمان ، وحملوا اليه هدايا فى جملتها فيل يسمى أبا العباس ، وليس من المعقول ان يطلق الرشيد اسم جده على فيل . أما القول بأن الرشيد أرسل الى شرلمان مفاتيح بيت المقدس فقد اخترعه الرهبان ليدعوا به حقوقا لشرلمان والبابوية على الاراضى المقدسة . وهم لم يكتفوا باختراع القصة ، بل صنعوا المفاتيح أيضا ، وقد ناقش الموضوع الدكتور عبد العزيز الدورى فى كتابه « العصر العباسى الاول» وختم حديثه بقوله : « أما رنسيمان ، فيرى فى نظرية حماية شارلمان على فلسطين أسـطورة اخترعها المؤرخ الاسطورى الراهب سنت كول الذى كتب حوالى خمسين سنة بعد وفاة شارلمان ، اذ جمع المعلومات عن الهدايا التى ارسلها الخليفة والبطريق مع معلومات اينهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل اليه وارداتها

وهكذا يظهرون نظرية الحماية واساسها الاسطورى . والذى اراه من هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر فى المصادر اللاتينية الثلاثة بالنص) احتمال وجود نوع من الصلات ولكنها صلات تجارية لاسياسية ، وان المسئول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق ، ولعلهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والاقطار الاسلامية والصين كما بين ابن خرداذبة ، خاصة وان من اساليب التجار آنئذ أن يدعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم »

وقد ناقشنا الموضوع كله فى فقرة « العباسيون والكارولنجيون » من بحثنا « المسلمون فى حوض البحر الابيض المتوسط الى الحروب الصليبية » فى المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ عدد ٢١ مايو ١٩٥١ ص ١٥٧ وما يليها

وأكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب . منها هدية بعث بها قيصر الروم (ربما ميخائيل الثانى) الى المأمون وفيها تحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور (١)

وأهدت ثريا بنت الاوبارى (كذا) ملكة الافرنج الى المكتفى بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفا و ٥٠ رمحا و ٢٠ ثوبا منسوجا بالذهب و ٢٠ خادما صقلبيا و ٢٠ جارية و ١٠ كلاب كبار لا تغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها (٢) (*)

وكان الخلفاء أيضا يوجهون وفودا من عندهم فى مراسلة أو مخابرة ، وممن سار فى ذلك القاضى الاشعرى المعروف بابن الباقلانى انفذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم (باسيل الثانى) فى جواب رسالة فاظهر فى بلاط القيصر انفة زادت مقام المسلمين عندهم (٣)

الاندلسيون وملوك الافرنج

على ان العلاقات كانت أكثر وثوقا بين ملوك أوربا وملوك الاسلام فى الاندلس ، لأن قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الأمويين فى قرطبة ليستنصروهم على العباسيين أعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبد الرحمن الاوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب اليه يرغبه فى ملك المشرق من أجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم ، وقد ذكرهما فى كتابه له وعبر عنهما بابن مراجل وابن ماردة ، تحقيرا لهما بالانتساب الى أمهات من الجوارى . فكافأه عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال شاعره وأحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما (٤) فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يطأه أحد من أسلافه ، تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته ، ووصل الى بابه الملوك من الاسبان المتاخمين لبلاده بجهات

---

(١) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١

(٢) المستطرف ٤٦ ج ٢

(*) يبدو ان هذا الخبر لا أساس له من الصحة ، ومصدره على أى حال هو الابشيهى فى كتابه «المستطرف من كل فن مستظرف» وهو ليس مؤرخا ولا محل ثقة . وقد حققنا الموضوع فلم نجد له أثرا فى المطولات العربية والبيزنطية ، فعام ٢٩٣ يقابل ٩٠٩ ميلادية ، وكان امبراطور الدولة البيزنطية اذ ذاك ليون الرابع (٨٨٦ ــ ٩١٢) من ملوك الاسرة المقدونية ، وكانت الحرب عوانا بين الروم والمسلمين ، مما ينفى احتمال التهادى . وليس بين ملكات الروم من تسمى ثريا بنت الاوبارى ، وربما كانت سيدة من اصحاب الاقطاعات الواسعة فى آسيا الصغرى ، فأرادت ان تتقرب الى المسلمين حتى لايغزوا ارضها

(٣) ابن الاثير ٦ ج ٩

(٤) نفح الطيب ١٦٣ ج ١

قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الشمالية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه (١)

وتوالت الهدايا على عبد الرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان . فملكا برشلونة وطركونة هادياه يلتمسان تجديد الصلح (٢) وملك الصقالبة وهو يومئذ « ذوفوة » (كذا) أوفد اليه رسولا مع رسل آخرين من ملك الالمان (ربما أوتو الاعظم) وملك الفرنجة وراء الرون وهو يومئذ « أوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه «كلدة» (ربما كونراد) واحتفل الناصر لقدومهم احتفالا شائقا . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم . وبالجملة ان الخليفة الناصر كان سلطانه ضخما عزيزا ، لم يبق ملك من ملوك أوربا الا خطب مودته ، وفى جملتهم قياصرة الروم وملوك الافرنج والاسبان والجرمان . وفى نفح الطيب للمقرى تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال فى استقبالهم (٣) تعظيما لدولة المسلمين . ولما أراد بناء « الزهراء » أهداه أولئك الملوك من أصناف الحجارة والرخام على اختلاف الوانه وأشكاله شيئا كثيرا (٤) وقد ذكرنا ذلك فى كلامنا عن بناء هذا القصر الفخيم

وقس على ما تقدم علاقات ملوك أوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم ، فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ، ولا سيما فى زمن الفاطميين بعد أن ضخمت دولتهم ، منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٣٧ هـ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارا من الذهب الاحمر ، كلّ قنطار فى عشرة آلاف دينار، الجملة ٣٠٠ر٠٠٠ دينار (٥) وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة فى ذلك العهد نزل عند باب الفتوح ، ولا يزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة (٦)

---

(١) نفح الطيب ١٦٧ ج ١
(٢) نفح الطيب ١٨١ ج ١
(٣) نفح الطيب ١٧٢ ج ١
(٤) نفح الطيب ٢٧٠ ج ١
(٥) المستطرف ٤٦ ج ٢
(٦) المقريزى ١٠٧ ج ٢

ألعاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهون في ساعات الفراغ بألعاب يروضون بها عقولهم وأبدانهم . ولكل أمة ألعاب تلائم عاداتها وتشاكل أخلاق أهلها ، ولكن الملوك يتشابهون في أكثرها لتشابه مرادهم منها . وألعاب الخلفاء كثيرة ، بعضها كان معروفا في الجاهلية كالصيد والسباق ، وبعضها اقتبسوه من الاعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمى بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . وأسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الالعاب العباسيون في أيام الرشيد، فانه أول من لعب بالصولجان والكرة ، وأول من رمى بالنشاب في البرجاس، وأول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللاعبين وأجرى عليهم الارزاق(١) واليك وصف أهم ألعابهم في ابان تمدنهم :

١ ـ الصيد والقنص

كان الصيد معروفا في الجاهلية ، ولكنه كان قاصرا على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ ، فلما تمدن العرب بعد الاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص ، فاتخذوا الجوارح من الطير وهي البازي والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور ، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش. وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية ، وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود ، وله كلف بالصيد فاتخذه للهو وليس للرياضة . وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب والاجلة المنسوجة بالذهب ، ويهب لكل كلب عبدا يخدمه (٢) . واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني أمية على تفاوت في ذلك

حتى اذا افضى الامر الى بني العباس ورسخت أقدامهم في الدولة ، اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود ، وغالوا في انتقائها وبذلوا الاموال في اقتنائها وتربيتها ، وأقاموا عليها أناسا ينظرون في شؤونها وفيهم البيازرة والحجالون والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب ، واطلقوا لهم الارزاق الجليلة واقطعوهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم . وتسابق

---

(١) المسعودي ٣٦٥ ج ٢

(٢) الفخري ٤٩

الشعراء الى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها (١) وكتبوا فى فنون الصيد وأساليبه كتبا عديدة ، ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطارد (٢)

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير (*) فضلا عن الغزلان والطيور وحمر الوحش ونحوها . وأول من أحب الصيد منهم المهدى فالرشيد ، وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير (٣) وابنه الامين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب اللبابيد (٤) وكان المعتصم ألهجهم به ، فبنى فى أرض دجيل قرب بغداد حائطا طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده ، وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفر نحوه فيضربون حولها حلقة ، ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهى تثب بين الاعشاب والادغال حتى يضايقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة ، فلا يبقى لها مجال للنجاة فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته ، ويتأنقون فى القتل والصيد ويتفرجون فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقى (٥)

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بنى العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والاتابكة والايوبية والمماليك . فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقى من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس ، حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التى صادها منارة (٦) وكان السلطان مسعود السلجوقى يبالغ فى ترفيه الكلاب حتى ألبسها الجلال الاطلس الموشاة وسورها بالاساور الذهب . واصطنع السلطان أبو عبد الله المستنصر فى المغرب مصيدا بناحية بنزرت فى بقعة ببسيط من الارض ، وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لايراع فيه حمر الوحش ، فاذا ركب للصيد تخطى السياج فى أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج (٧) وفى كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة فى الصيد وطرقه (٨)

٢ ـ الحلبة أو السباق

لم تبق أمة من الامم القديمة أو الحديثة الا لهجت بالسباق ، ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب فى الجاهلية يتسابقون بخيولهم

---

(١) ترتيب الدول ١٣٦ وديوان أبى نواس والاغانى ١١٦ ج ٩
(٢) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ و ٤٢٣ ج ١
(*) المراد الخنازير البرية ، وهى أضخم بكثير من الخنازير المستأنسة ، ومعروفة بشراستها وخطورتها على من يتعرض لصيدها
(٣) الاغانى ٩٧ ج ٩
(٤) المسعودى ٢١٣ ج ٢
(٥) الفخرى ٤٧
(٦) ابن خلكان ١٢٤ ج ٢
(٧) ابن خلدون ٢٨١ ج ٦
(٨) كتاب الاعتبار ١٥٠

ويتفاخرون بذلك ، وكثيرا ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق . وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة وهى ميدان السباق عشرة عشرة ، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها فى السبق بعضها على بعض (١)

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا فى اتخاذ الميادين ، واستكثروا من الخيول وتفننوا فى تضميرها. وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها فى أيام معينة للسباق، فمن حاز قصب السبق أجازوه — وقصب السبق قصبة يغرسونها فى آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعها فهو الفائز . ومن غريب ما ذكروه أن يزيد ابن معاوية كان له قرد يكنى أبا قيس ، يحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأ ، وكان نبيها خبيثا يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت بسرج ولجام ، وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء أبو قيس فى بعض الايام سابقا وتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعليه قباء من الحرير الاحمر والاصفر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق ، وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر المنقوش (٢)

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة فى الحلبة ، يستجيد الخيل للسباق ويبذل فى اقتنائها الاموال ، فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه أحد من العرب الى ذلك . وكان له فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر فى ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرما بخيل السباق ، فجمع منها ألف فرس أسبقها فرس اسمه « السندى » كان يسابق به فى أيام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه أو جاء مصليا (أى جاء الثانى) . وكان ميدان السباق يومئذ فى الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة (٣) ولمحمد بن يزيد بن عبد الله بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها ، هى أحسن مانظم فى هذا الموضوع(٤)

أما العباسيون فلم يكونوا أقل رغبة فى السباق ، وكانت لهم ميادين كبيرة فى الرقة والشماسية ، وللرشيد مواقف شهيرة فى الحلبة ، نظم فيها الشعراء القصائد فى مدح السوابق (٥) وقس على ذلك ماكان من ميادين الحلبة فى سائر دول الاسلام ، ومن أشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر(٦) وميادين الحكم فى الاندلس

---

(١) المسعودى ٣٨٠ ج ٢
(٢) المسعودى ٦٨ ج ٢
(٣) المسعودى ١٢٩ و ١٣٥ ج ٢
(٤) المسعودى ٣٨١ ج ٢
(٥) العقد الفريد ٤٧ ج ١ والمسعودى ١٩٩ ج ٢
(٦) المقريزى ١١١ ج ٢

٣ ـ الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو امية يعرفونها ، وأول من لعبها بنو العباس وأسبقهم اليها الرشيد . وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في أرض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقافها بعصا عقفاء يسمونها الصولجان أو الجوكان ، ويرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم ، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى انه قسم أصحابه يوما للعب بها ، فجعل الافشين في جهة وهو في جهة ، فقال الافشين: « يعفيني أمير المؤمنين من هذا » فقال : « ولم ؟ » قال : « لاني ما أرى ان أكون على أمير المؤمنين في جد ولا هزل » فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه (١)

٤ ـ البندق

البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها ، وهي فارسية بلفظها واستعمالها ، ويسمونها أيضا الجلاهقات جمع جلاهق . فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الاقواس كما يرمون النبال . واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام عثمان بن عفان ، وعدوا ظهورها في المدينة منكرا(٢) ثم ألفوها حتى شكلوا فرقا من الجند ترمي بها . وقد رأيت أن الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النمل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب . وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه (٣) ويعدون ذلك من قبيل الفتوة ويغلب في رماة البندق أن يشتغلوا بتطيير الحمام . ولهم زي خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة . وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها في أواخر الدولة . حتى اذا أفضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمي البندق شأنا ، لانه كان ولعا به وباللعب بالحمام المناسيب (أي المنسوب ذي الاصل المعروف) وكان يلبس سراويل الفتوة . وقد بلغ من رغبته في ذلك أن جعل رمي البندق فنا لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، على أن يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء . وكتب سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته ان يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها ، وأن ينتسبوا اليه برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه ، فأجابوه الى ذلك فمن أراد

---

(١) ترتيب الدول ١٣٠
(٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٣
(٣) الاغاني ٩٣ ج ٢٠

الانتظام فى سلك هذه الطائفة يأتى بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه .. فبطلت الفتوة فى البلاد جميعها الا من لبس سراويلها منه ، ومنع الرمى بالبندق الا من ينتسب اليه . فأجابه الناس فى العراق وغيره الا انسانا اسمه ابن السفت من بغداد هرب الى الشام ، فأرسل الخليفة اليه يرغبه ببذل المال ليرمى عنه وينتسب فى الرمى اليه فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال : « يكفينى فخرا أنه ليس فى الدنيا أحد لا يرمى للخليفة الا أنا » (١)

وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الاسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة أقواس البندق (٢) ثم تفننوا فى رمى البندق بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أنابيب البنادق .. فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة اليه . ومن قبيل رمى البندق رمى النشاب فى البرجاس ، وهو غرض فى الهواء أو على رأس رمح أو نحوه يطلبون اصابته بالنشاب ، وهى لعبة فارسية أول من لعبها من الخلفاء الرشيد

ومما يدخل فى الألعاب والملاهى لعبة الشطرنج ، وهى هندية الأصل أخذها العرب عن طريق الفرس ، وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضا ، وهو أول من لعب النرد كما تقدم ، ولاتزال هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم

٥ ــ ارتباط السباع

وكان من ملاهى الخلفاء والملوك ارتباط الأسود والفيلة والنمور لاثبات الهيبة فى قلوب الرعية ، وأول من اهتم بذلك بنو العباس ، فكان المنصور كثير العناية فى جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها ، وكان للرشيد أقفاص فيها الاسود والنمور وغيرها (٣) وغالى الذين جاءوا بعده فى اقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها ــ ذكروا أنه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلا ، وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف ، واذا ركب ركبوا فى خدمته واذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاء يزيد بن مرثد يوما الى أم جعفر ليودعها قبل سفره فأتوا اليه بالقرد وأمروه أن يقبل يده ، فشق عليه ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف ، فبعث اليه الرشيد وعاتبه فقال : «يا أمير المؤمنين أبعد أن أخدم الخلفاء أخدم القرود ؟ لا والله أبدا» فعفا عنه (٤)

وما زال شأن الخلفاء وأهلهم على ذلك حتى تولى المهتدى ، وكان يتشبه

---

(١) ابن الاثير ٢٠٢ ج ١٢ وابو الفدا ١١٩ و ١٤٢ ج ٣ وابن خلدون ٥٣٥ ج ٣
(٢) المقريزى ٣١ ج ٢
(٣) العقد الفريد ١٥٠ ج ١
(٤) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمة ادورد برون الى الانجليزية صفحة ٤٥

بعمر بن عبد العزيز فى التقوى والزهد، فأمر بقتل السباع التى كانت فى القصور وطرد الكلاب ، ولكن ذلك المنع لم يدم طويلا . فلما مات المهتدى عادوا الى المغالاة فى اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم فى مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره أحضرت الأسود والفيلة والنمور فى السلاسل ، وجعلت فى حواشى مجلسه تهويلا بذلك على الناس وترويعا لهم (١)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين فى مصر والأندلس وغيرهما ، فقد كان لخمارويه بن أحمد بن طولون دار خاصة بالسباع ، عمل فيها بيوتا بآزاج كل بيت يسع سبعا ولبؤته ، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات ، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل . وفى جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدى هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها ، وفى جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته ، أو وضع وظيفة اللحم لغذائه ، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة ، فيرد الباب وينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ، ويضع الوظيفة من اللحم فى مكان معد لذلك بعد مايخلص مافيه من الغدد ويقطعه له ، ويغسل الحوض ويملأه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه. وقدعرف السبع ذلك فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد فيأكل ماهيىء له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم أوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضا ، فتقيم يوما كاملا الى العشى فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره

وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق ، وقد انس بخمارويه وصار مطلقا فى الدار لا يؤذى أحدا ، ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه ، فيرمى اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدى ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به . وكانت له لبؤة لم تستأنس كما انس هو ، فكانت مقصورة فى بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه . فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه ، فان كان قد نام على سرير ربض بين يدى السرير وجعل يراعيه مادام نائما ، وان نام على الأرض بقى قريبا منه وتفطن لمن يدخل ويقصد

(١) الفخرى ٢٠

خمارويه لايغفل عن ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد الفه ودرب عليه ، وكان فى عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه مادام نائما لمراعاة زريق له وحراسته اياه (١)

وتطرف آخرون فى اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات ، فالوزير جعفر ابن خنزابه أحد وزراء المقتدر بالله العباسى كان يهوى النظر الى الحشرات من الأفاعى والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين ومايجرى هذا المجرى ، وكان فى داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها، وكان كل حاو بمصر يصيد له مايقدر عليه من الحيات ويتناهون فى ذوات العجب من أجناسها وفى الكبير والغريب منها وهو يثيبهم على ذلك أجل ثواب ويبذل لهم المال الجزيل . وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون مافى تلك السلال ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنه (٢)

وكانت لهم عناية فى تربية الحيوانات الداجنة أيضا كالغزلان والقمارى وأشباههما ، يجعلونها فى حظائر وأقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها (٣)

واجتمع عند العزيز الفاطمى صاحب مصر من غرائب الحيوانات مالم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء (؟) قالوا : « وهو طائر جاءه من صعيد مصر فى طول البلاشون وأعظم جسما منه ، له غبب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة » (٤)

واتخذ الخليفة الناصر الأموى فى مدينة الزهراء بالاندلس محلات للوحوش والسباع واسعة الارجاء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك كالاقفاص الكبيرة (٥)

وهناك ألعاب أخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للأمين مقرطة صيدت له وهى صغيرة فقرطها بحلقتين من ذهب فيهما حبتا در، وكلعب الحمام وتطييره ، واللعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة ، وغير ذلك مما لا محل لذكره

---

(١) المقريزى ٣١٧ ج ١
(٢) فوات الوفيات ١٠٥ ج ١
(٣) المسعودى ٢٦٠ ج ٢ وابن الاثير ٦٦ ج ٨
(٤) ابن خلكان ٢٦٧ ج ١
(٥) نفح الطيب ٢٧٤ ج ١

الكتب التى وردت فى هوامش الكتاب (* ١)

وهى المؤلفات التى وردت أسماؤها فى هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء ، مع أسماء مؤلفيها وسنى طبعها وأماكنه ، وهى غير ما رجعنا اليه فى التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والافرنجية

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الآثار الباقية عن القرون الخالية	للبيرونى	ليبسك سنة ١٨٧٨ م
الآداب السلطانية (الفخرى)	لابن الطقطقى	مصر ١٣١٧ هـ
أبجد العلوم ، ٣ أجزاء	لصديق القنوجى	الهند ١٢٩٦ هـ
ابن الأثير ، تاريخ	انظر : الكامل	
« الجوزى ، «	« : كتاب الأذكياء	
« حوقل ، جغرافية	« : المسالك والممالك	
« خرداذبة ، «	« : « «	
« خلدون ، تاريخ	« : العبر والمبتدا والخبر	
« خلكان ، معجم	« : وفيات الأعيان	
« الساعى ، تاريخ	« : مختصر أخبار الخلفاء	
« عساكر ، «	« : تاريخ دمشق	
« الفقيه ، جغرافية	« : كتاب البلدان	
« هشام ، تاريخ	« : السيرة النبوية	
أبو الفرج الملطى ، تاريخ	« : مختصر الدول	
« المحاسن ، تاريخ	« : النجوم الزاهرة	
الاتليدى ، معجم	« : أعلام الناس	
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	للمقدسى	ليدن ١٨٧٦ م
الأحكام السلطانية	للماوردى	مصر ١٢٩٨ هـ
أخبار الدول وآثار الأول	لأحمد شلبى بن يوسف الدمشقى القرمانى	بغداد ١٢٨٢ هـ
أدب الدنيا والدين	للماوردى	بهامش الكشكول (*٢)
الاستقصا فى المغرب الأقصى ٤ أجزاء	للسلاوى	مصر سنة ١٣١٢ هـ (*٣)

(*١) تركنا طبعات الكتب كما هى ، لانها هى التى رجع اليها المؤلف ، وقد أشرنا الى الطبعات الجديدة فى تعليقاتنا على النص ، ونذكر هنا مافاتنا ذكره هناك .

(*٢) طبع طبعة جديدة محققة سنة ١٩٢٥ بالقاهرة ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك مرارا نظرا لانه كان من الكتب المقررة للمطالعة المدرسية فى مصر

(*٣) طبع طبعة جديدة باشراف ولدى المؤلف احمد الناصرى السلاوى فى فاس فى تسعة اجزاء ، ابتداء من سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٧

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
أسد الغابة فى أخبار الصحابة ٥ أجزاء	لابن الأثير	مصر	سنة ١٢٨٦ هـ
الاصطخرى ، جغرافية	انظر : المسالك والممالك		
أعلام الناس	الاتليدى	مصر	١٣١٨ هـ
الاغانى ٢٠ جزءاً	لأبى الفرج الأصفهانى	بولاق	١٢٨٥هـ(*١)
الافادة والاعتبار	لعبد اللطيف البغدادى	مصر	١٢٨٦ هـ
ألف باء ، جزآن	يوسف البلوى	مصر	١٢٨٧ هـ
البخارى ، صحيح	انظر : صحيح البخارى		
بغية الطالبين فى علوم وعوائد المصريين	لأحمد بك كمال	بولاق	١٣٠٩ هـ
البلاذرى ، تاريخ	انظر : فتوح البلدان (*٢)		
بلوغ الأرب فى أحوال العرب ٣ أجزاء	للآلوسى	بغداد	١٨٩٨ م
البيان والتبيين جزآن	للجاحظ	مصر	١٣١٣ هـ
البيرونى ، تاريخ	انظر : الآثار الباقية		
تاريخ أبى الفداء ٤ أجزاء	للملك المؤيد	الاستانة	١٢٨٦ هـ
« الأمم والملوك ١١ جزءاً	للطبرى	ليدن	١٨٨٥ م
« دمشق	لابن عساكر	(خط) (*٣)	
« المشارقة	لصليبا بن يوحنا	(خط)	
« الوزراء	للهلال الصابى	بيروت	١٩٠٤م(*٤)
تحذير المسلمين	محمد ظافر	مصر	١٩٠٤ م
تراجم الحكماء	لابن القفطى	(خط) (*٥)	
ترتيب الدول	للحسن بن عبد الله	بولاق	١٢٩٥ هـ
تزيين الأسواق	لداود الأنطاكى	مصر	١٣٠٨ هـ
تهذيب الأسماء	للنووى	جوتنجن	١٨٣٢ م
الجبرتى ، تاريخ	انظر : عجائب الآثار		
حسن المحاضرة فى مصر والقاهرة جزآن	للسيوطى	مصر	١٢٩٩ هـ

(*١) بدأت دار الكتب المصرية فى طبعه ابتداء من سنة ١٩٠٦ وأصدرت عدداً من الاجزاء ولكنه لم يتم الى الان . وقد صنع المستشرق جويدى فهرسا مفصلا لطبعة الساسى التى تمت على أساس طبعة بولاق ، وقد ترجم هذا الفهرس الى العربية ونشره فى القاهرة الاستاذ محمد مسعود ، ولا غنى عن هذا الفهرس فى مراجعة الاغانى . وقد شرعت احدى دور النشر فى بيروت فى طبع الاغانى على أساس طبعة دار الكتب

(*٢) أعيد طبعه بعد ذلك فى القاهرة باشراف الاستاذ بهجت الاثرى

(*٣) طبع التاريخ الكبير المعروف بتاريخ دمشق لابن عساكر فى دمشق ، فى خمسة اجزاء . دمشق ١٣٢٩ — ١٣٣٣ ، ثم شرع الدكتور صلاح المنجد فى نشره نشرة علمية محققة وأصدر منه الجزء الاول وذيله ثم الجزء الثانى

(*٤) أعيد نشره نشرة علمية محققة باشراف الاستاذ عبد الستار فراج فى القاهرة سنة ١٩٥٨

(*٥) نشره Lippert فى لايبسك ١٩٠٣ واسم الكتاب الكامل أخبار العلماء بأخبار الحكماء

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
حلية الكميت	لشمس الدين النواجى	مصر ١٢٩٩ هـ
حياة الحيوان الكبرى (جزآن)	للدميرى	مصر سنة ١٣٠٩ هـ
الخراج ـ كتاب	لأبى يوسف	بولاق ١٣٠٢هـ(*١)
» »	لقدامة بن جعفر	ليدن ١٣٠٦ هـ
الخطط التوفيقية ٢٠ جزءاً	لعلى باشا مبارك	بولاق ١٣٠٦ هـ
خطط مصر (جزآن)	للمقريزى	بولاق ١٢٧٠هـ(*٢)
الخميس (جزآن)	للديار بكرى	مصر ١٨٢٣م(*٣)
الدميرى ، كتاب	انظر : حياة الحيوان	
ديوان أبى نواس	للحسن بن هانى	مصر ١٨٩٨ م
رحلة ابن بطوطة جزآن	لابن بطوطة	مصر ١٢٨٧ هـ
رحلة ابن جبير	لابن جبير	ليدن ١٨٥٢م(*٤)
رسائل الخوارزمى	لأبى بكر الخوارزمى	الاستانة ١٢٩٧ هـ
سراج الملوك	للطرطوشى	على هامش مقدمة ابن خلدون بمصر سنة ١٣١١ (*٥)
سلسلة التواريخ	لسليمان وأبى زيد	باريس ١٨١١هـ(*٦)
السيرة الحلبية ٣ أجزاء	لعلى بن برهان الدين الملقب نور الدين الحلبى القاهرى	مصر ١٣٠٢ هـ
سير الملوك	لعبد الرحمن الاربلى	بيروت ١٨٨٥م(*٧)
السيرة النبوية ٣ أجزاء	لابن هشام	بولاق ١٢٩٥ هـ
السيوطى ، تاريخ	انظر : حسن المحاضرة	
شعراء السريان	للقرداحى	رومية ١٨٧٥ م
الشعر والشعراء	لابن قتيبة	ليدن ١٩٠٢م(*٨)

(*١) أعاد نشره محققا الاستاذ محمد شاكر ، بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٦

(*٢) اسم الكتاب : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، وقد نشر الاستاذ جاستون فييت جانبا من الجزء الاول من طبعة بولاق فى اربعة اجزاء ضمن منشورات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، القاهرة ١٩١١ ـ ١٩٢٤

(*٣) الخميس فى أحوال أنفس نفيس للقاضى حسين بن محمد بن الحسن الدياربكرى ، المتوفى فى مكة فى حدود ٩٦٦ هـ . وهو كتاب فى السيرة النبوية

(*٤) اعاد نشره محققا الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٧

(*٥) طبع طبعة خاصة غير محققة فى القاهرة ، بدون تاريخ ، وقد ترجم الى الاسبانية ونشرت الترجمة فى مدريد سنة ١٩٣٨ فى مجلدين

(*٦) الف هذا الكتاب سليمان التاجر وأبو زيد الحسن السيرافى من أهل القرن الثالث الهجرى ، وقد اخذ عنوانه من فاتحته : « هذا كتاب فيه سلسلة التواريخ والبلاد والبحور وانواع الاسماك وفيه علم الفلك وعجائب الدنيا وقياس البلدان والمعمور منها ... الخ » . قام على نشره Langlès وعلق عليه رينو فى باريس ١٨١١ ـ ١٨٤٥

(*٧) ويسمى نهاية الارب فى أخبار الفرس والعرب وهو كتاب فى تاريخ الفرس والعرب واحوالهما من بدء الخليقة الى فتح العرب فارس

(*٨) اعاد نشره نشرة صحيحة محققة الشيخ محمد محمود شاكر ، فى جزئين ، القاهرة ١٩٤٢

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية	لطاشكبرى زاده	على هامش ابن خلكان
الشهرستانى ، كتاب	انظر : الملل والنحل	
صحيح البخارى ٤ أجزاء	للامام البخارى	مصر ١٣٠٤ هـ
طبقات الأطباء ــ جزآن	لابن أبى أصيبعة	مصر ١٨٨٢ م
« ، الأدباء	لعبد الرحمن الانبارى	مصر ١٢٩٤ هـ
« ابن سعد	لابن سعد	(خط) (*١)
تاريخ تغرى بردى	انظر : النجوم الزاهرة	
العبر والمبتدا والخبر ٧ مجلدات	لابن خلدون	بولاق سنة ١٢٨٤ هـ
عجائب الآثار ٣ أجزاء	للجبرتى	على هامش ابن الأثير (*٢)
« المخلوقات	للقزوينى	على هامش الدميرى
العقد الفريد ٣ أجزاء	لابن عبد ربه	مصر ١٣٠٥هـ(*٣)
« «	للملك السعيد	مصر ١٢٨٣ هـ
فتوح البلدان	للبلاذرى	ليدن ١٨٦٦م(*٤)
الفخرى فى الآداب السلطانية ، تاريخ	انظر : الآداب السلطانية	
الفرج بعد الشدة جزآن	للتنوخى	مصر ١٩٠٣ م
الفلاحة النبطية	لابن وحشية	(خط)
الفهرست	لابن النديم	ليبسك ١٨٧٢ م
فوات الوفيات جزآن	لابن شاكر الكتبى	مصر ١٢٨٢هـ(*٥)
قاموس الادارة والقضاء ٧ أجزاء	ليفيلب جلاد	مصر ١٨٩٠ م
القانون	لابن سينا	رومية ١٥٩٣م(*٦)
القبة الزرقاء	للدكتور فانديك	بيروت ١٨٩٣ م
قدامة ، كتاب	انظر : الخراج	
القرمانى ، تاريخ	انظر : أخبار الدول	
القزوينى ، كتاب	انظر : عجائب المخلوقات	

(*١) الطبقات الكبرى لابى عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى كاتب الواقدى ، نشر جزءا كبيرا منه المستشرق ادوارد سخاو بمعاونة يوسف هوروفتش ويوليوس ليبرت وسترشتين وبروكلمان ، صدر منه ١٣ جزءاً (١٣٢٢ ــ ١٣٣٩ هـ) ثم طبع منه جزآن فى القاهرة سنة ١٩٣٠

(*٢) طبع فى بولاق طبعة جيدة فى اربعة مجلدات ، ثم أعيد طبعه على اساس طبعة بولاق فى اربعة مجلدات ايضا

(*٣) نشر نشرة علمية محققة باشراف أحمد امين وآخرين فى سبعة مجلدات ، القاهرة ١٩٤٠ وما بعدها

(*٤) طبع فى القاهرة طبعة غير محققة سنة ١٩٣٢ ثم أعاد نشره محققا الدكتور صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ــ ١٩٥٨

(*٥) أعيد نشره فى القاهرة بتحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٤

(*٦) نشر فى القاهرة فى بولاق فى أربعة مجلدات

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
القوانين العقارية للحكومة المصرية		مصر ١٨٩٣ م
الكامل ١٢ جزءاً	لابن الأثير	مصر ١٣٠٢ هـ (*١)
الكامل	للمبرد	مصر ١٢٨٦ هـ (*٢)
كتاب الأذكياء	لابن الجوزى (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسين)	مصر ١٣٠٦ هـ
كتاب الاعتبار	لابن منقذ	ليدن ١٨٨٤ م
كتاب البخلاء	للجاحظ	مصر ١٣٢٤ هـ (*٣)
كتاب البلدان	لابن الفقيه الهمذانى	ليدن ١٨٨٥ م
« «	لليعقوبى	« « «
كتاب الحيوان ٣ أجزاء	للجاحظ	مصر سنة ١٣٢٤ هـ
كشف الظنون جزآن	لكاتب جلبى	الاستانة ١٣١١ هـ (*٤)
الكشكول	للعاملى	مصر ١٣٠٥ هـ
لطائف المعارف	للثعالبى	ليدن ١٨٦٧ م
اللمعة الشهية فى اللغة السريانية	للمطران يوسف داود	الموصل ١٨٧٩ م
الماوردى ، كتاب	انظر : الأحكام السلطانية	
مجمع الأمثال جزآن	للميدانى	بيروت ١٣١٢ هـ
مختصر أخبار الخلفاء	لابن الساعى (محمد بن أنجب البغدادى)	بولاق ١٣٠٩ هـ
« « الدول	لأبى الفرج بن هرون الملطى المعروف بابن العبرى	بيروت ١٨٩٠ م
مروج الذهب جزآن	للمسعودى	مصر ١٣٠٤ هـ (*٥)
المزهر جزآن	للسيوطى	بولاق ١٢٨٢ هـ (*٦)
المسالك والممالك	لابن حوقل	ليدن ١٨٧٣ م (*٧)
« «	لابن خرداذبة	« ١٨٨٠ م

(*١) نشره نشرة محققة فى أوبسالا بالسويد كارل يوهان تورنبرج ونشره فى لايدن فى ١٤ مجلدا من ١٨٧٤ الى ١٨٧٦

وقد أعيد نشره فى القاهرة بالمطبعة المنيرية نشرة غير محققة فى عشرة مجلدات ، القاهرة ١٩٤٢

(*٢) نشرة المستشرق وليام رايط فى ليدن

(*٣) نشره جزئيا المستشرق فان فلوتن فى ليدن ، ثم نشره نشرة علمية محققة الاستاذ الدكتور طه الحاجرى ، القاهرة ١٩٤٧

(*٤) أعيد طبعه محققا فى الاستانة سنة ١٩٣٦

(*٥) طبع فى باريس باشراف باربييه دى ميفار ١٨٦١ — ١٨٧٧ فى تسعة مجلدات مع ترجمة فرنسية

(*٦) أعيد طبع المزهر فى علوم اللغة لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى ونشر محققا فى القاهرة فى جزءين سنة ١٩٥٠

(*٧) الاسم الصحيح لكتاب ابن حوقل هو « صورة الارض » وقد أعيد طبعه فى لايدن باشراف المستشرق باركر فى جزءين بهذا الاسم سنة ١٩٤٠

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
المسالك والممالك	للاصطخرى	ليدن ١٨٧٠ م
المستطرف جزآن	للابشيهى	مصر ١٣١١ هـ
المسعودى ، كتاب	انظر : مروج الذهب	
مشكاة المصابيح	لولى الدين العمرى	دهلى ١٣١٠ هـ
المعارف	لابن قتيبة	مصر ١٣٠٠ هـ
معجم البلدان ستة أجزاء	لياقوت الحموى	ليبسك ١٨٧٠م(*١)
مفتاح السعادة	لطاشكبرى زاده	(خط)
المقدسى ، جغرافية	انظر : أحسن التقاسيم	
المقرى ، تاريخ	« : نفح الطيب	
المقريزى ، تاريخ	« : خطط مصر	
الملل والنحل جزآن	للشهرستانى	لندن ١٨٤٢م(*٢)
الموطأ	للامام مالك	(خط) (*٣)
الميدانى ، كتاب	انظر : مجمع الأمثال	
ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ للحكومة المصرية		بولاق سنة ١٩٠٣ م
النجوم الزاهرة جزآن	لأبى المحاسن	ليدن ١٨٥١م(*٤)
نفح الطيب ٤ أجزاء	للمقرى	بولاق ١٢٧٩هـ(*٥)
نهاية الأرب فى قبائل العرب	للقلقشندى	(خط)
الهداية	برهان الدين الفرغانى	لكنهو ١٣١٤ هـ
الهمدانى ، جغرافية	انظر : كتاب البلدان	
وفيات الأعيان ٣ أجزاء	لابن خلكان	مصر ١٣١٠هـ(*٦)
اليعقوبى ، جغرافية	انظر : كتاب البلدان	

(*١) طبع كتاب معجم البلدن لياقوت الحموى طبعة محققة بمعرفة السيد أمين الخانجى فى القاهرة سنة ١٩٠٦

(*٢) أعيد نشر كتاب الملل والنحل للشهرستانى فى القاهرة بتحقيق الشيخ محمد فتح الله بدران بالقاهرة ١٩٥٦ فى مجلدين

(*٣) طبع الموطأ للامام مالك بن أنس مرارا متعددة فى مصر والمغرب بروايات شتى

(*٤) بالاضافة الى هذين المجلدين اللذين طبعا فى لايدن من كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابى المحاسن جمال الدين يوسف بن تفرى بردى الاتابكى ، طبع المستشرق بوبر Popper تسعة مجلدات فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة ، ثم أعادت دار الكتب المصرية نشر الكتاب نشرة محققة وظهر فى ١٠ اجزاء من ١٩٢٩ الى ١٩٤٩

(*٥) طبع نصف كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب لاحمد بن محمد بن أبى العيش المعروف بالمقرى فى ليدن فيما بين سنتى ١٨٥٥ و ١٨٦٦ فى مجلدين بتحقيق المستشرقين دوزى وكريل ودوجاورايت ، وهذا القسم المطبوع فى لايدن يشمل المقدمة العامة المشهورة فى التعريف بالاندلس ، وقد توقفت هذه اللجنة من المستشرقين عن طبع القسم الثانى الخاص بلسان الدين بن الخطيب ، ثم طبع الكتاب كله طبعة غير محققة باشراف الشيخ محيى الدين عبد الحميد فى القاهرة سنة ١٩٤٩ فى عشر مجلدات

(*٦) نشر الشيخ محيى الدين عبد الحميد وفيات الاعيان نشرة لابأس بها فى ست مجلدات فى القاهرة سنة ١٩٥٢ ثم الحقها بمجلدين يضمان فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى

فهرس

الموضوع **الصفحة**

الطبقة الثانية من العامة

الآداب الاجتماعية

آداب العرب فى صدر الاسلام

الآداب الاجتماعية فى العصر العباسى

المعيشة العائلية

حضارة الدولة الاسلامية

الموضوع **الصفحة**

الثروة والرخاء ونتائجهما

أبهة الدولة

مواكب الخلفاء

ألعاب الخلفاء وملاهيهم

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة